الدكتور محمد الأمين الخضري

من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية / عابدين
القاهرة ـ ت ٣٩١٧٤٧٠

الدكتور محمد الأمين الخضري
كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر

مِنْ أَسْرَارِ حُرُوفِ الجَرِّ فِي الذِّكْرِ الحَكِيمِ

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ، عابدين
القاهرة – ت ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أودع من أسرار الاعجاز فى كتابه ما لا تستوعبه العقول ، ولا تستنفده كثرة الدراسات ، ولا يبلى جديده كر الليالى والسنين ، والصلاة والسلام على من شرفه رب العالمين ، بما تنزل به الروح الأمين ، على قلبه بلسان عربى مبين ، ليكون نذيرا ورحمة للعالمين .

وبعد ..

فقد شغلتنى أسرار الحروف فى الذكر الحكيم ، منذ أن سجلت رسالتى لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) فى البلاغة والنقد ، تحت عنوان « الواو ومواقعها فى النظم القرآنى » وتوصلت من خلالها الى أن دراسة الحروف دراسة بلاغية لا تزال تضيق عنها مناهج البحث البلاغى ، كما استقرت فى علوم البلاغة لدى المتأخرين .

واذا كانت الواو قد وجدت بعض الاحتفاء فى مواقعها من باب الفصل والوصل ، فان غيرها من بقية حروف العطف لا يزال ينتظر حظه من الدراسة فى مباحث لا تحكمها هذه المناهج .

ويمثل ذلك أقول فى حروف الجر التى لم تجد طريقها الى الدراسات البلاغية ، الا من خلال استعارة الحروف ، وفى أمثلة تعد على أصابع اليد الواحدة تاهت فى زحمة تطبيق قواعد الصناعة عليها أسرار التجوز فيها ، واختفى فى أطواء المذاهب المختلفة ما تشيعه حولها من دلالات وايحاءات .

واذا كان المنهج الذى اختطه ابن الأثير والعلوى فى كتابيهما (المثل السائر) و (الطراز) فى تناول مسائل البلاغة ، لم يحل دون التعرض لخطر درسها ، والكشف عن أسرار الاعجاز من خلالها ، فان

ذلك لم يتعد بضع أمثلة مما بثه صاحب الكشاف فى تفسيره ، ونبهت اليه بعض الدراسات التى دارت حوله •

ولا تزال جهود الزمخشرى وغيره من المفسرين مما تناثرت حياته فى ثنايا النظام القرآنى ، بحاجة الى من يتتبعها ، وينعم النظر فيها ، ويكشف عن أمثالها ، مما لم يتعرضوا له ، فى دراسة مستوعبة تجمع النظير الى النظير ، وتوازن بين متشابه النظم الكريم ، مما اتحدت ألفاظه أو تقاربت واختلفت حروف الايصال فيه ، هادفة من وراء ذلك ، الى الكشف عن مواطن البلاغة وضروب الاعجاز ، غير متوقفة عند تأويلات تستهدف بيان صحة الأساليب دون أن تتجاوزها الى ومضات الحروف ، أو محصورة فى عدد من الأمثلة مما تعلق به النحاة ورجالات البلاغة •

وغنى عن البيان أن الكتب التى تفردت بالبحث فى دراسة حروف المعانى ، وحظيت حروف الجر فيها بمساحات لا بأس بها ، وهى كثيرة مثل : « كتاب حروف المعانى » للزجاجى و « الأزهية فى علم الحروف » للهروى ، و « رصف المبانى فى شرح حروف المعانى » للمالقى ، أقول ان هذه الكتب هى محض دراسات نحوية ، تكشف عن معانى الحروف واستعمالاتها طبقا لمذاهب النحاة ، وتتأول النصوص بما يصحح طرائق التعدية واللزوم كما تقتضيها طبيعة هذه الصناعة • لكنها لا تكشف عن أسرار هذه المعانى فى مواقعها من سياقها ، و لاتبحث فى الدواعى التى من أجلها تفارق مواضعها •

ولا أبالغ اذا قلت : ان هذه الكتب تكاد تتكرر فيها نفس الأمثلة ، ولنفس المعانى ، وأن اختلفت المذاهب بين القول بنيابة الحرف،والتجوز فيه ، وتضمين الفعل • وقد اتجهت بعض الدراسات الحديثة الى تناول الحروف بما يكشف عن أسرارها فى الكتاب العزيز : مثل كتاب (من أسرار

التعبير فى القرآن حروف القرآن) للدكتور عبد الفتاح لاشين ، وكتاب: (نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمــالها القرآنى بلاغيا) للدكتور هادى عطية مطر الهلالى ، وكتاب (تناوب حروف الجر فى لغــة القرآن) للدكتور محمد حسن عواد • الا أن هذه الدراسات لا تفى بما نهدف اليه ، اما لأن دراسة حروف الجر فيها قليلة ، تناولت عددا محدودا من الأمثلة فى مشتبه النظم ، واعتمدت على الكتب التى تخصصت فى هذا اللون من الدراسة ، كما هو الشأن فى الكتاب الأول ، واما لأنها لم تزد عن سرد الأمثلة التى ترددت فى كتب النحاة واللغــويين والمفسرين كنماذج لتقارب الحروف ، أو تضمين الأفعال ، واكتفت بجمع الأقوال فيها مثل الكتابين الثانى والثالث ، وان نكن قد أفدنا منها كما أفدنا من غيرها •

لذلك فقد رأيت أن يقتصر هذا البحث على حروف الجــر التى قيل انها تتبادل مواضعها ، وتتعاور معانيها ، وتتبعتها فى مواقعها من النظم القرآنى فى دراسة مستقصية ، تتغيا الوقوع على أسرارها ، والتسمع الى همسها ، وخاصة فيما يظن أنه موقع غير موقعها ، أو أن غيرها يؤدى مؤداها ، وصولا الى مواطن الاعجاز فيهــا ، لذلك توقفت طويلا عندما اشتبه نظمه من آيات الكتاب العزيز واختلفت حروف الايصال فيه ، بما يكشف عن دقائق الفروق ، وما خفى من وجوه البلاغة •

واذا كنت قد شغلت القارىء بفصــل أفردته للبحــث فى تضمين الأفعال ، فما ذلك الا ضرورة اقتضاها لجوء النحاة والبلاغيين الى هذا التضمين ، فيما جاء معدى بحروف ليس من شأنه أن يتعدى بها ، وهــو ما رأيت أنه صرف همم اللغويين والمفسرين عن الالتفــات الى أســرار الحروف فى كثير من آيات القرآن المجيد ، شأنه فى ذلك شأن الاستعارة فى الحروف ، حين تستهلك جهد الباحثين فى بيان المستعار منه والمستعار

له ، وهل هى فى معنى الحرف أو فى مدخوله ، وتشغلهم عن أسرار التجوز ومراميه .

وحبذا لو جعلنا وقوع الحرف فى غير موقعه من باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وصرفنا الهمم الى البحث فى أسباب هـذا الخروج وأغراضه،وهو ما سارت عليه هذه الدراسة ، ونصبته هدفا لها.

وأحسب أننى ما قصرت فى جهد ، أما الكمال فلله رب العالمين .

د. محمد الأمين الخضرى

غرة ربيع الثانى ١٤٠٩هـ
تبوك ـــ المملكة العربية السعودية

توطئـــة

(فانه لما كانت مقاصد كلام العرب على اختلاف صـــنوفه ، مبنيا أكثرها على معانى حروفه ، صرفت الهمم الى تحصيلها ، ومعرفة جملتها وتفصيلها ، وهى مع قلتها ، وتيسر الوقوف على جملتها ، قد كثر دورها ، وبعد غورها ، فعزت على الأذهـــان معانيهـــا ، وأبت الاذعـــان الا لمن يعانيها) (١) •

بهذه العبارة قدم الحسن بن قاسم المرادى لكتابه « الجنى الدانى فى حروف المعانى » كاشفا عن أهمية الحروف ودورها فى ابراز المقاصد والأغراض ، وتوقف دلالات النظم وأسراره على ادراك مرامى الحروف ، والتسمع لوسوستها ، ومنبها الى ضرورة المكابدة والمعاناة فى استجلاء معانيها وأسرارها •

وحسبنا أن نعلم كيف يغير الحرف معنى ما تعلق به ، ويقلب دلالته الى النقيض منهـــا ، حتى يصير للفظ الواحد ــ فعلا كان أو اســـما ــ أكثر من معنى حسب الحرف الواصل له •

فهذا الفعل (رغب) يتعدى بالى ، وفى ، وعن ، والبـــاء ، ومع كل حرف يتعدى به تتجدد له دلالة غير دلالته مع الحـــرف الآخر • يقـــول الراغب : (أصـــل الرغبة : الســـعة فى الشىء ، يقـــال : رغب الشىء : اتسع ، وحوض رغيب ، وفلان رغيب الجوف ، وفرس رغيب العـــدو ، والرغبة والرغبى : السعة فى الارادة ، قال تعـــالى : « ويدعوننا رغبـــا ورهبا » • واذا قيل : رغب فيه ، واليه ، يقتضى الحرص عليه،قال تعالى : « انا الى الله راغبون » واذا قيل : رغب عنه ، اقتضى صرف الرغبة عنه ،

---

(١) الجنى الدانى ١٩ •

والزهد فيه ، نحو قوله تعـالى : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم ـ أأنت راغب عن آلهتى »(٢) •

وفى قوله تعالى : « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه •• التوبه ١٢٠ » يفسر الزمخشرى الرغبة بما يفيد الضن والبخل (٣) •

فكيف أفاد فعل الرغبة كل هذه المعـانى المختلفة التى وصلت الى حد التناقض بينها ؟ انها الحروف ، بما تخلعه من معانيها على معـانى متعلقاتها ، وأثر العدوى الحاصلة بالارتباط بين الحرف وما وصل به • فهـو حين عـدى الى المرغوب بفى الظرفيـة التى تقتضى أن المرغوب احتوى الرغبة ، كما يحتوى الظرف على المظـروف ، أنبأ ذلك عن معنى الحرص ، وكأنه أفرغ كل رغبتـه فيه ، وحين عدى بالى التى تدل على انتهاء الغـاية ، أفاد انصراف الراغب الى مرغوبه ، وتوجهـه اليـه ، وانصرافه عمـا عداه « انا الى الله راغبـون » وحين عـدى بحـرف المجـاوزة ، دل بما اكتسـبه من معنى هـذا الحـرف على الانصراف عن الشيء وتجـاوزه ، كقـوله تعـالى : « ومن يـرغب عن ملة ابراهيم •• » وحين عدى بالباء التى تفيد الالصـاق كما فى قوله تعالى « ولا يرغبوا بأنفسهم » دل على الضن والبخل بها ، لأن الصاق الرغبة بالأنفس يدل على شدة الارتباط بها ، وعدم التفريط فيها •

فهذه المعانى التى تواردت على فعل الرغبة انما اتسع لهـا بحكم ما اكتسبه من معـانى الحروف التى وصل بهـا ، وما أشـاعته فيه من دلالاتها •

وهذا الفعل (سمع) يتعدى بنفسه ليفيد معنى ادراك الأصوات ، ويتعدى بمن ، وعن ، واللام ، والى ، والباء ، فيتسع لمعان وأغراض ،

---

(٢) المفردات ١٩٨ •
(٣) الكشاف ٢/٢٢٠ •

تتلاقى وتتباين طبقا للحرف المتعدى به • يقول الخطابى : (فاذا قلت : سمعت منه كلاما ، أردت سماعه من فيه ، واذا قلت : سمعت عنه علما ، كان ذلك عن بلاغ) (٤) واذا تعدى بالى أفاد حسن الاصغاء ، لما فى (الى) من معنى التوجه الى الشىء ، والقصد اليه ، كما فى قوله تعالى : « لا يسمعون الى الملأ الأعلى •• الصافات ٨ » قال الزمخشرى : (فان قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدث ، وسمعت اليه يتحدث ، وسمعت حديثه ، والى حديثه ؟ قلت : المعدى بنفسه يفيد الادراك ، والمعدى بالى يفيد الاصغاء مع الادراك)(٥) •

ويتعدى باللام فيكتسب من معنى الاختصاص فيها ايثار المسموع واختصاصه بالقبول والتسليم ، كما فى قوله تعالى : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له •• الأعراف ٢٠٤) أى : فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه (٦) •

وجاء معدى بالباء فى قوله تعالى : « نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى •• الاسراء ٤٧» فكشفت الباء بما فيها من معنى المصاحبة عن دخائل نفوس المشركين،وماصحب حالة الاستماع من مكر واستخفاف ، فهم يتظاهرون بالاستماع ، ولكنهم مشغولون بتدبير ما سيرمون به الرسول عليه السلام بعد استماعهم اليه ، كما هو واضح من قوله « واذ هم نجوى » قال أبو حيان : (لم يقل يستمعونه ولا يستمعونك ، لما كان الغرض ليس الاخبار عن الاستماع فقط ، وكان مضمنا أن الاستماع كان على طريق الهزء ، بأن يقولوا مجنون أو مسحور جاء الاستماع بالباء والى ، ليعلم أن الاستماع ليس المراد به تفهم المسموع دون هذا المقصد) (٧) •

---

(٤) بيان اعجاز القرآن ٣٢ •
(٥) الكشاف ٣/٣٣٦ •
(٦) الكشاف ٢/١٣٩ •
(٧) البحر المحيط ٦/٤٣ •

هذه اللطائف التى تعرض للنظم بسبب الحروف ، هى التى جعلت المرادى وغيره ينبهون الى خطر درسها ، والاحتياج الى الصبر فى التقاط شواردها ، فكم زلت فى سبيلها أقدام راسخة ، واحتجبت باسرارها عن عيون متاملة فاحصة ، ولا أدل على ذلك مما رواه الخطابى عن مالك بن دينار (قال : جمعنا الحسن لعرض المصاحف ، انا وأبا العالية الرماحى، ونصر بن عاصم الليثى ، وعاصما الجحدرى فقال رجل : يا أبا العالية ، قول الله تعالى فى كتابه : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » ما هذا السهو ؟ قال : الذى لا يدرى عن كم ينصرف ، عن شفع أو عن وتر ، فقال الحسن : مه يا أبا العالية ، ليس هـذا ، بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم • قال الحسن : ألا ترى قوله عز وجـل : « عن صلاتهم » ويعلق الخطابى على ذلك بقوله : « قلت:وانما أتى أبو العالية فى هذا ، حيث لم يفرق بين حرف عن وفى ، فتنبه له الحسن ، فقال ألا ترى الى قوله « عن صلاتهم » يؤيد أن السهو الذى هو الغلط فى العدد ، انما هو يعرض فى الصلاة بعد ملابستها ، فلو كان هو المراد لقيل : فى صلاتهم ساهون ، فلما قال عن صلاتهم ، دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت ، ونظير هذا ما قاله القتبى فى قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » زعم أنه من قوله : عشـوت الى النار أعشو ، اذا نظرت اليها ، فغلطوه فى ذلك ، وقالوا : انما معنى قوله ، من يعرض عن ذكر الرحمن ، ولم يفرق بين عشوت الى الشىء ، وعشوت عنه ، وهذا الباب عظيم الخطر ، وكثيرا ما يعرض فيه الغلط ، وقديمـا عنى به العربى الصريح ، فلم يحسن ترتيبه وتنزيله)(٨) •

وقد نعى جار الله الزمخشرى على من يهملون الفروق الدقيقة بين معانى الحروف ، وما رتب عليها من اختلاف دلالات التراكيب ، خاصة فى

(٨) بيان اعجاز القرآن ٣٢ ـ ٣٣ •

نظم الكتاب العزيز ، قال جار الله : فان قلت : يجرى لأجل مسمى ، ويجرى الى أجل مسمى ، أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت : كلا،ولا يسلك هذه الطريقة الا بليد الطبع ، ضيق العطن ، ولكن المعنيين ، عنى الانتهاء والاختصاص ، كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض ، لأن قولك يجرى الى أجل مسمى ، معناه يبلغه وينتهى اليه ، وقولك : يجرى لأجل مسمى ، تريد : يجرى لادراك أجل مسمى ، تجعل الجرى مختصا بادراك أجل مسمى) (٩) •

نعم انه لمن ضيق العطن أن يسوى بين حرفين فى الدلالة ، ولكل معناه ووظيفته التى لا يؤديها سواه،فكيف يمكن التسوية بين قول قائل: سعيت لفلان ، وقوله : سعيت الى فلان ، والفرق بينهما لا يخفى على ذى عين ، حيث الأول يفيد معنى السعى من أجله ، والثانى يدل على القصد اليه والانتهاء عنده • وهو ذات الفرق بين قوله تعالى : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن » (الاسراء ١٩) وبين قوله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله » (الجمعة ٩) •

فالسعى للآخرة يعنى العمل من أجلها والاستعداد لها بصالح العمل ، والسعى الى الصلاة ، يراد به التوجه اليها ، والقصد الى بيوت الله لأدائها •

على أن ادراك مثل هذه الفروق أمر ميسور حين يكون الفعل أو ما فى معناه مما يتعدى بأكثر من حرف ، ويكون تعديته بهذه الحروف مشهورة معلومة ، اذ أن الخطأ — ان وقع — يكون محصورا فى عدم ادراك الفروق بين دلالات الحروف ، والتفاوت تبعا لذلك بين دلالات التراكيب •

---

(٩) الكشاف ٣/٢٧٣ •

لكن الأمر يزداد صعوبة ، ويصبح الطريق شائكا حين يتعدى الفعل بحرف ليس من شأنه أن يتعدى به ، اما لأنه يتعدى بنفسه ، واما لأنه يتعدى بحرف آخر شاعت تعديته به على ألسنة الفصحاء ، فاذا ما خولف المعروف والمشهور من هذه التعدية فان الآراء حينئذ تتباين ، والمذاهب تتعدد فى تفسير هذه المخـــالفة ، وأكثرها لا يعنى بالوقوف على أسرار المخالفة ، واستجلاء أغراض النظم ، بقدر ما يعنى بايجـــاد تبرير لهذا الخروج ، والاستشهاد على صحته ، مما نطق به العرب ، أو نزل به الروح الأمين •

ومن ثم نجد جمهورا كبيرا من النحاة ، متمثلا فى الكوفيين ومن لف لفهم يكتفون بأن يقولوا انه من تداخل معانى الحروف ، ونيابة بعضها عن بعض ، وهو المذهب الذى ساغ لكثير من القدامى والمتأخرين ، حيث أفرد ابن قتيبة فصلا فى أدب الكتاب ، سماه (دخول بعض الصفـــات مكان بعض) وهو يعنى بالصفات حروف الجر ، ومثله فى كتابة تأويل مشكل القرآن ، ذاهبا الى أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض فى أداء معانيها المشهورة بها ، وصنفت كتب فى معانى الحروف تذكر للحرف عدة معان يتبادلها مع أخواته من حروف الجر الأخرى • مثل : « كتاب حروف المعانى » للزجاجى ، و« الأزهية » للهروى ، وقد عقد فى آخره بابا سماه (دخول حروف الخفض بعضها مكان بعض) • وكتاب معانى الحروف للرمانى ، والجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى ، ورصف المبانى فى شرح حروف المعانى للمـــالقى ، والمغنى لابن هشـــام الذى استحسن فيه رأى الكوفيين ، وغير ذلك من المؤلفـــات التى تعدد لكل حرف من حروف المعانى ما يتداخل به مع غيره من الحروف •

أما البصريون فقد رفضوا فكرة النيابة هذه ، وحاولوا تأويل كل ما بدا أنه خارج عن معناه المشهور له ، اما بالتأول فى الحرف ذاته، واما

بالتأول فى الفعل أو الاســم الذى تعدى به ، وهو الرأى الذى راق للبلاغيين وتعلقوا به باعتباره أقرب الى الاســتجابة لخصائص النظم ، وأقدر على ابراز مقاصد الكلام وأغراضه •

وقد أوجز ابن هشام هذا الخلاف بقوله : (مذهب البصريين أن حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس ، كما أن أحرف الجزم ، وأحرف النصب كذلك ، وما أوهم ذلك فهو عندهم اما مؤول تأويلا يقبله اللفظ ، كما قيل فى « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » ان « فى » ليست بمعنى « على » ولكن شبه المصلوب ، لتمكنه من الجذوع بالحال فى الشىء ، واما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف ، كما ضمن بعضهم (شربن) فى قوله « شربن بماء البحر » معنى روين ، وأحسن فى « وقد أحسن بى » معنى لطف ، واما على شذوذ انابة كلمة عن أخرى ، وهذا الأخير هو محمل الباب كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين ، ولا يجعلون ذلك شاذا ، ومذهبهم أقل تعسفا) (١٠) •

ومهما راق رأى الكوفيين لابن هشام ، فان الدراسات البيانية ، ترفض أن يكون هناك تغيير فى نظم الكلام ، تستبدل معه كلمة بأخرى لا يتبعه تغير فى المقاصد والأغراض ، ومن ثم فانها لا تستريح لرأى يصم أذنيه عن التسمع لخصائص الحروف ، وما تشيعه فى نسق التراكيب من ايحاءات ، وما تشى به من أغراض •

وقد كان ابن جنى رحمه الله أقرب اللغويين الى الحس البلاغى ، وادراك أسرار الحروف حين لفت النظر الى وجوب توخى أغراض النظم ، وتفهم الأحوال والدواعى وراء العدول من تعدية فعل بحرفه الواصل له ، الى آخر ليس من شأنه أن يعدى به ، وحاول جهده أن يضع

---

(١٠) مغنى اللبيب ١/١٠٢ ـ ١٠٣ •

ربما يتوخاه الباحثون لمعرفة هذه الأسرار ، وقد وفق كثيرا فيما تهيأ له من خلال باب عقده لذلك فى كتابه الخصائص فى استعمال الحروف بعضها مكان بعض ، بدأه بقوله : (هذا باب يتلقاه الناس مغسولا ساذجا من الصنعة ، وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه ، وذلك أنهم يقولون : ان (الى) تكون بمعنى (مع) ويحتجون لذلك بقول الله سبحانه « من أنصارى الى الله » أى مع الله ، ويقولون : ان (فى) تكون بمعنى (على) ، ويحتجون بقوله عز اسمه « ولأصلبنكم فى جذوع النخل .. » ثم يقول : (ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا ، لكنا نقول : انه يكون بمعناه فى موضع دون موضع ، على حسب الأحوال الداعية اليه ، والمسوغة له ، فأما فى كل موضع، وعلى كل حال فلا ، ألا ترى أنك اذا أخذت بظاهر هذا القول غفلا هكذا لا مقيدا ، لزمك عليه أن تقول : سرت الى زيد ، وأنت تريد معه ، وأن تقول : زيد فى الفرس ، وأنت تريد عليه ..) ويمضى قائلا : (ولكن سنضع فى ذلك رسما يعمل عليه ، ويؤمن التزام الشناعة لمكانه .

اعلم أن الفعل اذا كان بمعنى فعل آخر ، وكان أحدهما يتعدى بحرف ، والآخر بآخر ، فان العرب قد تتسع ، فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه ، ايذانا بأن هذا الفعل فى معنى ذلك الآخر ، فكذلك جىء معه بالحرف المعتاد مع ما هو فى معناه ، وذلك كقول الله عز اسمه : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم » وأنت لا تقول : رفثت الى المرأة ، وانما تقول : رفثت بها ، أو معها ، لكنه لما كان الرفث فى معنى الافضاء ، وكنت تعدى أفضيت بالى ، كقولك : أفضيت الى المرأة ، جئت بالى مع الرفث ايذانا واشعارا أنه بمعناه » .

---

(١١) الخصائص ٣٠٦/٢ وما بعدها .

من هذا النص يتضح لنا :

أولا : أن ابن جنى يرفض اطلاق القول بنيابة حروف الجر بعضها عن بعض ، ويرى أن وضع حرف مكان آخر يرتبط بالدواعى والأغراض التى توجب العدول عن الحرف الأصلى الى حرف آخر يستطيع الوفاء بالغرض ويفصح عن مقاصد الكلام .

ثانيا : أنه فتح المجال واسعا لما سمى بعد ذلك تضمين الفعل معنى فعل آخر يصح معه تعديته بالحرف الذى يتعدى به ذلك الفعل ، ويكون الحرف دليلا على التضمين .

ثالثا : أن التعبير بالاتساع يشير الى أن ايقاع الفعل موقع غيره للاشعار بأن الفعل فى معنى فعل آخر ، ضرب من التجوز فى الفعل دون الحرف ، لأن التغير فى الدلالة حادث فى الفعل ، والحرف قرينة دالة عليه .

رابعا : أن تعبير ابن جنى (ايذانا بأن هـذا الفعل فى معنى ذلك الآخر) يوحى بأن الفعل مستعمل فى المعنى الذى يتعدى به الحرف وحده ، دون معناه الأصلى ، وليس لذلك تفسير الا أن يكون هـذا الاستعمال على طريق التجوز فيه اما بالاستعارة ، واما على سبيل المجاز المرسل ، بخلاف التضمين الذى قال به المتأخرون ، حيث يكون الفعل دالا على معناه الأصلى ، وعلى معنى ما تضمنه ، مما يجعل القول بالمجاز فيه جمعا بين الحقيقة والمجاز ، وهو ما يرفضه علماء البيان .

ويتضح الفرق بين التجوز والاتساع فى الفعل عند ابن جنى ، والتضمين عند المتأخرين فى بيت الفرزدق :

كيف ترانى قاليا مجنى   أضرب أمرى ظهره للبطن

● قد قتل الله زيادا عنى ●

قال ابن جنى : (لما كان المعنى قد قتله : قد صرفه ، عداه بعن)(١٢)٠

فلم يجمع فى تأوله للفعل بين معناه الأصلى ومعناه الطارىء عليه بالتجوز ، بخلاف ما نجده عند المتأخرين ، حيث قال الأشمونى : « قد قتل الله زيادا عنى : أى صرفه بالقتل) (١٣) فجمع بين المعنيين ٠

ثم ان ابن جنى يلجأ احيانا الى التأويل فى الحرف حين لا يكون موجب التأويل تعدى الفعل بما ليس له من الحروف ، وانما يكون موجبه تعدى الحرف الى ما ليس من شأنه التعدى اليه ، كأن لا يكون هناك فعل أصلا ، أو يكون هناك فعل من شأنه أن يتعدى بهذا الحرف ، ولكنه ليس مما يتعدى الى المجرور به ، فيتأول معنى الحرف بما يدل على التجوز فيه ، وتكون قرينـة التجوز هى تعـديه الى هذا المجرور ، أو يتأول فى مدخوله بتقدير مضاف محذوف ، وهذا نص كلامه (وقال :

بطل كأن ثيـابه فى سرحة يحذى نعال السبت ليس بتوءم

أى على سرحة ، وجاز ذلك من حيث كان معلوما أن ثيابه لا تكون فى داخل سرحة ، لأن السرحة لا تنشق فتستودع الثياب ولا غيرها ، وهى بحالها سرحة ٠

فهذا من طريق المعنى بمنزلة كون الفعلين أحدهما فى معنى صاحبه على ما مضى ، وليس كذلك قول الناس : فلان فى الجبل ، لأنه قد يمكن أن يكون فى غار من أغواره ، أو لصب من لصـابه ، فلا يلزم أن يكون عليه ، أى عاليا فيه ٠

---

(١٢) الخصائص ٢/٣٠٩ ٠

(١٣) شرح الأشمونى ٢/٩٥ ٠

وقال :

وخضخضن فينا البحر حتى قطعنه   على كل حال من غمار ومن وحل

قالوا أراد بنا • وقد يكون عندى على حذف المضاف ، أى فى سيرنا ومعناه فى سيرهن بنا •

ومثل قوله : (كأن ثيابه فى سرحة) قول امرأة من العرب :

هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة   فلا عطست شيبان الا بأجدعا

لأنه معلوم أنه لا يصلب فى داخل جذع النخلة وقلبها) (١٤)•

فلم يتأول فى الفعل (صلب) لأن موجب التأول ليس عدم امكان تعدى الفعل بحرف الوعاء ، فلو قلت : صلبوا العبدى فى ميدان كبير ، لما كان هناك حاجة الى التأول ، وانما الذى أوجبه أن (فى) لا تتعدى فى الظاهر الى ما تعدت اليه •

وهذا الفرق بين موجب التأول فى الفعل وموجبه فى الحرف ، لم يوله الباحثون فى معانى الحروف اهتماما ، فحسبوا أن الفعل اذا تعدى بحرف ينبغى حسب الظاهر أن يتعدى بغيره ، فالبصريون يتأولون فى الحرف بالاستعارة ان أمكن تطبيقها عليه ، ولا يلجأون الى التضمين الا حيث يتعذر استعارة الحرف ، اما لأن الأصل فى الفعل أن يتعدى بنفسه ، أو لأن الحرف الأصلى الذى يتعدى به لا يستساغ اجراء الاستعارة فيه وهذا غير ما استبان لنا من كلام ابن جنى ، وهو خير من كشف بوضوح عن وجهة نظر البصريين ، كما يشهد لذلك قول البطليوسى : (ولم أر للبصريين تأويلا أحسن من قول ذكره ابن جنى فى كتابه الخصائص)(١٥)

---

(١٤) الخصائص ٣١٢ وما بعدها •

(١٥) الاقتضاب ٢٦٤/٢ •

وابن جنى — كما رأينا — يتأول فى الفعل بما يدل على الاستعارة التبعية ، أو المجاز المرسل ، ولا يلجأ الى التأول فى الحرف الا حيث لا يكون هناك فعل ، أو يكون هناك فعل يصح تعديه بهذا الحرف ، ولكن المجرور به تأبى حقيقته هذا الحرف •

لذلك فان ما ورد فى بحث التضمين من مجلة المجمع اللغوى ايجازا لرأى البصريين يحتاج الى مناقشة ، فقد جاء فيه : (فليس للحرف معنى وضعى عندهم الا معنى واحد ، وما أوهم خلافه فلا يخرج عن أمور ثلاثة:

(أ) اما تأويله تأويلا يقبله اللفظ ، مثل استعارة الحرف الذى تعدى به الفعل ، لمعنى الحرف الذى كان ينبغى أن يتعدى به على طريق الاستعارة التبعية ، ان سهل تطبيق هذه الاستعـــارة على الحرف بكل شروطها ، كاستعارة (فى) لمعنى (على) فى قوله تعالى : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » أى عليها ، وقول عنترة :

بطل كأن ثيــابه فى سرحة ... يحذى نعال السبت ليس بتوءم

أى على سرحة ، لعظمه وطوله ، وقولهم (لا يدخل هذا الخاتم فى أصبعى) أى على اصبعى • وكاستعارة (الى) لمعنى (فى) فى قول النابغة :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى ... الى الناس مطلى به القار أجرب

يريد فى الناس • وقول طرفة :

وان يلتق الحى الجميع تلاقنى ... الى ذروة البيت الكريم المصمد

أى فى ذروة البيت الذى يصمد اليه ويقصد •
وأمكنت الاستعارة •

وهكذا الشأن فى بقية الحروف اذا انحرفت عن معانيها الوضعية

(ب) وما التوسع فى استعمال الفعل أو ما يقوم مقامه فى معنى لا يتبادر منه لأول وهلة ، اذا لم يكن ثمة حرف يستعار ، بأن استعمل الفعل المتعدى بحرف جر خاص ، استعمال اللازم ، فلم يتعد الى مفعول أصلا ، أوتعدى بحرف ، ولكن بحرف جر آخر لا يستساغ بلاغة اجراء الاستعارة فيه ، وسموا هذا التوسع تضمينا) (١٦) •

فالفعل « أصلب » فى الآية الكريمة متعد بنفسه ، ومفعوله ضمير المخاطبين ، والجار ليس واصلا للفعل ، وانما هو ومجروره حال ، بدليل الاستغناء عنه فى قوله « ولأصلبنكم أجمعين » وقوله « وما قتلوه وما صلبوه » وسبب التجوز فى الحرف هو أن مدخوله لا يصلح للظرفية ، وذلك هو قرينة الاستعارة •

ولو قلنا فى غير القرآن : لأصلبنهم فى معتقلاتهم لما كان هناك داع الى التجوز ، ومثله بيت النابغة • أما بيت عنترة فليس فيه فعل أصلا يتعدى بهذا الحرف أو بغيره ، وانما الدافع الى التأويل والتجوز هو أن السرحة لا تكون ظرفا للثياب ، فتعين التأويل فى الحرف ، ولا مجـال لتأويل آخر ، الا فى مدخول الحرف بتشبيهه بما يصلح أن يكون ظرفا ، وهكذا فى جميع الشواهد التى ساقها أمثلة للاستعارة فى الحرف •

وأما القول بأن التأويل فى الفعل يلجأ اليه حين لا يكون هناك حرف يستعار ، أو يكون الحرف مما لا يستساغ بلاغة اجراء الاستعارة فيه ، فهو منقوض بكثير من الشواهد التى قال البصريون فيها بالتضمين ، مع وجود حرف اجراء الاستعارة فيه مستسـاغ ومعهود • من ذلك قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان •• البقرة ١٠٢ »

---

(١٦) مجلة المجمع الملكى العدد الأول ١٨٠ ــ ١٨١ •

فقد جاء فى البحر المحيط : (وقال أصحابنا : لا تكون (على) فى معنى (فى) ، بل هذا من التضمين فى الفعل • ضمن تتقول ، تعدى بعلى ، لأن تتقول تعدى بها ، قال تعالى : « ولو تقول علينا ») (١٧) •

وكلا الحرفين (على) و (فى) يستعار أحدهما للآخر ، ولكن الذى دفع البصريين الى عدم التأول فى الحرف ، واللجوء الى التضمين ، هو أنهم رأوا الفعل صالحا للتعدى بحرف الاستعلاء كما فى قوله تعالى : « واذا تتلى عليه آياتنا •• لقمان ٧ » ولكنه لا يتعدى بهذا الحرف الى الملك ، فليس الحرف هو قرينة التجوز فى الفعل ، وانما مدخول الحرف قرينة التجوز فيه •

وأحسب أن ما جرى عليه ابن جنى فى تأويل الفعل أو الحرف هو الأقرب الى نظرة البلاغيين ، كما تنبىء عنه تطبيقات الزمخشرى ، وكما يدل عليه حديث البلاغيين عن الاستعـــارة فى الحرف ، وان تكن كتب البلاغة قد توقفت عند مثالين أو ثلاثة مما تناوله الزمخشرى ، وراحت تؤول كلامه بما يدل على التبعية حينا ، أو المكنية حينا آخر ، واستفرغ الجدل حول مراد الزمخشرى منها كل جهودهم فى هذا الموضوع ، مما كان له أثره فى صرفهم عن أسرار التجوز ، واستعراض ما حفل به الكتاب العزيز من شواهد ، وكأن الاستعارة فى الحرف لا تتعدى هذه الأمثلة التى سودت من أجلها صفحات طوال فى الخلاف بين السعد والسيد حول قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم •• البقرة ٥ » وما اذا كانت الاستعارة تبعية أو مكنية أو تمثيلية ، والخلاف حول الاستعارة فى الحرف أو مدخولها ، من قوله تعالى : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل•• طه ٧١» وقوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا •• القصص ٨ » دون أن نرى ابرازا للغرض من التجــوز ، ســوى الدلالة على التمكن

---

(١٧) البحر المحيط ٣٢٦/١ •

والاستقرار والثبات مما اقتبس من كلام الزمخشرى .

والعجيب أن يكون هذا هو الغرض من التجوز حين تكون «على» هى المستعارة ، وأن يكون ذات الغرض وهو الدلالة على التمكن والاستقرار حين تكون (فى) هى المستعارة ، فاذا كان كل منهما يدل على هذا المعنى فلم يستعار أحدهما للآخر ؟

على أن الكشاف يضم بين دفتيه كثيرا من الأسرار البلاغية للحروف مما لم يجد طريقة الى كتب البلاغة ، لأن الزمخشرى لم يكشف عن وجه التأول فيها ، واكتفى بذكر الغرض من المخالفة فى التعدية أو اللزوم ، وهو الأجدى فى الكشف عن أسرار الاعجاز فى الكتاب المجيد . أما ما تقتضيه الصناعة من تفسير الاستعارة ، وبيان المستعار منه ، والمستعار له فليس ذلك الا وسيلة للوقوف على أغراض التجوز ودواعيه .

لكننا لم نعدم من رجالات البلاغة من وجد فيما استخرجه الكشاف من لطائف مادة حية تستحق أن يفرد لها حديث يتناول أسرار حروف الجر ، ومخالفة الظاهر فى التعدى بها والعدول عن حرف منها الى حرف آخر ، وان جاء الحديث عنها مقتضبا ، وتكرارا لما ذكره الزمخشرى،كما هو الحال فى المثل السائر ، والطراز . يقول ابن الأثير : (وأما حروف الجر فان الصواب يشذ عن وضعها فى مواضعها . وقد علم أن (فى) للوعاء ، و (على) للاستعلاء ، كقولهم : زيد فى الدار ، وعمرو على الفرس ، لكن اذا أريد استعمال ذلك فى غير هذين الموضعين ، مما يشكل استعماله عدل فيه عن الأولى . فمما ورد منه قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ألا ترى الى بداعة هذا المعنى المقصود لمخالفة حرف الجر هاهنا ، فانه انما خولف بينهما فى الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد ، يركض به حيث شاء ، وصاحب الحق كأنه

منغمس فى ظلام منخفض فيه ، لا يدرى أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلما يراعى مثله فى الكلام) (١٨) .

ووجه احسان ابن الأثير أنه التفت الى أهمية هذه الدراسة ، ولم يضق منهجه فى تناول مسائل البلاغة عن مثل هذا الحديث الشائق ، وان كان ما قاله لا يعدو أن يكون تكرارا لما قاله جار الله الزمخشرى .

ويهمنى هنا أن أسجل أن الزمخشرى كان يتأول فى الحرف ، حين يكون المجرور مما لا تقبل حقيقته دخول هذا الحرف عليه ، كما تأول فى الآيات التى سلف ذكرها حيث أن الهدى والضلال ، وجذوع النخل ، وكون العداوة والحزن وعلة الالتقاط ، مما لا يصلح مدخولا للاستعلاء ، والظرفية والتعليل ، وهو فى ذلك يسير مع ابن جنى فى نفس الطريق . وحين يكون الفعل مما لا يتعدى بالحرف الواصل له ، فانه يتأول فى الفعل على سبيل تضمينه معنى فعل آخر يتعدى به ، وهو لا يختلف مع ابن جنى الا فى اطلاق لفظ التضمين عليه . والذهاب الى كون الفعل دالا على مجموع المعنيين .

ففى قوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم .. .. البقرة ١٨٧ » نجد أن حرف الانتهاء لا يمتنع دخوله على النساء ، وانما يمتنع أن يتعدى الرفث به ، مما جعل ابن جنى يلجأ الى التأول فى الفعل (وأنت لا تقول : رفثت الى المرأة ، وانما تقول : رفثت بها أو معها ، لكنه لما كان الرفث هنا فى معنى الافضاء ، وكنت تعدى أفضيت بالى ، كقولك : أفضيت الى المرأة ، جئت بالى مع الرفث ، ايذانا واشعارا

---

(١٨) المثل السائر ٢/٢٤٠ .

أنه بمعناه) (١٩) وكذلك فعل الزمخشرى : (فان قلت : لم عدى الرفث بالى ، قلت : لتضمينه معنى الافضاء) (٢٠) •

وحين كان مدخول الحرف تأبى حقيقته ما دخل عليه لجأ الزمخشرى الى التجوز فى الحرف فقال فى قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم ••• البقرة ٥ » : (ومعنى الاستعلاء فى قوله « على هدى » مثل لتمكنهم من الهدى ، واستقرارهم عليه) (٢١) •

فتأول الاستعلاء فى الحرف بما يتلاءم مع مدخوله ، لما كان الاستعلاء فى معناه الحقيقى غير صالح لدخوله على الهدى ، ولا مناص من التأول فى الحرف • أو فى مدخوله ، اذ ليس معنا فعل يتأول فيه •

---

(١٩) الخصائص ٣٠٨/٢ •
(٢٠) الكشاف ٣٣٨/١ •
(٢١) السابق ١٤٢/١ •

الفصل الأول

التضمين وأثره على دلالات الحروف وأسرارها

التضمين وأثره على دلالات الحروف وأسرارها

لما كان التضمين محاولة للتأول فى الفصل أو الاسم ، بما يصح معه الانسجام مع الحرف الواصل له ، وجب أن نتعرض له ، لا باعتبار ما دار حوله من معارك تتصل بالحقيقة والمجاز فيه ، ولا باعتبار ما دار من خلاف بين النحاة والبلاغيين فى مفهومه ، فان الجدل العنيف الذى قام بخصوص ذلك لم يكن ليستحق من هذه الدراسة التوقف عنده طويلا ، لولا أنه يتصل بما نهدف اليه من استجلاء أسرار الحروف فى الذكر الحكيم ، وبخاصة حين يقع الحرف فى غير مكانه ، مما يتطلب الدقة فى الوقوع على سر تسلله الى هذا الموضع ، واستراق السمع للوصول الى ما يهمس به من ثوانى المعانى .

وبادىء ذى بدء ، وقبل الخوض فى مفهوم التضمين ، والمذاهب النحوية والبلاغية فيه أقرر أن القول بالتضمين لا يعدو أن يكون محاولة لايجاد وجه يصح معه وقوع الحرف فى غير موقعه ، لا بحثا عن أسرار البلاغة فى العدول عن الحرف المعهود فى مكانه . وحسبنا أن نقرأ ما قاله أبو حيان تعليقا على قول الزمخشرى بالتضمين فى قوله تعالى : « ولا تعد عيناك عنهم .. الكهف ٢٨ » قال أبو حيان : (وما ذكره من التضمين لا ينقاس عند البصريين ، وانما يذهب اليه عند الضرورة ، أما اذا أمكن اجراء اللفظ على مدلوله الوضعى فانه يكون أولى)(١) ولئن ساغ للنحاة أن يعتبروه ضرورة بمقتضى صناعتهم ، وأن يتخذوه مطية للهروب من القول بالشذوذ فى التعدى أو تناوب الحروف ، أفيصح

---

(١) البحر المحيط ١١٩/٦ .

ذلك نهجا للبلاغيين يستجلون به أسرار الذكر الحكيم ، وهو حافل بما لا يحصى من الشواهد التى فيها مخالفة مقتضى الظاهر فى اللزوم أو التعدى ؟

واذا كان القول بالتضمين قد راق لحذاق العربية وفقهائها حتى عد من محاسن اللغة وبدائع الايجاز فيها افهو كذلك دائما فى كل المواطن التى قيل فيها بالتضمين وما أكثرها ؟ يقول ابن القيم : (ان الفعل المعدى بالحروف المتعددة لابد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر ، وهذا بحسب اختلاف معانى الحروف ، فان ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق ، نحو رغبت عنه ورغبت فيه ، وعدلت اليه ، وعدلت عنه ، وملت اليه وعنه ، وسعيت اليه وبه ، وان تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق ، نحو قصدت اليه وقصدت له ، وهديته الى كذا وهديته لكذا ، وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر ، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة ، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ، ومعنى مع غيره ، فينظرون الى الحرف وما يستدعى من الأفعال ، فيشربون الفعل المتعدى به معناه • هذه طريقة امام الصناعة سيبويه رحمه الله تعالى ، وطريقة حذاق أصحابه ، يضمنون الفعل معنى الفعل ، ولا يقيمون الحرف مقام الحرف ، وهذه قاعدةشريفة جليلة المقدار ، تستدعى فطنة ولطافة فى الذهن ، وهذا نحو قوله تعالى: « عينا يشرب بها عباد الله » فانهم يضمنون يشرب معنى يروى ، فيعدونه بالباء التى تطلبها ، فيكون فى ذلك دليل على الفعلين ، أحدهما بالتصريح به ، والثانى بالتضمن والاشارة اليه بالحرف الذى يقتضيه مع غاية الاختصار وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها) (٢) •

---

(٢) بدائع الفوائد ٢/٢١ •

ومهما راق لابن القيم تضمين « يشرب » معنى يروى لافادة معنى الشرب والرى معـا فانه لا يستطيع أن يفسر لنا ما قيمـة الجمع بين الشرب والرى ؟ ولم لم يقـل : يروى بهـا ، والرى لا يكون الا عن شرب ؟

بل اننى أذهب الى أن القول بالتضمين صرف همم حذاق العربية عن استجلاء أسرار الحروف : وجعلهم يستنيمون اليه فى المواضع التى لا يظهر فيها سر وقوع حرف موقع غيره .

ولك أن تقف عند سر الكناية الذى أبان عنه الزمخشرى فى التعبير بالرفث دون الافضاء وما يماثله من كنايات أكثر عفة عن الجماع ، وهو من لطائف الكشاف : (فان قلت : لم كنى هنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح ، بخلاف قوله — وقد أفضى بعضكم الى بعض — فلما تغشاها — باشروهن — أو لامستم النساء — دخلتم بهن — فأتوا حرثكم — من قبل أن تمسوهن — فما استمتعتم به منهن — ولا تقربوهن — قلت : استهجانا لـما وجد منهم قبل الاباحة ، كما سماه اختيانا لأنفسهم) (٣) فكيف يعدل عن الكناية بالافضاء الى الكناية بالرفث استهجانا لـما وجد منهم قبل الاباحة ، ثم يقال بعد ذلك فى سر تعـدية الرفث بالى : انه تضمن معنى الافضـاء ليجمع بين معنيين ترك أحـدهما عمـدا لاستهجان ما وقع منهم ؟

فهل أكون مجافيا للحقيقـة اذا قلت : ان الزمخشرى لو لم يكن ملتفتا الى ما قاله النحاة من التضمين فى الفعل لجاءنا بالمبهر من القـول كعادته فى استجلاء أسرار النص القرآنى؟ وهل أخطأت القول حين ذهبت الى أن القول بالتضمين حجب الكثير من أسرار الحـروف وصرف همم

---

(٣) الكشاف ١/٣٣٨ .

العلماء عن استجلائها ؟ بدليل أن هـذه الأسرار تجلت فى المواطن التى ليس فيها فعل أو اسم صالح للتضمين •

ولنبدأ الآن فى بيان مفهوم التضمين وغرضه عند النحاة والبيانيين، لنرى حقيقة الخلاف بينهما ، وما اذا كان هذا الخلاف شكليا أو جوهريا، لننطلق بعد ذلك الى مناقشة التضمين ، من حيث وفاؤه باستجلاء أسرار الحروف ، فى هذا اللسان وخاصة فى معجزته الكبرى •

التضمين فى مفهوم النحاة يفسره قول ابن هشام : (قد يشربون لفظا معنى لفظ فيعطونه حكمه ، ويسمى ذلك تضمينا ، وفائدته أن تؤدى كلمة مؤدى كلمتين) (٤) ولم يسلم هذا التعريف من الاعتراض عليه ، فقال الأمير فى حاشيته على المغنى : (قوله : يشربون لفظا معنى لفظ ، ظاهر فى تغاير المعنيين ، فلا يشمل نحو « وقد أحسن بى » أى لطف،فان اللطف والاحســـان واحد ، فالأولى أن التضـــمين الحاق مادة بأخرى لتضمنها معناها ، ولو فى الجملة ، أعنى باتحاد أو تناسب)(٥) •

فاشراب اللفظ معنى لفظ آخر ، أو الحاقه به لمناسبة يدل على أن المعنى المضمن من قبيل المجاز ، لأنه مدلول عليه بغير لفظه الموضوع له ، ويدل كذلك على أنه مقصود أصالة للوفاء بغرض المتكلم من الاشراب أو الالحاق ، ولولا اشتراط أداء الكلمة لمعنييها الحقيقى والمجازى ، لما كان هناك خلاف حول مجـــازية التضمين ، ولا نحصر الخلاف فى نوع التجوز ، أما وقد اشترط النحاة هـــذا الشرط الذى يجمع بين حقيقـــة اللفظ ، وما استعمل فيه ، فلابد أن يكون للبيانيين موقف آخر ، بحكم أنهم يرفضون الجمع بين الحقيقة والمجاز • وهذا ـــ فيما أعتقد ـــ هو

---

(٤) مغنى اللبيب ٢/١٩٣ •

(٥) حاشية الأمير على المغنى ٢/١٩٣ •

الدافع الى القول بأن هناك تضمينا نحويا وآخر بيانيا ، مع اتفاقهما فى الغرض من التضمين ، وهو اعطاء مجموع المعنيين ، يقول الدسوقى فى حاشيته على المغنى : (قوله أن تؤدى كلمة مؤدى كلمتين ، ظاهر فى أن الكلمة تستعمل فى حقيقتها ومجازها ، ألا ترى أن الفعل من قوله تعالى : « للذين يؤلون من نسائهم » ضمن معنى يمتنعون من نسائهم بالحلف ، وليس حقيقة الايلاء الا الحلف ، فاستعماله فى الامتناع من وطء المرأة انما هو بطريق المجاز ، من باب اطلاق السبب على المسبب، فقد أطلق فعل الايلاء مرادا به ذانك المعنيان جميعا ، وذلك جمع بين الحقيقة والمجاز بلاشك ، وهو أى الجمع المذكور انما يتأتى على قول الأصوليين : ان قرينة المجاز لا يشترط أن تكون مانعة) (٦) •

من هنا كان منشأ الخلاف ، حيث ان قرينة المجاز عند البيانيين ، تمنع ارادة المعنى الحقيقى ، وقصد الحقيقة فى التضمين مانعةمن المجاز فى عرفهم ، فلا بد أن يكون للتضمين مفهوم آخر ، لا يرد عليه الجمع بين الحقيقة والمجاز •

والذى يظهر لى من تتبع أقوال اللغويين والنحاة ، أن فائدة التضمين التى أشار اليها صاحب المغنى ، لم ترد فى كلام قدامى النحاة ممن ينسب اليهم القول بالتضمين أو ما يؤدى مؤداه ، وظاهر كلام ابن جنى فى الخصائص ، والبطليوسى فى الاقتضاب ، وغيرهما ، يدل على التجوز فى الفعل ، وصرفه عن معناه الحقيقى ، بقرينة الحرف الذى تعدى اليه ، وليس مرادا منه كلا معنييه الحقيقى والمجازى كما ذهب اليه المتأخرون من النحاة • وقد نقلنا من نصوص ابن جنى ما يدل على أن الفعل المذكور مستعمل فى معنى الفعل المتروك ، مدلول عليه بالحرف الذى من

---

(٦) حاشية الدسوقى على المغنى ٢/٣٠٥ •

شأنه أن يتعدى به ، وهذا نص من الاقتضاب يتضح منه ما يؤكد وجهة نظرنا • يقول البطليوسى : (وأنت لا تقول : رفث الى المرأة ، انما تقول رفث بها ، أو رفث معها ، ولكن لما كان الرفث بمعنى الافضاء ، وكان الافضاء يتعدى بالى ، كقولك أفضى الى الشيء ، أجرى الرفث مجراه لفظا ، لموافقته له معنى • وكذلك قول القحيف العقيلى :

اذا رضيت علىّ بنو قشير   لعمر الله أعجبنى رضاها

انما عدى فيه رضى بعلى ، لأن الرضا بمعنى الاقبال ، وقولك : أقبلت عليه بودى ، بمعنى رضيت عنه ، وكان الكسائى يقول : حمله على ضده وهو سخطت ، لأن العرب قد تحمل الشيء على ضده ، كما تحمله على نظيره ، وكذلك قول الآخر :

اذا ما امرؤ ولى على بوده   وأدبر لم يصدر بادباره ودى

انما عدى فيه ولّى بعلى ، وكان القياس أن يعديها بعن ، لأنه اذا ولى عنه بوده ، فقد ضن عليه وبخل ، فأجرى التولى بالود مجرى الضنانة والبخل ، أو مجرى السخط ، لأن توليه عنه بوده لا يكون الا عن سخط عليه) (٧) •

فعباراته : (أجرى الرفث مجراه لفظا) (فأجرى التولى بالود مجرى الضنانة والبخل) دالة على أن الفعل مستعمل فيما هو بمعناه ، وقوله : (لأن توليه عنه بوده لا يكون الا عن سخط عليه) كشف عن علاقة التجوز باطلاق لفظ المسبب وارادة السبب • واذا كان ابن جنى لم يصرح بلفظ المجاز فيما نقلناه عنه ، فانه عبر بالتوسع ، وهو مصطلح مشهور فى الدلالة على التجوز ، يرد كثيرا فى كلام اللغويين والنحاة •

---

(٧) الاقتضاب ٢/٢٦٦ •

على أن البطليوسى حين نقل نص ابن جنى صرح فيه بلفظ المجـاز ولا أدرى ان كان ذلك قد سقط من أصل النسخة المطبوعة للخصائص ، أم أنه اضـافة من البطليوسى أوضح بهـا مـراد ابن جنى • قال فى الاقتضاب : (ولم أر فيه للبصريين أحسن من قول ذكره ابن جنى فى الخصائص ، وأنا أورده فى هذا الموضع ، وأعضد بما يشاكله من الاحتجاج المقنع ان شاء الله تعالى : اعلم أن الفعل اذا كان بمعنى فعل آخر ، وكان أحدهما يتعدى بحرف الجر ، والثانى بحرف جر آخر ، فان العرب قد تتسع ، فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه مجازا ، وايذانا بأن هذا الفعل فى معنى ذلك الآخر) (٨) •

وهو صريح فى أن هذا التوسع من قبيل التجوز فى الفعل ، والحرف هو القرينة الدالة عليه ، وذلك ما صرح به الانبـابى فى حاشـيته على الرسالة البيـانة تعليقا على قول الصـبان : (الذى يظهر لى أن اللفظ المضمن معنى لفظ آخر ، تضمينا نحويا ، مما استعمل فى كلا معنييه ، الحقيقى والمجازى ، فيكون حقيقة ومجازا باعتبارين)(٩) •

قال الانبابى : (« قوله مما استعمل فى كلا معنييه •• الخ » أى فى كل منهما على حدة ، وان لزم عليه الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلف فيه ، لا فى مجموعهما مرتبطا أحدهما بالآخر ،حتى يكون مجازا فقط أ•هـ مؤلف • أى ولا فى معناه المجازى فقط ، كمـا هو ظاهر كلام ابن جنى فى الخصائص ، لمـا أنه مفوت لفائدة التضمين ، من أداء كلمة مؤدى كلمتين) (١٠) •

---

(٨) الاقتضاب ٢/٢٦٤ ـ ٢٦٥ •

(٩) رسالة الصبان فى علم البيان ٢٠٥ وما بعدها •

(١٠) حاشية الانبابى على الرسالة البيانية ٢٠٨ •

نعم ان ابن جنى يستعمل الكلمة فى مجازها فقط ، والقول بأن ذلك يفوت فائدة التضمين غير وارد على ابن جنى ، لأنه لا يرى هذه الفائدة لهذا الضرب من التوسع ، ولا يقول بها ، وانما هو عنده نوع من المجاز، وفائدته هى فائدة كل مجاز .

أما التضمين البيانى فهو من مجاز الحذف ، لأنه كما يقول الصبان: (تقدير حال يناسبها المعمول بعدها ، لكونها تتعدى اليه على الوجه الذى وقع عليه ذلك المعمول ، ولا تناسب العامل قبلها ، لكونه لا يتعدى الى ذلك المعمول على الوجه المذكور ، وهو قياسى اتفاقا ،لكونه من حذف العامل لدليل) (١١) .

ويبسط السيد الشريف وجهة نظر البيانين هذه عند قوله تعـالى : « الذين يؤمنون بالغيب .. البقرة ٣ » فيقول : (والتضمين : أن يقصد بلفظ فعل معناه الحقيقى ، ويلاحظ معه معنى فعل آخر يناسبه ، ويدل عليه بذكر شىء من متعلقاته ، كقولك : أحمد اليك فلانا ، لاحظت فيـه مع الحمد معنى الانهاء ، ودللت عليه بذكر صلته ، أعنى الى ، أى أنهى حمده اليك ، وفائدة التضمين اعطاء مجموع المعنيين، فالفعلان مقصودان معا قصدا وتبعا ، قال المصنف : من شأنهم أنهم يضمنون الفعـل معنى فعل آخر ، فيجرونه مجراه ، فيقولون : هيجنى شوقا معدى الى مفعولين بنفسه ، وان كان هو يتعدى الى الثانى بالى ، يقال : هيجه الى كذا ، لتضـمنه معنى ذكـر . وقال ابن جنى : لو جمعت تضمينات العرب لاجتمعت مجلدات . فان قلت : اللفظ اذا كان مستعملا فى المعنين معـا كان جمعا بين الحقيقة والمجـاز ، وان كان مستعملا فى أحـدهما ، فلم يقصـد به الآخر فلا تضمين ؟ قلت : هو مستعمل فى معنـاه الحقيقى

---

(١١) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ٢/٩٥ .

فقط ، والمعنى الآخر مراد بلفظ محـــذوف يدل عليـــه ذكر ما هو من متعلقاته ، فتارة يجعل المذكور أصلا فى الكلام ، والمحذوف حالا ، كمــا فى قوله تعالى : « ولتكبرو الله على ما هداكم » كأنه قيل : ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم ، وتارة يعكس ، فيجعل المحذوف أصلا والمذكور مفعولا ، كما مر من المثال ، أو حالا كما يشير اليه قوله : أى يعترفون به • فانه لابد حينئذ من تقدير الحال ، أى يعترفون به مؤمنين ، والا لم يكن تضمينا ، بل مجازا عن الاعتراف ، فان قلت : اذا كان المعنى الآخر مدلولا عليه بلفظ محذوف لم يكن فى ضمن المذكور،فكيف قيل انه مضمن اياه ؟ قلت : لمــا كان مناسبة المعنى للمذكور بمعونة ذكر صلته قرينــة على اعتباره جعل كأنه فى ضمنه) (١٢) •

وبتأمل ما ذكره السيد لا نجد بين النحاة والبيانين خلافا جوهريا، اذ أن الفعل عندهما ملاحظ معه معى فعل آخر ، مدلول عليه بالمخالفة فى التعـــدى أو اللزوم ، واللفـــظ مستعمل فى معنـــاه الحقيقى وفى معنى ما تضمنه ، والفائدة هى اعطـــاء المعنيين ، والفرق الوحيـــد هو فرار البيانين من الجمع بين الحقيقة والمجاز الى جعل المعنى المضمن محذوفا مدلولا عليه بما هو من متعلقاته ، مستهدين فى ذلك بتأويلات الزمخشرى وهو عمدة القائلين به من البيانيين ويظهر من تأويلاته تقدير حال غالبا ، فصار ذلك علما على مذهبـــه الذى يخالف فى اعتقادهم طريقة النحـــاة فى جعـــل الفعـــل دالا على المعنيين معـــا • وأحسب أن فهـــم ذلك من الزمخشرى واعتبار طريقته فى التضمين مغايرة لطرق النحاة حتى يعد بذلك رائد التضمين البيانى أمر يستبعده من يتتبع تأويلاته فى كشافه• وقد أصاب ابن كمال باشا فيما نقلهعنه الصبان:(الحق أن التضمينالبيانى هو التضمين النحوى ، وانما جاء الوهم للسعد من عبارة الكشاف ، حيث

---

(١٢) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١٢٦/١

قدر خارجين عن أمر ربهم (١٣) ، فتوهم أنه تقدير لعامل آخر ، وليس كذلك ، بل هو تسفير للفعل المضمن) (١٤) ٠

وحسبنا أن تكون الغاية من التضمين عند النحويين هى ذات الغاية التى يحققها التضمين البيانى كما أكده بحث التضمين فى مجلة المجمع اللغوى (والتدقيق يسوى بين التضمينين البيانى والنحوى من حيث الافادة العربية) (١٥) ٠

وحين نتتبع الزمخشرى فى كشافه لا نجد ما يدل على مخالفته للنحاة ، لا فى مفهوم التضمين ، ولا فى طريقة التأويل ، بل اننى أقول ان التضمين سرى الى الكشاف والبحث البلاغى تبعا له من حقل الدراسات النحوية ، وما أوهم بأن الزمخشرى فى التضمين يقدر حالا محذوفا مدلولا عليه بما هو من متعلقاته ، مردود عليه بأمثلة أخرى يجرى فيها على طريقة النحاة ، بما يدل على أن الفعل مستعمل فى معنييه ، وتقديره فى بعض المواضع لحال ، أو مفعول ، أو غير ذلك ليس الا كشفا عن المعنى بعبارات تتنوع ، بحسب ما يراه أقرب الى الابانة عن أغراض النظم ، وهو ليس ملتزما بتقدير حال أبدا كما ظنه البعض ، واعتبروه مذهبا خاصا للزمخشرى ، ثم راحوا يقيمون خلافا بينه وبين السعد فى تقدير الحال من وصف الفعل المتروك ، أو الفعل المذكور على حد قول الدسوقى فى حاشيته على المغنى : (وزعم بعضهم أن التضمين بالمعنى الذى ذكره السعد ، وهو جعل وصف الفعل المتروك

---

(١٣) يشير الى تفسير الزمخشرى لقوله تعالى « فليحذر الذين يخالفون عن أمره » ٠

(١٤) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ٢/٩٥ ٠

(١٥) مجلة المجمع الملكى العدد الأول ١٨٢ ٠

حالا من فاعل المذكور يسمى تضمينا بيانيا ، وأنه مقابل للنحوى ، وقيل : ان التضمين من باب المجاز ، ويعتبر المعنى الحقيقى قيدا ، وهذا هو الذى اعتبره الزمخشرى ، فعلى مذهب السعد يقال : ولا تأكلوا أموالهم ضاميها الى أموالكم ، وعلى مذهب الزمخشرى تقول : ولا تضموها اليها آكلين) (١٦) •

وهذا كله مردود بتتبع نصوص الكشاف ، وهى تؤكد أنه لا يختلف مع النحاة فى شئ ، وأن تقديره لحال من وصف الفعل المتروك ، أو المحذوف ليس الا كشفا عن المعنى فى مواطن خالفها فى مواطن أخرى • ففى قوله تعالى « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا •• الكهف ٢٨ » يقول : (يقال عداه : اذا جاوزه ، ومنه قولهم : عدا طوره ، وجاءنى القوم عدا زيدا ، وانما عدى بعن لتضمين عدا معنى نبا وعلا ، فى قولك : نبت عنه عينه ، وعلت عنه عينه اذا اقتحمته ولم تعلق به ، فان قلت : أى غرض فى هذا التضمين ؟ وهلا قيل : ولا تعدهم عيناك ، أو لا تعد عيناك عنهم ؟ قلت : الغرض منه اعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من اعطاء معنى فذ ، ألا ترى كيف رجع المعنى الى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين الى غيرهم ، ونحوه قوله تعالى: «ولاتأكلوا أموالهم الى أموالكم » أى ولا تضموها اليها آكلين) (١٧) •

فلا خلاف بينه وبين النحاة فى ارادة المجاوزة والنبو من الفعل « تعدو » ولا خلاف فى الغرض من التضمين ، وهو اعطاء مجموع المعنيين • أما تقدير وصف الفعل المذكور حالا ، وجعل المعنى المضمن أصلا ، فليس ذلك الا تقديرا للمعنى ، كما يدل عليه قوله (رجع

---

(١٦) حاشية الدسوقى على المغنى ٢/٣٠٦ •
(١٧) الكشاف ٢/٤٨١ •

المعنى الى ‥) واذا كان هنا قدر حالا من وصف مرادف الفعل المذكور وهو المجاوزة ، وقدر حالا من وصف الفعل المذكور فى قوله « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم » فانه فى قوله تعالى : « ولتكبروا الله على ما هداكم ‥‥ البقرة ١٨٥ » قدر الحال من وصف الفعل المتروك . فقال : (وانما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء لكونه مضمنا معنى الحمد ، كأنه قيل : ولتكبروا الله حامدين على ماهداكم) (١٨) .

وهو دليل على عدم التزام تقدير معين ، انما هو تفسير للمعنى وليس تفسيرا للاعراب كما نبه اليه أبو حيان : (وقوله : كأنه قيل : ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم هو تفسير معنى ، لا تفسير اعراب ، اذ لو كان تفسير اعراب لم تكن (على) متعلقة بتكبروا المضمنة معنى الحمد ، انما كانت تكون متعلقة بحامدين التى قدرها ، والتقدير الاعرابى هو أن تقول : كأنه قيل : ولتحمدوا الله بالتكبير على ما هداكم ، كما قدر الناس فى قولهم : قتل الله زيادا عنى ، أى صرف الله زيادا عنى بالقتل) (١٩) .

على أن تقدير الكشاف لحال من وصف الفعل المحذوف أو المتروك ليس ملتزما ، بل انه يجرى على طريقة النحاة فى التقدير الاعرابى الذى أشار اليه أبو حيان : مما يشهد على عدم مخالفتهم .

ففى قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ‥ الزمر ٥٣» يقول : (جنوا عليها بالاسراف فى المعاصى والغلو فيها)(٢٠)

---

(١٨) الكشاف ١/٣٣٧ .

(١٩) البحر المحيط ٢/٤٤ .

(٢٠) الكشاف ٣/٤٠٣ .

وهذا نهج النحاة فى تضمين (أسرفوا) معنى جنوا ، دون تقدير حال . ومثله ماجاء فى تفسير قوله تعالى : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم .. النمل ٨١ » (وهداه عن الضلال ، كقولك : سقاه عن العيمة، أى أبعده عنها بالسقى ، وأبعده عن الضلال بالهدى) (٢١) .

وفى قوله تعالى : « أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون .. يوسف ٤٣ » يقول : (وأن يضمن « تعبرون » معنى فعل يتعدى باللام، كأنه قيل : ان كنتم تنتدبون لعبارة الرؤيا) (٢٢) وهو صريح فى تضمين الفعل معنى تنتدبون دون ذكر حال من وصفه أو وصف الفعل المتروك .

وما قيل من أن الزمخشرى يقدر مفعولا محذوفا فى بعض الأمثلة، كما فى أحمد اليك فلانا بمعنى أنهى حمده اليك ، فلا أحسب أنه من التضمين ، وانما هو تفسير لمعنى (الى) وليس فى نص الكشاف ما يقطع بالتضمين ، وهذا ما قاله عند قوله تعالى : « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم .. البقرة ١٤ » (ومنه خلوت به ، اذا سخرت منه ، وهو من قولك : خلا فلان بعرض فلان يعبث به ، ومعناه : واذا أنهوا السخرية بالمؤمنين الى شياطينهم ، وحدثوهم بها ، كما تقول : أحمد اليك فلانا وأذمه اليك) (٢٣) .

فتقدير الفعل (أنهوا) هو تفسير لمعنى حرف الانتهاء ، والا فما المناسبة بين السخرية والانهاء وهو شرط التضمين ؟ ومثله تقدير (أنهى حمده اليك) لأنه لا مناسبة بين الحمد والانهاء حتى يكون تضمينا . وقد جاء مثل هذا التفسير لمعنى الى فى كلام الزجاج تعليلا لدخول حرف

---

(٢١) السابق ١٥٨/٣ .

(٢٢) الكشاف ٣٢٣/٢ .

(٢٣) السابق ١٨٤/١ .

الانتهـــاء فى قوله تعـــالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم .. البقرة ٢٤٣ » قال : (عدى « ترى » بالى حملا على النظر ، كأنه قال : ألم تنظر ، وان شـــئت : كان المعنى : ألم ينته علمك الى كـــذا) (٢٤) فتعبيره بالحمل هو المراد بالتضمين عند المتأخرين ، ولذلك غاير فى التعبير تفسيرا لحرف الانتهاء فقال (وان شئت كان المعنى) وذلك لأن تضمين (ترى) معنى ينظر مستوف لشرط التضمين من التناسب بين المعنيين ، ولا تناسب فى تضمين ترى معنى ينتهى .

وماذهب اليه السيد من أن قول صاحب الكشاف (معناه واذا أنهوا السخرية)(٢٥) اشارة الى تضمين (خلا) معنى الانهاء غيرملزم للزمخشرى وقد نقل ابن الحفيد عن جده سعد الدين التفتازانى ما هو صريح فى أن تقدير الكشاف هذا بيان للمعنى ، لا تفسير للتضمين ، قال ابن الحفيد : (لكنه صرح فى تفسير قولهتعالى «واذا خلوا الىشياطينهم»بأن معنىقول الكشاف : اذا أنهوا السخرية باعتبار أن تعديته بالى ، على تضمين معنى الانهاء ، كما فى أحمده اليك ، أى أنهى حمده ، وهذا بيان للمعنى ، وأمـــا التقدير فأحمده منهيا اليك) (٢٦) .

فاذا كان ما قاله الزمخشرى بيانا للمعنى ، وليس ســـائرا فيه على طريقة التضمين فكيف ينسب اليه ما لم يقله ؟

وفى المفردات للراغب ما يدل بوضوح على أن تفسير الزمخشرى ليس الا بيانا لمعنى الحرف قال الراغب : (وخلا فلان بفلان : صـــار معه فى خلاء ، وخلا اليه : انتهى اليه فى خلوة) (٢٧) ففسر معنى المصـــاحبة فى

---

(٢٤) اعراب القرآن المنسوب الى الزجاج ٢/ ٦٢٠ .
(٢٥) انظر حاشية السيد على الكشاف ١/ ١٨٤ .
(٢٦) الدر النضيد ٣١٩ ـ ٣٢٠ .
(٢٧) المفردات ١٥٨ .

الباء بمع ، وفسر معنى الى بالانتهاء ، وليس فى ذلك شىء من التضمين.

وفرق صاحب الكشف فيما نقله الألوسى بين تضمين الفعل ، وتقدير لفظ يدل على معنى الحرف عند تفسيره لقوله تعالى : « من أنصارى الى الله » فقال : (لعل الأشبه فى معنى الآية — والله تعالى أعلم — أن يحمل على معنى — من ينصرنى منهيا نصره الى الله تعالى — كما يقتضيه حرف الانتهاء ، دون تضمين)(٢٨) .

ولعل هناك ما هو أدل على أن الزمخشرى جرى فى التضمين على طريقة النحاة ، وليس له مذهب يخالفهم ، وهو أنه جعل من التضمين ما جاء من مصادر بعض الأفعال على غير قياس حملا للفعل على ما هو بمعناه ، فقال فى قوله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا ..نوح١٧» (والمعنى : أنبتكم فنبتم نباتا ، أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم)(٢٩) فالتضمين هنا جار على طريقة النحاة فى حمل الفعل على ما هو بمعناه ، والاتيان بمصدر الفعل المحمول عليه .

والغريب أن يقول أبو حيان : (ولا أعقل معنى هذا الوجه الثانى الذى ذكره)(٣٠) مع أن هذه طريقة شائعة عند النحاة ولا يخفى مثلها عليه ، وقد اتخذها ابن جنى والبطليوسى دليلا على صحة حمل الفعل على ما هو بمعناه أو التضمين بمصطلح المتأخرين . قال ابن جنى : (وقد سلك سيبويه هذه الطريقة فى المصادر كثيرا)(٣١) وقال البطليوسى:(وكما جاءوا بمصادر بعض الأفعال على غير ما يقتضيه القياس ، حملا لذلك الفعل على فعل هو فى معناه ، كقوله :

---

(٢٨) روح المعانى ٣/١٧٥ .
(٢٩) الكشاف ٤/١٦٣ .
(٣٠) البحر المحيط ٨/٣٤٠ .
(٣١) الخصائص ٢/٣١١ .

● وان شئتم تعاوذنا عواذا ●

وكان القياس : تعاوذا ، فجاء به على عاوذ ، اذ كان تعاوذ راجعا الى معنى عاوذ ، وكذلك قول القطامى :

● وليس بأن تتبعه اتباعا ●

والقياس تتبعا ، ولكن لما كان تتبع يؤول الى معنى اتبع ، حمله عليه ، وكذلك وجدناهم يحملون الشىء على الشىء ، اذا كانت بينهما علاقة لفظية أو معنوية)(٣٢) .

وقد أطنبت فى بيان رأى الزمخشرى لأصحح خطأ سائدا بأنه كان عمدة التضمين البيانى مخالفا مذهب النحاة فى التضمين ، ولو أن البيانين من المتأخرين اختطوا لأنفسهم منهجا فى التضمين يتفق وقواعد صناعتهم يغاير ما عند النحويين ، ونسبوه الى أنفسهم ما كان عليهم من حرج ، أما أن ينسبوا ذلك الى الزمخشرى ، فهذا ما استبان لنا التجاوز فيه من خلال نصوص لا تقبل الجدل .

ونبدأ الآن مناقشة التضمين باعتبار اتفاق النحاة والبلاغيين حول الغرض منه ودواعى القول به حتى وان اختلفت الطريقة فى اجرائه ومناقشتنا تدور حول أسئلة ثلاثة ، نتلمس لها اجابة ، وهى : هل يلزم فى التضمين أن يكون اللفظ مستعملا فى معنييه : الحقيقى والمتضمن ؟ وهل هو مجاز ؟ ومن أى أنواعه ؟ وأخيرا وهو الأهم لهذه الدراسة ، هل التضمين واف بالغرض من الكشف عن أسرار استخدام الحروف فى لغة العرب ، وفى نظم القرآن بوجه خاص ؟

---

(٣٢) الأقتضاب ٢/٢٦٥ .

ونبدأ بالسؤال الأول ، وفى الاجابة عليه أقول : ان تأدية الكلمة المضمنة لمعناها ومعنى ما تضمنته ، هو قول المتأخرين من النحاة وليس فى كلام المتقدمين ما يشهد له ، بل فى كلامهم ما يشهد عليه • يقول البطليوسى : (وأنشد لابن أحمر :

● يسقى فلا يروى الى ابن أحمرا ●

وقال : معناه منى •

قال المفسر : هذا من مواضع (من) ، وجاز استعمال (الى) ها هنا ، لأن الرى من الماء ، ونحوه لا يكون الا عن ظمأ اليه • فلما كان الظمأ هو السبب الداعى الى الرى ، استعمل الحرف الذى يتعدى به أحد الضدين مكان الحرف الذى يتعدى به ضده ، كاستعمالهم (على) التى يتعدى بها السخط ، مكان التى يتعدى بها الرضا فى قوله :

● اذا رضيت علىّ بنوقشير ● (٣٣)

فالرى محمول على الظمأ ، والرضا محمول على السخط ، وتعدى الفعل بما تعدى اليه ضده حملا عليه ، فهل يمكن أن يقال ان الكلمة فى مثل هذا مستعملة فى المعنى وضده ؟ هذا ما لا سبيل اليه ، وانما هو من قبيل المجاز المرسل ، الذى أطلق فيه الرى ، وأريد الظمأ ، أى من اطلاق المسبب وارادة السبب ، ومن المشاكلة فى حمل الرضا على السخط •

أما القول بأن فائدة التضمين فى تأدية الكلمة مؤدى كلمتين واعطاء مجموع المعنيين ، وهو خير من اعطاء معنى فذ ، فليس

---

(٣٣) الاقتضاب ٢/٢٧٧ •

بمستوجب أن يكون اللفظ مستعملا فى كلا معنييه ، لأن اللفظ المستعمل فى غيره مجازا ، يعطى أيضا مجموع المعنيين ، دون أن يكون مستعملا فى معنييه الحقيقى والمجازى ، وهذا نص كلام الامام عبد القاهر فى بيان الغرض من الاستعارة وهو أداؤها عدة معان ، مع أنها مستعملة فى المعنى المنقول اليه وحده (ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد ، الموصوف والصفة والتشبيه ، والمبالغة ، لأنك تفيد بقولك : (رأيته أسدا كأنك رأيت شجاعا شبيها بالأسد ، وأن شبهه به فى الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه ، حتى لا ينقص عن الأسد فيها)(٣٤) .

فالغرض الذى يراد من التضمين وهو اعطاء مجموع المعنيين يضيع اذا ما جعلت الكلمة مجازا بالاستعارة ، أو مجازا مرسلا ، وذلك يخرجنا من الاصطدام بالجمع بين الحقيقة والمجاز ، واللجوء الى القول بتضمين نحوى وآخر بيانى .

والاجابة على السؤال الثانى : هل التضمين مجاز ؟ ومن أى أنواعه ، تقتضى أن نلم بما قيل فى ذلك ، وما أكثر ما قيل ! وقد جمع بحث التضمين فى مجلة المجمع اللغوى الآراء ، وحصرها فى ثمانية ، وأضاف اليها تاسعا ، وهو ما أنقله بتصرف طلبا للاختصار :

الأول : أنه مجاز مرسل ، لأن اللفظ استعمل فى غير معناه لعلاقة وقرينة ، وهو المفهوم من كلام ابن جنى ومن كلام ابن هشام .

الثانى — أن فيه جمعا بين الحقيقة والمجاز ، ولكن بتأويل أن الفعل المذكور فى التركيب دل على معناه الحقيقى ، وعلى المعنى الملحوظ بطريق اللزوم ، وذكر القرينة .

---

(٣٤) أسرار البلاغة ص ٢٠٨ .

الثالث ــ أن الفعل المذكور فى التركيب مستعمل فى حقيقته ، لم يشرب معنى غيره (كما جرى عليه صاحب الكشاف) ولكن مع حذف حال مأخوذة من الفعل الآخر المناسب ، بمعونة القرينة اللفظية .

الرابع ــ أن اللفظ المذكور مستعمل فى معناه الحقيقى ، ولكنه مستتبع معنى آخر يناسبه من غير أن يستعمل هو فيه ، ومن غير أن يستعمل له لفظ آخر ، فيكون الكلام من باب الحقيقة التى قصد منها معنى آخر يناسبها ، ويتبعها فى الارادة .

الخامس ــ أن المعنيين مرادان على طريق الكناية ، فيراد المعنى الأصلى ، توصلا الى المعنى المقصود ، ولا حاجة الى التقدير الا لتصوير المعنى .

السادس ــ أن المعنيين مرادان على طريق عموم المجاز .

السابع ــ أنه مجاز عقلى فى النسبة غير التامة ، أى فى النسبة بين الفعل ومتعلقاته .

الثامن ــ أنه نوع مستقل من أركان الكلام العربى ، وقسم رابع للحقيقة والمجاز .

التاسع ــ طرد الباب على التوسع فى الحرف(٣٥) .

واذا استبعدنا القول التاسع ، لأنه ينقل التجوز الى الحرف ، وحديثنا عن التضمين فى الفعل أو الاسم ، بقى لنا ثمانية أقوال ، انبنى معظمها على الخلاف المزعوم بين النحاة والبيانيين ، وقد عرفنا منشأه وردنا البيانى الى النحوى .

---

(٣٥) من مجلة المجمع الملكى العدد الأول بتصرف ١٨٧ ــ ١٨٩ .

كما انبنى بعضها على القول باستعمال الكلمة فى معنييها الحقيقى والمجازى ، وهو ما قلت انه لا ضرورة اليه • ولا يسلم فى نظرى من هذه الآراء الا أولها ، وهو المستقى من كلام ابن جنى ، لأنه بعيد عن التكلف ، سائر على المعهود فى هذه اللغة من التجوز ، باستيفاء العلاقة والقرينة ، وأداء الغرض من التجوز ، وعليه فاننى أستحسن فى تعريف التضمين ما قاله السيوطى فى معترك الأقران : (ايقاع لفظ موقع غيره، لتضمنه معناه ، وهو نوع من المجاز)(٣٦) وهو صريح فى أن اللفظ مستعمل فى معنى غيره لعلاقة هى المناسبة فى المعنى •

غير أن السيوطى عند الحديث عن أنواع المجاز المفرد ، وتحت عنوان (استعمال حروف الجر فى غير معانيها الحقيقية) عرفه تعريفا آخر ، كان ملتفتا فيه الى ما قاله النحاة الا أنه جعله مجازا ، ورفض أن يكون جمعا بين الحقيقة والمجاز : (ومنها التضمين ، وهو اعطاء الشيء معنى الشيء ، ويكون فى الحروف والأفعال والأسماء ، وسيأتى فى حروف الجر •

وأما الأفعال فانه تضمين فعل معنى فعل آخر ، ويكون فيه معنى الفعلين معا ، وذلك بأن يأتى الفعل متعديا بحرف ليس من عادته التعدى به ، الأول تضمين الفعل ، والثانى تضمين الحرف ، واختلفوا أيهما أولى ، فقال أهل اللغة وقوم من النحاة : التوسع فى الحرف وقال المحققون : التوسع فى الفعل ، لأنه فى الأفعال أكثر) ثم انتهى الى القول : (وانما كان التضمين مجازا ، لأن اللفظ لم يوضع للحقيقة والمجاز معا ، فالجمع بينهما مجاز)(٣٧) •

---

(٣٦) معترك الأقران ١/٢٩٨ •

(٣٧) معترك الأقران ١/٢٦٣ •

ولعلنا نلاحظ أثر الاضطراب فى اختلاف التعريفين ، لأنه لم يستطع التخلص مما تواطأ عليه القوم من متأخرى النحاة فى جعل الكلمة مستعملة فى مجموع المعنيين ، وتسميته التأول فى الحرف تضمينا يؤكد القول بمجازية التضمين ، لأن الحرف اذا وقع موقع غيره ، ولم يعتبر التجوز فى الفعل ، فهو اما معنى من معانية الوضعية، بناء على القول بتعدد معانى الحروف ونيابة بعضها عن بعض ، واما من قبيل التجوز فيه بالاستعارة أو فى مدخوله ، وليس ثمة من يقول باستعماله فى معنييه الحقيقى والمجازى .

وقد عقد العز بن عبد السلام فصلا فى كتاب الاشارة الى الايجاز سماه (مجاز التضمين) قال فيه : (وهو أن تضمن اسما معنى اسم لافادة الاسمية ، فتعديه تعديته فى بعض المواطن ، كقوله : (حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق) ضمن (حقيق) معنى حريص ، ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه ، وتضمين معنى فعل لافادة معنى الفعلين ، فتعدية أيضا تعديته فى بعض المواطن . قال الشاعر : ● قد قتل الله زيادا عنى ● ضمن قتل معنى صرف ، لافادة أنه صرفه بالقتل ، دون ما عداه من الأسباب ، فأفاد معنى القتل والصرف جميعا) (٣٨) .

فنحن واجدون فى المثال الأخير علاقة المجاز المرسل باعتبار القتل أحد الأسباب التى صرفه بها ، الا أنه — شأنه شأن النحاة — يرى أن الكلمة مستعملة فى معنييها الحقيقى والمتضمن . فأى نوع من المجاز هذا الذى يجمع بين مدلولى الحقيقة والمجاز ؟

يجيب (واختلفوا فى جمع اللفظة الواحدة لمدلولى الحقيقة والمجاز ، فمن رأى ذلك عده من المجاز ، لأنه استعمال اللفظ فى غير

---

(٣٨) الاشارة الى الايجاز ٥٤ — ٥٥ .

ما وضع له ، لأنه وضع أولا للحقيقة وحدها ، ثم استعمل ثانيا فيهـا وفى المجـاز) (٣٩) .

وما أغنانا عن ذلك كله لو اتبعنـا مذهب ابن جنى فى جعل الكلمة دالة على ما استعملت فيه وحده ، على أنه مجاز بالاستعارة ان وجدت علاقة المشابهة ، أو مجاز مرسل ، وعلاقاته واضحة لا تكلف فيها .

ثم ان مجمع اللغة العربية حين انتهى فى بحثه الى قياسية التضمين اشترط شروطا ثلاثة لصحة هذا القياس ، وهى تحقق المنـاسبة بين الفعلين ، ووجود قرينـة تدل على ملاحظة الفعل الآخر ، وأن يكون هناك غرض بلاغى يهدف اليه ، وتلك هى شروط كل مجاز (اذ كان روح المجـاز منبعثـا متفشـيا فى أكثر الأقـوال التى قيلت فى تخـريج التضمين) (٤٠) .

يقول الأستاذ عباس حسن : (الذى ألاحظه فى هـذا القرار أن شروط التضمين المذكورة هى الشروط المعروفة فى المجاز ، حتى الشرط الثالث ، فقد نص عليه القدامى لابعاد المجاز عن القبح ، والى المجـاز ترتاح النفس ، وهو رأى كثير من أئمـة القدماء ، فلم العنـاء والكد والجدل العنيف بين المذاهب المتعددة التى تضمنها البحثان المجمعيان ؟

وشىء آخر أهم من اعتبـاره مجـازا ، هو أن تلك المذاهب على تشعبها وعنفها ، لم تستطع أن تثبت فى جلاء ويقين ، أن اللفظ الذى جرى فيه التضمين ليس حقيقة لغوية أصيلة ، وأنه تضمن حقا معنى لفظ آخر ،

---

(٣٩) الاشارة الى الايجاز ٢٠ .

(٤٠) مجلة المجمع الملكى العدد الأول ١٩٥ .

مأدى التضمين الى تعدية الأول أو لزومه من طريق العدوى الناشئة من الاتصال والمناسبة بينهما) (٤١) ٠

وهذا الذى قاله عباس حسن ــ وهو فى نظرى عين الصواب ــ يقودنا الى الاجابة عن السؤال الثالث : هل القول بالتضمين يكفى لاستجلاء أسرار الحروف فى لسان العرب ؟

والجواب عن ذلك هو ما ستكشف عنه الفصول التالية ، ولا مانع أن أضع بين يدى القارىء الآن بعض الشواهد من الذكر الحكيم ، وما قاله فيها المفسرون من تضمين الاسم أو الفعل معنى اسم أو فعل آخر ، لنرى هل استطاع التضمين الكشف عن أسرار النظم فى العدول من تعدية الكلمة بحرفها المعهود الى حرف آخر ، ومن خلال ذلك سيتضح ما اذا كان التضمين ضربا من التأويل لتصحيح التعدية أو اللزوم ، أو اضاءة لاستكشاف مواطن الجمال ، وضروب الاعجاز فى الذكر الحكيم ٠

قال تعالى فى وصف المنافقين اليهود : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ٠٠ البقرة ٧٦ » ٠

شاع فى (خلا) تعديه بالباء ٠ فيقال : خلا به ، اذا انفرد به ، فلم عدى الفعل هنا بالى ؟ يجيب أبو حيان : (و (الى) قيل بمعنى (مع) ، أى واذا خلا بعضهم مع بعض ، والأجود أن يضمن (خلا) معنى فعل يعدى بالى ، أى انضوى الى بعض ، أو استكان ، أو ما أشبهه لأن تضمين الأفعال أولى من تضمين الحروف)(٤٢) ٠

---

(٤١) النحو الوافى ٢/٤٦٣ ٠
(٤٢) البحر المحيط ١/٢٧٣ ٠

أراد أبو حيان الفرار من القول بنيابة الحروف بعضها عن بعض ، الى القول بتضمين (خلا) معنى انضوى أو استكان ،ولا أرى للانضواء والاستكانة هنا من دواعى النظم ما يتطلبه ، سوى ايجاد سبيل للخروج عن المألوف فى تعدى الفعل ، فهم كان المنافقون من اليهود خارج لواء رفاقهم ممن انفردوا بهم حتى ينضووا اليهم ؟ وأى استكانة هذه وهم يقومون بعمل جليل لخدمة أهـداقهم من المكر بالمسلمين والكيد لهم ؟ ان ذلك لا يفهم الا على وجه واحد وهو أن يكونوا صادقين فى قولهم آمنا ثم يكون خلوهم باخوانهم بعد ذلك ردة عن هذا الايمـان ، ممـا يستدعى الاعتذار والاستكانة وهو ما لا يقبله السياق .

لسنا بحـاجة الى أن تكون الى بمعنى مع ، ولا نحن بحاجة الى تضمين الفعل معنى الانضواء والاسـتكانة ، ونحن مع ذلك واجـدون للنظم الكريم سرا فى ايثار حرف الانتهاء ، وهو ما يتضح من المقابلة بين قوله تعالى : « واذا لقوا الذين آمنوا » وبين قوله « واذا خلا بعضهم الى بعض » حيث عبر فى جانب المؤمنين باللقـاء ، ليدل على أن لقاءهم بهم كان عرضا ومصادفة ، وأن ادعاءهم الايمان كان أشبه بجواز مرور وصـولا الى غايتهم فى الانفراد برفاقهم ، وحضور اجتماعات منظمة ، أعدت لتدبير شئونهم ومراجعة مواقفهم ، وتجميع صفوفهم لرسـم سياساتهم بصورة سرية بعيدا عن أعين المسلمين ، يدلك على ذلك أنهم لم يتلاوموا على ادعائهم الايمان ، وكأن ذلك أمر متفق عليـه بينهم لتضليل المؤمنين ، والتعرف على أخبارهم بواسطة هذا الادعاء ، وانما كان التلاوم فيما تحـدثوا الى المؤمنين عن معـارفهم الخاصـة ، وما حسبوه سرا من أسرار عقيدتهم ، لا ينبغى اطلاع المؤمنين عليه ، فحرف الانتهاء يشير الى أنهم كانوا ماضين الى غايتهم فى لقاء يضمهم مع أبناء ملتهم للتشاور والكيد للمسلمين ، وما كان لقاؤهم بالمؤمنين الا عرضـا وتمويها ، لاغاية وهدفا .

وهذا قوله تعالى فى نهاية قصة قوم لوط : « وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين • الأعراف ٨٤ »

يقول أبو حيان : (ضمن أمطرنا معنى أرسلنا فلذلك عداه بعلى)(٤٣) فانظر كيف تفقد الاستعارة فى الفعل أمطرنا بهجتها ، وما تصوره من كثافة الحجارة وتتابعها ، حين يضمن معنى أرسل ، وكيف يفقد النظم تلاؤم الفعل مع « مطرا » وما يثيره فى نفس المتلقى بتنكيره من الدلالة على تعظيم ما أمطروا به ، وكونه عذابا فريدا فى نوعه ، وهو السر الذى عدل فيه النظم هنا الى المجاز (مطرا) بدلا من الحقيقة التى جاءت فى قوله تعالى : « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل •• الحجر ٧٤ » •

أما العدول عن تعدية الفعل بنفسه بأن يقال : أمطرناهم مطرنا،الى تعديته بحرف الاستعلاء فذلك لتكتمل الصورة التى رسمها القرآن لهول ما أصابهم من العذاب ، وما صبه الله عليهم من السماء ، بما يشيعه حرف الاستعلاء من وطأة العقاب وشدته ، وليصرف النظر ابتداء عن المطر الذى ينزله الله رحمة بعباده ، الى المطر الذى يصب معه رسل غضبه وانتقامه ، فلو قال : وأمطرناهم ، لما كان فيه دليل على أنه العذاب ، ولاحتاج الى قرائن أخرى تدل عليه •

بخلاف « على » التى تشير الى أنه المطر المهلك المدمر ، كما عدل من : دمرناهم الى دمر عليهم فى قوله : « دمر الله عليهم •• محمد ١٠ »•

قارن هذا القول بالتضمين مع ما قاله الزمخشرى فى سر ايثار اللام من قوله تعالى : « أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم •• يونس ٢ » حين لم يكن هناك مجال للقول بالتضمين ، وكيف استشف

---

(٤٣) البحر المحيط ٤/٣٣٥ •

منها معنى أدبيا خلابا على حد تعبير الدكتور محمد أبو موسى فرقا بين قوله : « أكان للناس » وقولك : أكان عند الناس(٤٤) ، يقول الزمخشرى : (فان قلت : فما معنى اللام فى قوله : ـ أكان للناس عجبا ؟ وما الفرق بينه وبين قولك : كان عند الناس عجبا؟ قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وانكارهم ، وليس فى (عند الناس) ، هذا المعنى) (٤٥) .

ولعلى بذلك أقترب مما قاله أحد الباحثين المحدثين (ويبدو لى أن مسألة التضمين لا أساس لها ، لأنه لا دليل عليها ، ولا حجة لأصحابها ، وأحسب أن من اندرج تحتها من شواهد يؤول الى جهة من جهتين : اما أن تكون هذه الشواهد مقحمة فى باب التضمين اقحاما ، واما أن تندرج تحت مبحث دلالات الألفاظ) (٤٦) .

وخلاصة القول أن التضمين يصرف الاهتمام عن تدبر أسرار الحروف ، وهو عاجز عن الوفاء بأغراض النظم ودواعيه ، وليس فيه أكثر من محاولة تصحيح التعدى بحرف ليس من شأن الفعل أو الاسم التعدى به ، وذلك ما يجب أن لا نقف عنده ونحن نتوخى أسرار الاعجاز فى النظم القرآنى ، كما أن القول باستعارة الحروف واستفراغ الجهد

---

(٤٤) انظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ٢٤٤ .

(٤٥) الكشاف ٢/٢٢٤ .

(٤٦) تناوب حروف الجر فى لغة القرآن ٥٨ .

فى تطبيق قواعد الصناعة ، وهل هى استعارة تبعيــة أو مكنية ؟ وهــل الاســتعارة فى الحرف أو فى مدخوله هو كذلك مما يحول بيننــا وبين البحث عن أغراض النظم وأسرار وقوع الحرف موقع غيره .

وما أحرانا أن نعتبره من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، فاذا خولف الظاهر فى التعدى بحرف من شأن الكلمة أن لا تتعدى به ، فهــذا خروج عن مقتضى ظاهر الكلام ، وعلينا أن نبحث عن دواعيــه وأغراضه ، وهــذا فى حسبانى أجــدى على الدراسات البيانية ، وأنفع فى الوقوف على أسرار الاعجاز فى القرآن الحكيم .

الفصل الثاني

من أسرار حرف الاستعلاء

على وحرف الوعاء

على وحرف الوعاء

ان أكثر الحروف التباسا بحرف الاستعلاء ، وأشدها قربا منه هو حرف الوعاء ، ولكثرة ما ورد من المواطن التى دق فيهـا الفـرق بين المعنيين ، صرح كثير من اللغويين والنحاة بتـداخل الحـرفين • قال البطليوسى : ((فى) و (على) يتداخـل معنياهما فى بعض المواضع ، فلذلك يقع بعضهما موقع بعض ، لأن معنى (على) الاشراف والارتفاع، ومعنى (فى) الوعاء والاشتمال ، وهى خاصة بالأمكنة ، ومكان الشىء قد يكون عاليا مرتفعا ، وقد يكون متسفلا منخفضا) (١) •

وكثيرا ما لجأ المفسرون الى مثل هذا الرأى حينما كان يستغلق عليهم سر ايثار على فى مـوضع ، واختصاص فى بموضع آخر فيمـا اشـتبه نظمه من القرآن الكريم ، ومع أن الزمخشرى كان أكثر المفسرين استلهاما لمعانى الحروف ، وكشفا عن أسرارها ، فانه يلجأ الى مثل هذا القول حين لا يظهر له السر ، ولا ينكشف أمامه الستر ، وحسبنا دليـلا على خطورة مانعالجه أن تند عن جارالله بعض الشوارد ، وتفوته بعض الملح والطرائف مما تنشره الحروف على ما حولها ، وتدسه فى زوايا النصوص •

ففى قوله تعالى « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعـلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون•• فصلت ٣ ــ ٥ » •

---

(١) الاقتضاب ٢/٢٨٢ •

يقول الزمخشرى : (فان قلت : هلا قيل : على قلوبنا أكنة ، كما قيل — وفى آذاننا وقر — ليكون الكلام على نمط واحد ؟ قلت : هو على نمط واحد ، لأنه لا فرق بين قولك : قلوبنا فى أكنة ، وعلى قلوبنا أكنة والدليل عليه قوله تعالى : — انا جعلنا على قلوبهم أكنة — ولو قيل : انا جعلنا قلوبهم فى أكنة لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة الا فى المعانى) (٢) •

والزمخشرى الذى يسوى فى الدلالة بين على وفى هو نفسه الذى حمل على من يقول بتساوى الحرفين من حروف المعانى وصحة أحدهما فى موضع الآخر ، وقد نقلنا عنه فيما مر قوله (فان قلت : يجرى لأجل مسمى ، ويجرى الى أجل مسمى أهو من متعاقب الحرفين؟ قلت : كلا، ولا يسلك هذه الطريقة الا بليد الطبع ، ضيق العطن)(٣) •

فلم قبل هنا أن يكون الحرفان بمعنى واحد ؟ ولماذا رفض أن يكون ايثار (فى) من قبيل المشاكلة اللفظية ، معللا ذلك بأن المطابيع لا يراعون المشاكلة الا فى المعانى ؟ وهو الذى سبق له — قبل صفحتين اثنتين وفى آخر سورة غافر — أن جعل هذه المشاكلة اللفظية سر اختيار حرف الاستعلاء مع صحة حرف الوعاء فى مكانه ، وذلك فى قوله تعالى : « وعليها وعلى الفلك تحملون •• غافر ٨٠ » فقال : (فان قلت : هلا قيل : وفى الفلك ، كما قال : « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » ؟ قلت : معنى الايعاء ، ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم ، لأن الفلك وعاء لمن يكون فيها ، حمولة له يستعليها ، فلما صح المعنيان صحت العبارتان ، وأيضا فليطابق قوله (وعليها) ويزاوجه) (٤) •

---

(٢) الكشاف ٣/٤٤٢ _ ٤٤٣ •

(٣) الكشاف ٣/٢٣٧ •

(٤) الكشاف ٣/٤٣٩ •

وبتأمل ما جاء فى هذه السورة مؤثرا حرف الوعاء ، ومقابلته بثلاثة مواضع أخرى أوثر فيها حرف الاستعلاء ، نستطيع أن نجد من أغراض النظم ما يتطلب كلا فى موضعه ٠ فالمواضع الثلاثة التى خصت بحرف الاستعلاء انما هى اخبار من الله تعالى بعدم قبولهم للهداية ، لأنه ختم على قلوبهم وأسماعهم فهم لا يسمعون ولا يعقلون ، وقد جاءت كلها مخاطبة الرسول عليه السلام ، تسلية له ، وتخفيفا من آلامه وحزنه على عدم استجابة قومه له ، ورفضهم قبول دعوته ، وكأنه يقول له : لست مسئولا عن اعراضهم ، وهل بمقدورك أن تسمع الأصم ، وتصل بدعوتك الى قلوب طبع الله عليها ! وهذا سياق المواضع الثلاثة : « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ٠٠ الأنعام ٢٥ » « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ٠٠ الاسراء ٤٥ ــ ٤٧ » ٠

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا ٠٠ الكهف ٥٧ » ٠

واخبار الله تعالى بعدم نفاذ الحق الى أسماع الكافرين واشراق نور الهداية على قلوبهم ، يكفى فيه جعل الأكنة مستعلية على القلوب ، دالة على أنها أغطية تحول دون وصول الهداية اليها ٠

أما آية فصلت فقد جاءت على ألسنة المشركين مكتسبة ثوبا من المبالغة فى رفض الاستماع الى الوحى ، معلنين أن حرفا واحدا لن ينفذ الى أسماعهم ، وأن قلوبهم قد أحاطت بها أغطية كثيفة وشملتها اشتمال الظرف للمظروف ، بحيث لن تجد دعوة الرسول ثغرة تنفذ منها الى هذه القلوب ، وامعانا فى تكثيف الموانع والحواجز ، أعلنوا أنهم أقاموا بينه

وبينهم حجابا يمنع وصول صوته اليهم، لهذا كانت (فى) الدالة على احتواء الأكنة للقلوب واحاطتها بها هى الأنسب لهذا المقام •

وبنحو من هذا رد أبو حيان على الزمخشرى (ونقول : ان (فى) أبلغ فى هذا الموضع من على ، لأنهم قصدوا افراط عدم القبول ، لحصول قلوبهم فى أكنة ، احتوت عليها احتواء الظرف على المظروف ، فلا يمكن أن يصل اليها شىء ، كما تقول : المال فى الكيس ، بخلاف قولك : المال على الكيس ، فانه لا يدل على الحصر وعدم الحصول دلالة الوعاء ، وأما فى قوله « انا جعلنا » فهو من اخبار الله تعالى ، لا يحتاج الى مبالغة بخلاف قولهم) (٥) •

ونعود الى حديث الفُلْك وكونها صالحة للظرفية والاستعلاء كما قال الزمخشرى ، باعتبارها وعاء لمن يكون فيها ، وحاملة لمن يستعليها ، وهذا صحيح ، لكنه لا يمنع أن يكون لاختلاف النظم فى التعدية اليهـا بحرف الوعاء تارة ، وبحرف الاستعلاء أخرى أسرار توجب وقوع كل من موقعه •

وقد أحصيت أحد عشر موضعا فى الكتاب العزيز جاء فيها لفظ الفلك أو ما فى معناه كالسفينة والجارية ، أو ضميره مجرورا بفى ، وكلها مواطن تستدعى حرف الظرفية وتلح عليه ، وهى جميعا يمتن الله فيهـا على عباده بتنجيتهم من خطر طوفان وأمواج عاتية ، بدل الله تعـالى فيهـا أمنهم خوفا ، وأحاطهم بعنايته ورحمته ، فـاذ هم مستقرون فى الفلك ، آمنون فيها ، وكأنها قد تحولت الى مساكن على أرض يابسة ، تحميهم من أمواه تتقاذفها ، وأمواج تحيط بها ، وسيول تنهمر من فوقهم ، ومن ثم كان الأدل على هذه المنة أن يعبر بما يدل على تمكنهم واستقرارهم فيما

---

(٥) البحر المحيط ٧/٤٨٤ •

سخر الله تعالى لهم • وهذه نماذجها : « فكذبوه فنجيناه والذين معه فى الفلك•• الأعراف٦٤» «فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك••يونس٧٢» «فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون••الشعراء١١٩» «وآيةلهم أناحملنا ذريتهم فى الفلك المشحون •• يس ٤١ » « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين •• هود ٤٠ » « انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية••الحاقة١١» « وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها •• هود ٤١ » •

وفى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام « حتى اذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها •• الكهف ٧١ » جاءت (فى) لتوحى بأن الخرقكان بعد استقرارهما فى السفينة وابحارها ، بدليل أن موسى أنكر هذا العمل من الخضر لأنه يتسبب فى اغراق أهلها ، ولم يكن انكاره الخرق لاتلافها ، ومعنى هذا أن السفينة كانت بحيث يهدد الغرق من على ظهرها ، ولو قال : ركبا السفينة أو على السفينة ما دل على ذلك •

وهى فى قوله تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان •• يونس ٢٢ » تومىء الى أن القوم كانوا مستقرين مطمئنين تجرى بهم سفنهم فى مياه هادئة ، وتدفعها ريح مواتية طيبة ، وتعلوهم فرحة غامرة فاذا قضاء الله يفاجئهم ، ويذهب بأمنهم واستقرارهم ، فتتحول الرياح الطيبة الى عواصف هو جاء ، والأمواه الهادئة أمواجا هادرة ، وكأن الله تعالى أخذهم بياتا وهم نائمون •

أما المواطن التى أوثر فيها حرف الاستعلاء ، فقد أحصيت منها ستة ، موضعان اتحدت فيهما صورة النظم ، وجاء الحديث عن الحمل فى الفلك تابعا للحديث عن الحمل على ظهور الأنعام ، وهما قوله تعالى:«وان لكم

فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون .. المؤمنون ٢١ — ٢٢ » .

وقوله : « الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا فيها ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون .. غافر ٧٩ — ٨٠ » .

والاستعلاء فيهما هو الأنسب معنى، الأوفق لفظا . ذلك أن الغرض فى الموضعين هو التذكير بنعمة الله تعالى فى خلق الأنعام ، وما أودعه فيها من منافع للانسان ، شربا من بطونها ، وأكلا من لحومها ، وحملا على ظهورها ، والأصل فى الحمل أن يتعدى بعلى ، لأن المحمول يستعلى ظهر الحامل ، الا اذا أريد الدلالة على أن الحامل صار وعاء للمحمول ، لغرض يستدعيه النظم كما سبق ، ثم جاء ذكر السفن تتميما وتبعا، والغرض من الحمل فيهما هو بيان نعمة الله تعالى فى اعتلاء ظهورها ، والانتقال بها الى حيث يريدون كما قال « وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس .. النحل ٧ » فليس ثمة غرض فى أن الأنعام والفلك صارت مستقرا لراكبيها وأمانا لهم ، والمقام فى بيان فوائد الأنعام والسفن من حمل الناس وأمتعتهم .

هذا هو التناسب فى المعنى . أما التناسب اللفظى والمزاوجة ففى التلاؤم بين الحمل على ظهور الأنعام والحمل على ظهور الفلك ، حيث لا يصح أن يقال فى شأن الأنعام وفيها وفى الفلك تحملون ، لأن الانعام لا تصلح وعاء للانسان . فلو أن (على) و (فى) يتساويان فى الدخول على الفلك لكانت مراعاة الحسن اللفظى وحدها داعيا لايثار حرف الاستعلاء ، فما بالك وهو أدل على الغرض وألصق بالمعنى !

والموضعان الثالث والرابع هما قوله تعالى : « فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ..

المؤمنون ٢٨ » وقوله : « والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعـــام ما تركبون لتستـــووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه .. الزخرف ١٢ ــ ١٣ » .

والاستواء هنا يعنى الاستيلاء ، والأخذ بزمام المستولى عليه ، وكأن الفلك والانعام قد دانت بأمر الله لهم ، وذللت ظهورها لركوبهم ، فصارت طوع بنانهم ، يدلك على ذلك قوله بعد ذلك « وتقولوا سبحـــان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » فهى نعمة تذليل وتسخير ، فكانت « على » بدلالتها على الاستيلاء هى الأنسب لهذين الموضعين ، ولذا قال الراغب فى فعل الاستواء:(ومتى عدى بعلى اقتضى معنى الاستيلاء)(٦).

والموضع الخامس قوله « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا .. القمر ١١ ــ ١٤ » والغرض فيه هو الدلالة على كمال القدرة الالهية فى انجاء نوح عليه السلام ، والاشارة الى أن السفينةوان كانت ســببا ظاهرا للنجـــاة ، فان الفاعل الحقيقى هو الله تعالى ، والا فالسفينة ماذا تفعل وسط طوفان هادر يطوقها من الأرض والسماء،ولئن كانت قادرة على حمله فوق ماء يتفجر من الأرض ، فأنى لها أن تحميهمن سماء تنهمر مياهها دون انقطاع أو فتور ؟ ألا ترى كيف قلل الله منشأن السفينة حتى لا يعلق أحد أسباب النجاة عليها ، فكنى عنها بما يهون من قدرها ، فلم يقل : حملناه فى جارية ، أو فى سفينة ، وانما قال : « على ذات ألواح ودسر » فيها الى أنها هى ذاتها محمولة بيد الله ، فمـــا هى الا ألواح ومسامير ، ومن هذه المكونات ما لو أفرد على صغره لما استقر على ظهر الماء ، وآية ذلك أنك تلقى بالمسمار الواحد فى الماء فلا يســـتقر على سطحه ، فاذا كان الحامل ضعيفا واهيا ، والماء عظيما مدمرا ، فالنجاة

---

(٦) المفردات ٢٥١ .

حينئذ هي فضل الله ورحمته • أنظر كيف عقب الله ذلك بقوله : « تجرى بأعيننا » ادلالا بكمال القدرة وبالغ الحفظ والكلاءة •

أما الموضع السادس وهو قوله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر •• الاسراء ٧٠ » فقد كشف الدكتور عبدالفتاح لاشين عن سر حرف الظرفية فيه بما لا مزيد عليه • قال : (فقد أعرض التعبير القرآنى عن ذكر حرف الاستعلاء وهو (على) وعدل عنه الى حرف الوعاء وهو (فى) مع أن الظاهر هو العلو على الأرض والفلك •

والسبب فى ذلك هو الاعلام بأن حرف الوعاء أقعد وأمكن هاهنا من حرف الاستعلاء ، لأن (على) تشعر بالاستعلاء لا غير ، من غير تمكن واستقرار و (فى) تشعر هاهنا بالاستقرار والتمكن ، ومن حق ما يكون مستقرا فيه ، متمكنا ، أن يكون مستعليا له •

فلما كانت (فى) تؤذن بالمعنيين آثرها وعدل اليها ، وأعرض عن (على) دلالة على المبالغة التى ذكرناها) (٧) •

ومن روائع النظم الكريم فى وضع كل من حرفى الظرفية والاستعلاء الموضع الذى لا ينهض به سواه ، ما كشف عنه جار الله الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين •• سبأ ٢٤ » قال : (فان قلت : كيف خولف بين حرفى الجر الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد ، يركضه كيف شاء ، والضلال كأنه منغمس فى ظلام مرتبك فيه ، لا يدرى أين يتوجه) (٨) •

---

(٧) من أسرار التعبير فى القرآن ـ حروف القرآن ٩٩ ـ ١٠٠ •
(٨) الكشاف ٣/٢٨٩ •

(على) أذن تشير الى علو مقام المهتدين ، واعتبالهم على الهدى بمحض ارادتهم واختيارهم ، وتمكنهم من ادراك ما لا يراه غيرهم ، لانفساح مجال الرؤية امام أبصارهم ، فلا حجب ولا حواجز ، وهم طوال الأعناق مرتفعو الهام ، سريعو الاستجابة والانتفاع بما يتراءى لهم ، أما الضالون فهم مسلوبو الارادة ، مسجونون فى قفص أهوائهم ، يحيط بهم الضلال ، وتهوى بهم شهواتهم وتسفل بهم غاياتهم ، الى قاع مظلم ، يفتقدون فيه حرية الفكر ، ووضوح الرؤية ،يتخبطون فى ظلام الكفر ، لا يدرون لهم وجهة ، ولا يعرفون لهم هدفا . كل ذلك انعكاس لظلال حرفين غوير بينهما فى نظم القرآن الكريم .

وفى قوله تعـالى : « فأوحى الى عبـده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى .. النجم ١٠ ــ ١٢ » يقول الألوسى : وعدى الفعل بعلى ، وكان حقه أن يعدى بفى ، لتضمينه معنى المغالبة ، فان المجادل والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم) (٩) .

وهذا أحد المواطن التى يقدم فيها تضمين الفعل معنى هو انعكاس لدلالة الحرف الذى تعدى به ، فالمراء ما هو الا محاجة ومجادلة ، وقد سرى اليه هنا معنى المغالبة من طبيعة حرف الاستعلاء ، وما يوحى به من محاولة الخصم رفع صوته على من يجادله ، والتغلب عليه بكل مـا يملكه من وسائل الاقناع حينا ، والمغالطة أحيانـا ، بدليل أنه لو تعدى الفعل بحرف الوعاء ، فقيل : أفتمارونه فيما يرى ، لما كان فيه شىء من معنى المغالبة ، وبدلا من أن يجعل هذا غرضا تتوخاه النظم من العدول عن تعدية الفعل بحرف الوعاء الى حرف الاستعلاء قيل أن الفعل مضمن

(٩) روح المعانى ٢٧/٥٠ .

معنى المغالبة ، مع أن المراء بحكم أصله المأخوذ منه يدل على الجدل المصحوب بالمداهنة والمصانعة ، لا على العنف والمغالبة ، لأنه مأخوذ من مرى الناقة ، وهو مسح ضرعها لاستدرار لبنها ، وقد جاء فى لسان العرب (ابن الأنبارى : فى قولهم مارى فلان فلانا ، معناه قد استخرج ما عنده من الكلام والحجة ، مأخوذ من قولهم مريت الناقة : اذا مسحت ضرعها لتدر) (١٠) •

فالمماراة فى ذاتها ليست مصحوبة بالمغالبة ، وانما سرى اليها هذا المعنى بحكم العدوى الناشئة من اتصاله بحرف الاستعلاء ، بدليل افتقاده فى قوله تعالى : « فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا •• الكهف ٢٢» أى (فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف الا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه ، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله اليك فحسب ولا تزيد ، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف فى الرد عليهم) (١١) • ولما كان المشركون قد استقبلوا ماقصه الرسول عليهم من حادث الاسراء بالتسفيه والتكذيب ووصفه بأوصاف لا تليق بأدب المجادلة مستعلين عليه بكثرتهم ، محاولين اسكاته وتعجيزه ، عدى الفعل بعلى ، اشعارا بأنها مماراة سفيه جاهل يبغى التغلب على خصمه بالقوة والقهر ، لا بالحجة والاقناع • وحسبك تصيرا لحمقهم أن يماروا على ما رآه ولم يروه ، والمعروف أن من شاهد حجة على من لم يشاهد ، وفى مجىء الفعل بصيغة المضارع (يرى) زيادة تجهيل وتسفيه لأحلامهم ، حيث يجادلونه فيما يراه واقعا أمام عينيه وهم عمى عنه ، وكأنه يقول لهم : متى كان الأعمى حجة على المبصر فيما يشاهده ؟

---

(١٠) لسان العرب ٤١٨٩/٧ •

(١١) الكشاف ٤٧٩/٢ •

وقريب من ذلك وقوع حرف الاستعلاء فى قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ... البقرة ١٠٢ » وهو أيضا مما قيل فيه بتضمين الفعل المعدى به . كما قيل انه بمعنى حرف الوعاء ، لأن (تلا يتعدى بعلى ، اذا كان متعلقها يتلى عليه ، كقوله : يتلى على زيد القرآن ، وليس الملك هنا بهذا المعنى ، لأنه ليس شخصا يتلى عليه ، فلذلك زعم بعض النحويين أن (على) تكون بمعنى (فى) أى تتلو فى ملك سليمان وقال أصحابنا لا تكون على معنى فى ، بل هذا من التضمين فى الفعل ، ضمن تتقول فعدى بعلى ، لأن تعول تعدى بها) (١٢) .

وقال الفراء : (تصلح (فى) و (على) فى مثل هـذا الموضـع ، تقول : أتيته فى عهد سليمان ، وعلى عهده سواء) (١٣) .

ولا أحسب أن بنا حاجة الى القول بتضمين الفعل معنى تقول ، ولا الى القول بأن على بمعنى الظرفية ، لأنه حينئـذ يكون الحـرف الموضوع لهذا المعنى أساسا أولى بموضعه ، ما لم يكن فى العدول اليه ما يدل على معنى زائد ، وهو الدلالة على ما ألحقه الشياطين من ضرر بسمعة سليمان ، والافتراء على ملكه ، وتشويه حقائق التاريخ ، ومـا ألصقوه بهذا النبى من زيف وأباطيل ، فى محاولة لطمس معالم الاعجاز الالهى بتسخير الجن والانس لسليمان ، وخلط خوارق القدرة الالهية بأباطيل السحر ، وفتن المشعوذين ، و (على) تدل بطبيعة الاستعلاء فيها على الضرر ، وتحميل مجرورها أثقالا حسية أو معنوية،كما فى قوله تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

---

(١٢) البحر المحيط ٣٢٦/١ .

(١٣) معانى القرآن ٦٣/١ .

فالاستعلاء هنا جار على سبيل التجوز ، باعتبار أن ما نسب الى سليمان وعهده ، بمثابة تحميله أوزارا تسىء الى ملكه ، وتضر به وتشوه معالمه ، وفيه اشارة خفية الى أن تزييف التاريخ ، وتشويه معالم الأمم ، خاصة ما يتعلق منها بوحى السـماء ، انما هو من فعل الشياطين وعبدة الطاغوت .

ومن لطيف ما جاء فى القرآن مغايرا فيه بين حرف الاستعلاء وحرف الوعاء قوله تعالى : « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فمـا هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرءوف رحيم .. النحل ٤٥ — ٤٧ » .

جىء بفى مع التقلب ، وبعلى مع التخوف . فلماذا لم يقل : فى تقلبهم وفى تخوفهم ، أو على تقلبهم وعلى تخوفهم ؟ وما السر وراء هذه المغايرة بين الحرفين ؟ لقد بسط الألوسى القول فى ذلك واستقصى ماقيل فيه وهو ما أنقله كاملا : (وجىء بفى مع التقلب ، وبعلى مع التخـوف قيل : لأن فى التقلب حركتين ، فكان الشخص المتقلب بينهما ، ولا كذلك التخوف ، وقيل : لما كان التقلب شاغلا الانسان بسائر جوارحه ، حتى كأنه محيط به وهو مظروف ، جىء بفى معه ، والتخوف أى المخافة انما يقوم بعضو من أعضائه فقط ، وهو القلب المحيط به بدن الانسان ، فلذا جىء بعلى معه . وقيل : ان (على) بمعنى مع ، كما فى قوله تعالى : « وآتى المال على حبه » أى يأخذهم مصاحبين لذلك ، ولما كان التخوف نفسه نوعا من العذاب ، لما فيه من تألم القلب ومشغولية الذهن ، وكان الأخذ مشيرا الى نوع آخر فى العذاب أيضا جىء بعلى التى بمعنى مع ، ليكون المعنى : يعذبهم مع عذابهم ، ولم يعتبر ذلك مع التقلب مرادا به الاقبال والادبار فى الأسفار والمتاجر ، مع أنه جاء (السفر قطعة من

العذاب) لأنهم لا يعدون ذلك عذابا ، وفى القلب من هذا شىء فتدبر وتأمل ، فأسرار كتاب الله لا تحصى) (١٤) •

هذه لا شك محاولات طيبة مثمرة لاستجلاء أسرار نظم الحروف فى الكتاب العزيز ، ولعلى أحجل حول الرأى الأول حين أقول : ان ايثار حرف الظرفية مع التقلب قصد به الادلال على كمال القدرة الالهية ، فى الوصول بالانتقام الى من يريد مهما بدا للمأخوذ أنه فى كمال القدرة والقوة ، ذلك أن التقلب يعنى حركة الحياة التى أقبل عليها مقترفو السيئات ، مما يدل على أنهم فى كامل صحتهم وقوتهم ، وكمال سلطانهم وجبروتهم ، وهم فى هذه الحال لا يستطيعون أن يفوتوا الله ويعجزوه هربا ، لأنه معلوم أن الذى له قدرة على الحركة والتنقل أصعب مراسا على المتعقب له من العاجز المنتظر نزول الشر به ، ولذلك جاء تذييلا له قوله « وما هم بمعجزين » • وحرف الظرفية أنسب لهذا الموضع بما يشير اليه من مظاهر القوة والمتعة التى تحيط بهم وبحركتهم ، وكأنها تصنع حولهم سياجا يحميهم من وصول المتعقب لهم ، ويمنع نزول العقاب بهم • فمهما أحاطت بهم هذه المظاهر فلن تمنع يد الله الباطشة من أن تمتد اليهم لتأخذهم أخذ عزيز مقتدر •

أما على فى قوله « أو يأخذهم على تخوف » فان الاستعلاء فيها يدل على أن الله زادهم عذابا فوق عذاب الخوف وآلامه ، وهو بلاء كان قد وقع بهم من قبل وأصابهم بأمراض الذعر والقلق وافتقاد الأمن والطمأنينة ، ثم جاء عقابه وأخذهم بما اقترفوه بلاء فوق البلاء ، وعذابا على عذاب ، وهذا المعنى أشار اليه البطليوسى حين رد على ابن قتيبة قوله بأن على بمعنى مع فى بيت الشماخ :

وبردان من خال وسبعون درهما

على ذاك مقروظ من القد ما عز

---

(١٤) روح المعانى ١٥٢/١٤ وما بعدها •

قال البطليوسي : (والقول عندي في هذا البيت أن (على) فيه على وجهها ، وانما أراد من المبتاع أن يزيده على ما اشترط من الثمن جلدا مقروظا ، كما تقول : أبيعك هذه السلعة بكذا وكذا درهما ، وتزيد في على ذلك ثوبا) (١٥) •

★ ★ ★

على وكلمة المصاحبة

(على) حرف كثير التصرف ، واسع الحركة ، يتيح للناظم والناثر ، بحقيقته ومجازه ، أن يعبر عن مقاصده المختلفة ، ويكشف عن مراميه وأهدافه تلميحا أو تصريحا ، وقد يدق في بعض مواضعه حتى يظن أنه خرج عن أصله وفارق معناه • (واعلم أن أصل (على) العلو على الشيء واتيانه من فوقه ، كقولك : أشرفت على الجبل ، ثم يعرض فيها اشكال في بعض مواضعها التي تتصرف فيها ، فيظن الضعيف في هذه الصناعة أنها قد فارقت معناها • فمن ذلك قول القائل : زرته على مرضى ، وأعطيته على أن شتمني ، وانما جاز استعمال (على) هاهنا ، لأن المرض من شأنه أن يمنع الزيارة ، وكذلك الشتم يمنع المشتوم من أن يعطي شاتمه شيئا ، والمنع قهر للممنوع واستيلاء عليه ، فهي اذن لم تخرج عن أصلها بأكثر من أن الشيء المعقول شـبه بالشيء المحسـوس ، فخفي ذلك على من لا دربة له في المجازات والاستعارات)(١٦) •

بهذا النص يفسر لنا البطليموسي كثيرا من المواضع التي قيل فيها ان (على) خلعت معنى الاستعلاء ، وارتدت ثوب المصاحبة مفارقة أصلها وهي ما تردد كثيرا في كتب النحاة وعلى ألسنة المفسرين •

---

(١٥) الاقتضاب ٢/٢٩٠ ، ٢٩١ •

(١٦) الاقتضاب ٢/٢٨٢ ـ ٢٨٣ •

من ذلك قوله تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحق ان ربى لسميع الدعاء ... ابراهيم ٣٩ » .

قال الزمخشرى : ((على) فى قوله : (على الكبر) بمعنى مع ، كقوله :

انى على ما ترين من كبرى أعلم من حيث تؤكل الكتف) (١٧)

وعليه فان (على) تكون قد خرجت عن معناها الى معنى المصاحبة ، وهو رأى الكوفيين الذين يرون أن للحرف عدة معان وضعية ، وأن حروف الخفض ينوب بعضها عن بعض فى أداء معانيها المشهورة ، ولا يقول به البصريون الا على سبيل الشذوذ ، لذلك عارضه أبو حيان ذاهبا الى أنها على أصلها من الاستعلاء ، ولكنه على سبيل المجاز . (و (على الكبر) فى موضع الحال ، كأنه قال وأنا كبير ، و (على) على بابها من الاستعلاء لكنه مجاز ، اذ الكبر معنى لا جرم يتكون ، وأنه لما أسن وكبر صار مستعليا على الكبر) (١٨) .

وأيد الألوسى ما ذهب اليه أبو حيان ، غير أنه نقل عن بعضهم اعتراضا بأن الكبر بهذا المعنى هو الذى يستعلى على صاحبه : (ويصح جعل (على) بمعناها الأصلى ، والاستعلاء مجازى كما فى البحر ، ومعنى استعلائه على الكبر أنه وصل غايته ، فكأنه تجاوزه وعلا ظهره ، كما يقال : على رأس السنة ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى . وقال بعضهم : لو كانت للاستعلاء لكان الأنسب جعل الكبر مستعليا عليه ، كما فى قولهم :

---

(١٧) الكشاف ٢/٣٨١ .

(١٨) البحر المحيط ٥/٤٣٤ .

علىّ دين ، وقوله: «ولهم علىّ ذنب» بل الكبر أولى بالاستعلاء منهما ، حيث يظهر أثره فى الرأس) (١٩) •

وأحسب أن كل هذه التأويلات لم تستطع ابراز الغرض من ايقاع حرف الاستعلاء فيما يظهر أنه موقع مع ، فاذا كان الغرض هو الدلالة على المصاحبة ، فلم عدل عن الكلمة الموضوعة أصالةً لهذا المعنى ؟ واذا كانت (على) للاستعلاء المجازى اشارة الى أن الكبر تمكن منه وعلا ظهره ، فلم عكس النظم ليكون هو مستعليا على الكبر ؟

ان ما أقوله ــ استلهاما لما نقلته عن البطليوسى ــ هو أن الكبر من شأنه أن يمنع بمقتضى العادة من الانجاب ، وهو سبب فى الظاهر قاهر متغلب ، الا أن الله تعالى شاء أن يخرق ما جرت به العادة ، ويقهر ما خلق من أسباب ، ادلالا على عظيم قدرته واطلاق يده فيما خلق ، وتكريما لمن خرقت من أجله النواميس ، وحطمت بسببه ظواهر العادات ، مما جعل ابراهيم يلهج لسانه ثناء على الله وشكرا له •

فالاستعلاء المجازى هو استعلاء قدرة الخالق على الكبر الذى هو مانع قاهر فى مجرى العادة من حصول الولد ، فلو قيل : مع الكبر ، لما أوحى بمعنى الاستيلاء على الأسباب وقهرها كما يوحى به حرف الاستعلاء •

وفى قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب •• البقرة ١٧٧ » •

---

(١٩) روح المعانى ٢٤١/١٣ ــ ٢٤٢ •

ذكر الزركشى أن (على) فى قولـــه « وآتى المـــال على حبه » للمصاحبة (٢٠) •

وجرى على ذلك كثير من المفسرين دون أن يذكروا سبب العدول الى حرف الاستعلاء •

وأقول ان (على) لم تفارق دلالتها على الاستعلاء ، وانها أدل فى مدح الأبرار من كلمة المصاحبة ، اذ أن الآية ترسم صورة للأبرار المتقين الذين قرنوا صالح العمل بصحيح الاعتقاد ، وقد بدأت بوصفهم بالاذعان القلبى المتمثل فى الايمان بالله ورسله ، وما أنزل عليهم من كتب ، وماحمل اليهم وحى السماء من الملائكة ، وما يتبع ذلك من تصديق بالحساب فى يوم أعده الله لذلك ، وهذا ما لا يصح عمل الا به ، ثم بدأت من الأعمال ببذل المال ، وهو الدليل العملى الأدل على صدق الايمان ، لأن المال شقيق الروح ، ولا يغلب المال فى نفس من يتعلقون به ويقعون أسرى حبه ، الا حب أكبر منه ، فجاءت (على) مشعرة باستعلاء حب الله فى نفوسهم على حب المال ، وتغلبهم على شهواتهم ، وقهرهم لأسباب الخوف من الفقر ، وارتفاعهم فوق شح أنفسهم « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ولعل ابن عباس رضى الله عنهما كان يلمح الى هذا الغرض حين قـــال : (البر بعد الايمـــان اعطـــاء المـــال على حبه ، على قلته وشهوته) (٢١) •

ولنفس الغرض جاءت على فى قوله تعالى وصفا للأبرار : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا •• الانسان ٨ » مدحا لهم بكمال

---

(٢٠) انظر البرهان ٤/٢٨٤ •

(٢١) تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ١٩ •

الايثار فى بذل ما بأيديهم من طعام هم فى أمس الحاجة اليه ، متعالين على هوى النفس قاهرين لشهوة البطن ، فى سبيل غاية أسمى وهدف أنبل ، وهو رضا الله تعالى ونيل ما عنده • فهى على أصلها من الاستعلاء المجازى ، علواً على رغبات النفس وقهرا لشهواتها • وذلك لون من التتميم البديع (٢٢) الذى ينشر جوا من المبالغة فى بذل ما يملكه الانسان وتضن به نفسه ابتغاء مرضاة الله •

وللاستعلاء فى قوله تعالى : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب •• الرعد ٦ » دلالة خفية تتلاشى مع القول بأن (على) بمعنى (مع) فى قوله « على ظلمهم » (٢٣) •

ذلك ان المغفرة لا تكون الا عن ذنب ، فاذا قيل ان المعنى (يغفر لهم مع ظلمهم أنفسهم باكتساب الذنوب) (٢٤) فان زيادة « على ظلمهم » حينئذ تشبه تكرارا لمعنى مفهوم مما قبلها ، وهو ما يفقد حرف الاستعلاء دلالته على فيض الرحمة الالهية ، وغلبتها على موجبات غضبه سبحانه ، دليلا على سبق الرحمة ، والماحا الى لطف الله تعالى بعباده • وغلبة الرجاء على الخوف • الاستعلاء هنا يجسد العلاقة بين الرحمة والغضب ، والمغفرة والعقاب ، ويغلب سوابق الرحمة على موجبات الانتقام ، ولولا قوله « على ظلمهم » لتساوت رحمة الله مع غضبه ، وعفوه ومؤاخذته،ولهلك الانسان حينئذ بعدل الله بعد أن يتوارى فضله• فقوله (ان ربك لذو مغفرة) يقابله « ان ربك لشديد العقاب » فأين سبق الرحمة وغلبة الرجاء ؟ انه فى قوله « على ظلمهم» بما يوحى به حرف

---

(٢٢) انظر الايضاح ببغية الايضاح ١٤٦/٢ •
(٢٣) انظر البرهان ٢٨٤/٤ •
(٢٤) البحر المحيط ٥ ـ ٣٦٦ •

الاستعلاء من تغلب المغفرة على الذنوب ، وقهر العفو للعقاب ، لذلك (قال ابن عباس : ليس فى القرآن أرجى من هذه الآية) (٢٥) •

وفى قوله تعالى : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ••النحل ٥٩ » قال الألوسى : (أيتركه ويربيه « على هون » أى ذل ، والجار والمجرور فى موضع الحال من الفاعل ، ولذا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : معناه أيمسكه مع رضاه بهوان نفسه ، وعلى رغم أنفه) (٢٦) •

ما قاله ابن عباس فى اعتقادى ليس الا كشفا عن المعنى ، وتفسيرا للمراد من النظم ، ولا يستوجب أن تكون على بمعنى مع ، على أن الرضى أرجع هذه المعية الى معنى الاستعلاء فقال : (وقولهم : فلان على جلالته يقول كذا ، أى معها ، وكأن المعنى أنه يلزمها لزوم الراكب لمركوبه ، من قولهم : ركبته الديون ، أى لزمته)(٢٧) •

وهو تأويل لا يذهب بعيدا عن استعارة الحروف كما أجراها البيانيون فى مثل قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم »مع احتفاظ الحرف بمعناه • لكن هذا لا يفسر اختصاص هذا الموضع بحرف الاستعلاء وترك ما هو أصل فى الدلالة على الملازمة والمصاحبة وهو (مع) •

(على) جئ بها لابراز الصراع المحتدم داخل نفس الولد بين عاطفة الأبوة التى تدفع الأب الى الامساك بوليده ، وبين ما يجره هذا

---

(٢٥) جواهر الحسان فى تفسير القرآن ٢٦٥/٢ •
(٢٦) روح المعانى ١٦٩/١٤ •
(٢٧) شرح الكافية ٣١٨/٢ •

الامساك عليه من ذل وضعة ، فان هو تغلبت فيه عاطفة الأبوة وتحمل تبعاتها كان ذلك استعلاء لهذه العاطفة ، ومغالبة لما يترتب عليها من ذل وانكسار نفس ، وان هو آثر السلامة ولم يحمل نفسه على أشق الأمرين أسرع بدسه فلذة كبده فى التراب ، فالاستعلاء فى الآية مجاز كاشف عن خلجات النفس وما تعانيه من مشاعر حادة متناقضة وحيرة بالغة ، وهذا الحرف ممتلىء بدلالته على المشاق والهموم بما تخلعه على النفس من أوزار وأثقال ، على حد ما صرح به ابن جنى فى قوله : (وذلك أنه قد يستعمل (على) فى الأفعال الشاقة المستثقلة على قول من يقول : قد سرنا عشرا ، وبقيت علينا ليلتان ، وقد حفظت القرآن وبقيت على منه سورتان ، وقد صمنا عشرين من الشهر ، وبقى علينا عشر ، وكذلك يقال فى الاعتداد على الانسان بذنوبه وقبيح أفعاله ، قد أخرب علىّ ضيعتى ، وموت علىّ عواملى ، وأبطل علىّ انتفاعى)(٢٨) .

(على) فى قوله « على هون » اذن تشعر بمغالبته لتبعات الامساك وتعاليه على موجباته من ذل النفس وانكسارها وليست للمصاحبة كما قيل .

وتأمل حرف الاستعلاء،وكيف جاء كحبة فى عقد نظمها مع حبات مماثلة فى سلك واحد فى قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله .. الجاثية ٢٣ » .

لا شك أنك تحس جمال التعانق ، وروعة الانسجام بين حروف الاستعلاء الثلاثة ، وكيف تعاونت جميعها فى رسم صورة القدرة الالهية

---

(٢٨) الخصائص ٢/٢٧٠ .

النافذة والارادة العليا الغالبية ، وهى تطمس رؤى البصر والبصيرة ، فاذا العلم لا يفلح فى اضاءة أقطار نفس شاء الله لهـا أن تعيش فى ظلامها ، واذ السمع لا ينفذ منه صوت الحق ، واذا القلب مختوم عليه لا يتسلل اليه شعاع من نور الايمان .

حروف الاستعلاء ينتظمها خيط دقيق يعبر عن غلبة ارادة الله ، وعلو مشيئته حتى عجزت كل وسائل الادراك مع صحتها وسلامتها عن التفلت من قدر الله ، فهى أشبه بأسلحة فلّها الله فلم تُجْدِ على صاحبها نفعا ، فكيف يقال ان (على) من قوله (على علم) بمعنى مع ، والنظم ناطق بسيف القضاء الغالب وقد سلب منه الهداية رغم كل ما يملك من مقوماتها متمثلة فى العلم وصحة الحواس .

(على) هنا تجسيد لغلبة المشيئة ، ونفاذ الارادة العليا واستعلائها فوق الأسباب وظواهرها ، وما يملكه الانسان من علم لا يحيطه الله ولا يباركه .

★ ★ ★

على وحرف الالصاق

من المواطن التى يبدو فيها اعجاز النظم القرآنى فى اختيار الحروف ما يظن فيه لأول وهلة أن (على) تؤدى ما تؤديه الباء فى موضعها ، كما فى قوله تعالى : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين .. التوبة ٢٥ » .

فسر أبو حيان ضيق الأرض على المسلمين بقوله : (أى ضاقت بكم الأرض مع كونها رحبة واسعة ، لشدة الحال عليهم وصعوبتها ، كأنهم

لا يجدون مكانا يستصلحونه للهرب والنجاة ، لفرط ما لحقهم من الرعب ، فكأنها ضاقت عليهم) (٢٩) •

الفعل(ضاق) يتعدى بالباء كثيرا ، كما فى قوله تعالى : « ولما جاءت رسلنا لوطاسىء بهم وضاق بهم ذرعا •• هود ٧٧ » وقوله : « ولقد نعلم أنك وضيق صـــدرك بما يقولون •• الحجر ٩٧ » • فلماذا أوثر حرف الاستعلاء فى آية التوبة السابقة ، وفى قوله من نفس السورة : « وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ••• التوبة ١١٨ » ؟

فى تأمل أغراض النظم ودلالات تراكيبه ما يجيب على هذا التساؤل أنك يضـــيق صـــدرك بما يقولون •• الحجر ٩٧ » • فلماذا أوثر حرف لهم ، ولم يجدوا فيها ملجأ أو مهربا كان الأحرى أن يقال : ضاقت بهم، كما يقال : ضاق البيت بأهله اذا لم يتسع لهم ، ومنه : ضاق بهم ذرعا ، أى أن طاقته لم تعد قادرة على تحملهم ، ونفسه لم تتســـع للمزيد من أفعالهم • وفى قوله تعالى « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » كنى بضيق الصدر عن حزنه ، وكأن صدره قد امتلأ بأقوالهم الآثمة فلم يعد يتسع لمزيد منها •

وهذا ما لا يهدف اليه النظم فى آيتى التوبة ، حيث تصور الأولى ما لحق بالمسلمين نتيجة غرورهم بكثرتهم ، فأطبق عليهم العدو ، وشتت جمعهم ، وشل تفكيرهم ، فلم يعودوا يقوون على الخروج من محنتهم لولا تدارك الله لهم بلطفه ، فجـــاء قوله « وضـــاقت عليكم الأرض »

---

(٢٩) البحر المحيط ٢٤/٥ •

تصويرا لشدة مـا لاقوه ، حتى يخيل اليك أن الأرض صـارت عدوا يحاصرهم ، ويكتم على أنفاسهم ، فلا يستطيعون منه فكاكا ، وحسبك بيانا لشدة وقع هذه المفاجأة على نفوس المسلمين من احساسهم بأن الأرض تحارب مع عدوهم ، وتجثم على صـدورهم ، وليس مراد الآية أنهم لم يجدوا ملجأ أو مهربا ، بدليل أن الله قال بعـد ذلك « ثم وليتم مدبرين » مما يعنى أنهم وجدوا ملاذا من الأرض خلفهم يهربون اليه •

وذلك ما قصدت اليه الآية الثانية من سورة التوبة تصويرا لأحوال نفوس المخلفين الثلاثة ، بعد أن قاطعهم المسلمون وحاصرتهم الوحدة فى بيوتهم ، بل وصل بهم الأمر الى حد مقاطعة أزواجهم وأبنائهم لهم ، حتى صاروا وكأنهم يعيشون فى عالم كلما فيه حرب عليهم ، واذا الأرض نفسها تؤدى دورها فى محاصرتهم ، والتضييق عليهم وكتم أنفاسهم ، وتصل المبالغة الى ذروتها حين تشـن عليهم حرب من داخلهم ، فاذا بأنفسهم تشارك الأرض والناس تضييقا عليهم ومحاصرة لهم • أهى حرب الضمير وحساب النفس ؟ نعم • وما أقساه من حساب وأشده حين يجىء للانسان من داخله ، فلا يستطيع التفلت منه ، ولا رده عنه •

فهل يمكن أن ينهض بهذه المعانى ويشى بهذه الأغراض حرف غير حرف الاسـتعلاء ؟ وهل تجد ما وجدت لو جاء النظم هكذا : وضاقت بهم الأرض بما رحبت وضاقت بهم أنفسهم ؟

ومما قيل فيه ان على بمعنى الباء قوله تعالى « انه لقول رسـول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين •• التكوير ١٩ ــ ٢٤ »

قال الفراء : (وقوله : « وما هو على الغيب بضـنين » حدثنـا أبو العباس قال : حدثنا محمد قال : حدثنا الفراء قال حدثنى قيس بن الربيـع عن عاصـم أبى النجود عن زر بن حبيش قال : أنتم تقرأون

« بضنين » ببخيل ، ونحن نقرأ « بظنين » بمتهم ، وقرأ عاصم وأهل الحجاز وزيد بن ثابت « بضنين » وهو حسن • يقول : يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه ، فلا يضن به عنكم ، فلو كان مكان (على) (عن) صلح أو الباء ، كما تقول : ما هو بضنين بالغيب ، والذين قالوا بظنين، احتجوا بأن (على) تقوى قولهم ، كما تقول : ما أنت على فلان بمتهم)(٣٠) •

وغريب هذا التناقض بين الفراء والرمانى ، حيث يجعل الفراء حرف الاستعلاء هو الأصل فى تعدية من قرأ بظنين حتى اتخذه أصحاب هذه القراءة دليلا لهم ، وهو بمعنى الباء فى قراءة من قرأ « ضنين » بالضاد،على حين يرى الرمانى أنه بمعنى الباء فى الأولى ، وعلى أصله فى الثانية ، وهذا ما قاله : (وقد وضعوها — يعنى على — موضع الباء • وعلى ذلك تأولوا قراءة من قرأ : « وما هو على الغيب بظنين » بالظاء ، أى بالغيب ، لأنه لا يقال : ظننت عليه بكذا ، أى اتهمته ، فأما من قرأ « ضنين » بالضاد فعلى فى موضعها ، لأنه يقال ضننت عليه بكذا أى بخلت)(٣١) •

والقول بأن تعدى فعل الضن بالباء هو الأصل ، وتعديه بعلى يستلزم أن تكون دالة على معنى الباء ، هو ما لا نقبله فى نظم القرآن الكريم ، لأنه يجعل العدول الى حرف الاستعلاء عاريا عن غرض خاص به •

والمتأمل للسياق يجد فيه تأكيدا على صدق ما جاء به الرسول عليه السلام مبلغا عن ربه ، ونفى مزاعم المشركين وادعائهم أن القرآن مفترى على الله ، أو أنه قول شاعر أو كاهن ، مما يقطع الصلة بينه وبين وحى السماء ، لذا كان وصف جبريل عليه السلام — وهو الواسطة بين الله

---

(٣٠) معانى القرآن ٣/٢٤٢ — ٢٤٣ •

(٣١) معانى الحروف للرمانى ١٠٨ •

ورسوله فى نقل الوحى به ــ بصفات تؤكد مكانته وأمانته فى ايصال ما أوحى الله الى نبيه ، ثم جاء وصف الرسول ــ وهو الذى انتهى اليه خبر السماء ــ بصفات تؤكد صدقه فيما يبلغ عن ربه ، وأمانته فيمايؤديه عنه ، نفيا لتهمة الافتراء على الله ، وليس ثمة ادعاء من المشركين بأن الرسول يحجب عنهم شيئا من الوحى ، ويبخل به عليهم ، لأنهم أساسا لا يؤمنون به قولا من عند الله • فلا ضرورة لنفى شىء لم يدعوه ، حتى يخفى الله ذلك عن رسوله ويقسم عليه • فتناســق النظم وتجاوبه فى أداء ما يهدف اليه هو الذى استدعى (على) دالة على أن الرسول لا يبخل بنفسه وجهده على الوحى ، ولا يفتر فى تبليغ ما أمر به ، فالغيب هو المبخول عليه ، والمبخول به هو جهد الرسول وطاقته ، وذلك ما نفى عنه ، ايماء الى أنه عليه السلام ماض فى دعوته لا يثنيه عنها أراجيف المشركين ومزاعمهم •

أما قراءة « بظنين » فان « على » معها توحى بالتحامل والافتراء عليه والتقول ، كما قال « ولو تقول علينا بعض الأقاويل » لذلك كان نفيه عن رسول الله ردا على قولهم انه افتراه على ربه •

ومما التبس فيه حرف الاستعلاء بحرف الالصاق قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام خطــابا لفرعون : « انى رســـول من رب العــالمين حقيق على أن أقول على الله الا الحـــق قد جئتـــكم ببينة من ربكم •• الأعراف ١٠٤ ــ ١٠٥ » •

قال الأخفش : (وقال بعضهم « علىّ ألا أقول » والأولى أحسنهما عندنا ، أراد : « واجب علىّ ألا أقول » والأخرى « أنا حقيق على ألا أقــول على الله » يريد : بألا أقول على الله ، كمــا قال : « بكل صراط توعدون » فى معنى على كل صراط توعدون) (٣٢) •

---

(٣٢) معانى القرآن للأخفش ٢/٣٠٧ •

وهذا الذى ذهب اليه الأخفش من تبادل الباء وعلى موقعيهما جار على مذهب الكوفيين ، من القول بنيابة حروف الجر بعضها عن بعض . ومن لم يعجبه هذا المذهب فر منه الى التضمين كما قال السيوطى : (ضمن حقيق معنى حريص ، ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه) (٣٣) .

وأحسن ما قيل فى تفسير دخول حرف الاستعلاء بما يبقيه على أصله ، ويكشف سر النظم فى ايثاره بهذا الموضع دون الباء ، وجه حكاه الزمخشرى بعد استقصاء آراء العلماء واستحسنه ، ذاهبا الى أنه الأدخل فى نكت القرآن ، وهو كما قال ولا مزيد عليه : (وفى المشهورة اشكال لا يخلو من وجوه : أحدها أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الالباس ، كقوله :

●وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر ●

ومعناه : وتشقى الضياطرة بالرماح ، وحقيق على أن لا أقول ، وهى قراءة نافع ، والثانى أن ما لزمك فقد لزمته ، فلما كان قول الحق حقيقا عليه ، كان هو حقيقا على قول الحق ، أى لازما له ، والثالث : أن يضمن حقيق معنى حريص ، كما ضمن هيجنى معنى ذكرنى فى بيت الكتاب ، والرابع وهو الأوجه والأدخل فى نكت القرآن أن يغرق موسى فى وصف نفسه بالصدق فى ذلك المقام . لا سيما وقد روى أن عدو الله فرعون قال له لما قال : انى رسول من رب العالمين . كذبت ، فيقول أنا حقيق على قول الحق ، أى واجب على قول الحق أن أكون أنا قائله ، والقائم به ولا يرضى الا بمثلى ناطقا به) (٣٤) .

---

(٣٣) معترك الأقران ١/٢٦٣ .
(٣٤) الكشاف ٢/١٠٠ – ١٠١ .

فالمقام مقام تكذيب من فرعون ، وهو يقتضى المبالغة فى الرد عليه بما يثبت صدق موسى ، مما استدعى معه أن يقول له ما معناه اذا لم أكن أنا الذى يقول الحق فمن يقوله اذن ؟

انه نفس الداعى الذى جعل الرسول عليه السلام يقول ردا على الأعرابى الذى طالبه بالعدل فى القسم (ومن يعدل ان لم أعدل) (٣٥) .

وفى (على) الى جانب ما قاله الزمخشرى ايحاء بأن موسى حادب على الحق ، وصى عليه من قبل ربه يدافع عنه ، ويذود عن حياضه : وكأنه يقول أنا راعى الحق والمحافظ عليه ، فكيف يصدر منى ما يضيعه ويضر به ؟ .

* * *

على وحرف الاختصاص

قد يبدو غريبا أن يلتبس معنى على بمعنى اللام ، وهما نقيضان فيما جرى به لسان العرب من استخدام اللام فيما يعود بالنفع ، وعلى فيما يجلب الضر ، انطلاقا من معنى الاختصاص والملك والاستحقاق فى اللام ، ومن معنى العلو على الشىء والاستيلاء عليه والقهر له فى (على) ومن ثم قوبل بينهما فى قوله تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. البقرة ٢٨٦ » وقوله عز وجل : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها .. الاسراء ١٥ » وقول الشاعر :

على أننى راض بأن أحمل الهوى
وأخلص منه لا على ولا ليا

ومن طبيعة هذا الاستعمال فى لغة العرب علل الزمخشرى دخول على فى قوله تعالى خطابا لنوح عليه السلام : « فاذا جاء أمرنا وفار

---

(٣٥) صحيح مسلم بشرح النووى ١٦٥/٧ .

التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم •• المؤمنون ٢٧ » قال جار الله : (جيء بعلى مع سبق الضـار ، كما جيء باللام مع سبق النافع • قال الله تعالى : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى » « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين » ونحوه قوله تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وقول عمر رضى الله عنه : ليتها كانت كفافا لا على ولا لى) (٣٦) •

الا أن هذا قد خولف كثيرا فى نظم القرآن الـكريم ، مما يعتبر خروجا على ظاهر ما تقتضيه مواقع الحروف ، وهو ما يتطلب البحث عن دواعيه وأغراضه •

من ذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين •• المائدة ٥٤ » ظاهر الكلام يقتضى المقابلة بين على واللام ، كما قوبل بين العزة والذلة ، فيقال أعزة على الكافرين ، أذلة للمؤمنن ، كما قال تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة •• الاسراء ٢٤ » فما الغرض من الاستعلاء فيه ؟

لما كان الذل يحمل معنى قهر الذليل واستكانته ــ وهو ما لا يليق بالمسلم أن يتصف به الا أن يعطيه بنفسه لنفسـه ، خضـوعا لله تعالى وتقربا اليه ، أو عطفا على اخوانه من المؤمنين ــ جاء حرف الاستعلاء مشيرا الى أنه ذل محمود يزيد قدر المؤمنين شرفـا ، ويكسـبه رفعة وسموا ، لأنه تذلل القوى الرفيع الشـأن ، لمن هو دونه قدرا ومكانة ، لا ذل الضعيف المستكين المقهور ، ولو كان المذل مؤمنا ، كيف والله يقول: « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين •• المنافقون ٨ » فلو تعدت « أذلة »

---

(٣٦) الكشاف ٣٠/٣ •

باللام لأشعرت بالانقيـاد والاستسـلام للمؤمنين ، ورفض ذلك مع الكافرين ، وليس ذلك ما قصد اليه النظم ، لأن الذلة التى يعنيها هى رحمة القوى بالضـعيف ، وعطفه وحدبه عليه ، وهو ما لا يؤدى بغير حرف الاستعلاء .

أما قوله « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » فان المراد « كن كالمقهور لهما) (٣٧) المنقاد لأوامرهما ، وليس فى الذل للأبوين ذم ، ولا فى الخضوع لهما عيب ، لأن طاعتهما من طاعة الله ، كمـا أنه ليس للاستعلاء عليهما مكان ، وهما منبع شرفه ومصدر رفعته .

ثم ان هاهنا غرضا يهمس به سياق الآيات ، حيث سبق هذه الآية تحذير المؤمنين من موالاة الكافرين ، حتى لا تؤدى بهم الى التبعية لهم ، وفقدان شخصيتهم ، فينتهى أمرهم الى الذلة والخضوع لغيرهم ، ثم جاءت هذه الآية دعوة الى موالاة المؤمنين ، وجاءت (على) اشعارا بأن موالاة المؤمن هى سـبيل العزة والأنفة ، ولن تقود أبدا الى الذل والعبودية كما هى مع الكافرين وهذا هو السياق : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضـهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين .. المائدة ٥١ ـ ٥٢ » .

وقد ذكر الزمخشرى وجهين لمجىء حرف الاسـتعلاء دون اللام فقال : (فان قلت : هلا قيل : أذلة للمؤمنين ، أعزة على الكافرين ؟ قلت: فيه وجهان ، أحدهما أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل

---

(٣٧) المفردات ١٨١ .

عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ، والثانى أنهم مع شرفهم وعلو طبقهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ونحوه قوله عز وجل : « أشداء على الكفار رحماء بينهم ») (٣٨) .

والوجه الثانى — فيما أرى — هو الذى يستنبطن سر النظم ، ويكشف عن وجه العدول الى حرف الاستعلاء .

ومع وضوح هذا الوجه فى كونه تفسيرا لمعنى الحرف ، وسر تعدى الذلة به ، فانه قد تعرض للجدل والتأويل وما غرض الزمخشرى منه ؟ وهل هو وجه آخر غير التضمين بجعله استعـــارة فى الحرف ؟ أم أنه تضمين آخر بوصف آخر ، بحيث يضمن الذل معنى الفضـــل والعلو ، مما يضيع نكتة اختصاص الحرف بالموقع الذى من شأن غيره أن يقع فيه . وهذا مثل مما دار حول كلام الكشاف . يقول الألوسى : (وكان الظاهر أن يقال أذلة للمؤمنين ، كما يقال تذلل له ، ولا يقال تذلل عليه ، للمنافاة بين التذلل والعلو ، لكنه عدى بعلى لتضمينه معنى العطف والحنو المتعدى بها ، وقيل للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ولعل المراد بذلك أنه استعيرت (على) لمعنى اللام ، ليؤذن بأنهم غلبوا غيرهم من المؤمنين فى التواضع حتى علوهم بهذه الصفة ، لكن فى استفادة هذا من ذاك خفـــاء ، وكون المراد به أنه ضمن الوصف معنى التفضل والعلو — يعنى أن كونهم أذلة ليس لأجل كونهم أذلاء فى أنفسهم ، بل لارادة أن يضموا الى علو منصبهم وشرفهم فضيلة التواضع — لا يخفى ما فيه) (٣٩) .

ونتوقف هنا أمام أمرين :

---

(٣٨) الكشاف ١/٦٢٣ .
(٣٩) روح المعانى ٦/١٦٣ .

الأول : أن كلام الزمخشرى ليس فيه ما يدل على الاستعارة فى الحرف ، ولم يكن مشغولا بذلك قدر انشغاله ببيان نكتة العدول الى حرف الاستعلاء ، وهو الأمر الذى يجب أن يعنى به الباحثون عن أسرار الاعجاز فى القرآن •

والثانى : أن استعارة على لمعنى اللام هو من قبيل التكلف ، واخضاع النظم لقاعدة يصح معها استعمال الحرف مكان الآخر ، فاذا لم يكن ذلك بالتضمين فليكن بالاستعارة مهما خالف ذلك روح الاستعارة وغرضها • فمعنى اللام نقيض لمعنى حرف الاستعلاء ، فكيف يستعار أحدهما للآخر والاستعارة تقتضى المشابهة ؟ اللهم الا أن يكون ذلك على سبيل التهكم وليس هذا موطنه •

فما أغنانا عن ذلك لو قلنا انه مخالفة لمقتضى الظاهر لغرض استدعاه النظم ثم ننصرف بعد ذلك الى البحث عن سر المخالفة !

وجاءت (على) فى شهادة الرسول على أمته ، وكان الظاهر أن تقع اللام موقعها باعتبارها شهادة لها لا عليها ، فى قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا •• البقرة ١٤٣ » فانبرى المفسرون للبحث عن سر ما يعتقد أنه مخالفة للظاهر • قال صاحب الكشاف : فان قلت : فهلا قيل لكم شهيدا ، وشهادته لهم لا عليهم ؟ قلت : لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جئ بكلمة الاستعلاء ، ومنه قوله تعالى : ــ والله على كل شئ شهيد ــ كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد (٤٠) •

وهذا الذى ذكره الزمخشرى يفسر صحة تعدى فعل الشهادة بعلى ، ولكنه لا يفسر سر اختصاص هذا الموضع بحرف الاستعلاء الذى من

---

(٤٠) الكشاف ٣١٧/١ ــ ٣١٨ •

شأنه أن يدل على أن الشهادة فيها اضرار بالمشهود عليه كما فى قوله تعالى « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.. النور ٢٤ » والزمخشرى نفسه فى أساس البلاغة يقول : (والله يشهد لى ولا أستشهده كاذبا ، وهو من أهل المشهد والمشاهد ، وشهدت بكذا ، وشهدت عليه ، وأشهدنى فلان ، « والله على كل شىء شهيد » (٤١) .

فعدى شهادة الله باللام فى الموطن الذى تكون الشهادة منه نفعا للمشهود ، لا مؤاخذة عليه ، مع أن رقابته وهيمنته لا تنفك أبدا .

وأضاف الألوسى وجها آخر فى سر تعدية الشهادة بعلى فقال : (وكلمة الاستعلاء لما فى الشهيد من معنى الرقيب أو لمشاكلة ما قبله) (٤٢) .

ولا نمنع أن تكون المشاكلة والمزاوجة سببا من الأسباب التى ترجح اختيار حرف على آخر بشرط أن يكونا متساويين فى الوفاء بالغرض ، أو أن الحرف المختار هو الأنسب معنى . أما أن يعدل اليه لمجرد المشاكلة ، وغيره أليق بمعانى الكلام فذلك ما لا يكون فى نظم القرآن .

والذى يقع فى نفسى — والله أعلم — أن حرف الاستعلاء على أصله وليس المراد أن الرسول يشهد لأمته ، وانما يشهد عليها بالتبليغ كما تشهد هى على الأمم السابقة بذلك كما جاء فى قوله تعالى « انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا .. المزمل ١٥»

ووجه التكريم لهذه الأمة أن تكون شاهدة على الأمم قبلها ، ولا يشهد عليها سوى رسولها ، وذلك دليل على هيمنتها على من سبقها من الأمم ، كما أن كتابها المنزل على رسولها مهيمن على ما بين يديه من

---

(٤١) أساس البلاغة ٣٤١ .

(٤٢) روح المعانى ٢/٥ .

الكتب ، وحسب هذه الأمة فخرا أن تكون شاهدة لا مشهودا عليها ، وأن تكون الشهادة عليها من نبيها وحده وفيه علو لقدر الرسول وشرف لأمته . ألا ترى ما يوحى به تقديم الجار والمجرور من الاختصاص .

ومن المواطن التى كثر حولها الجدل فى تعدى الفعل بحرف الاستعلاء ، حيث الظاهر يقتضى تعديته باللام قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون .. البقرة ١٨٥ » قال أبو حيان : (وعلى تتعلق بتكبروا ، وفيها اشعار بالعلية ، كما تقول : أشكرك على ما أسديت الى ، قال الزمخشرى : وانما عدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء ، لكونه مضمنا معنى الحمد وقوله كأنه قيل : ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم هو تفسير معنى ، لا تفسير اعراب ، اذ لو كان تفسير اعراب لم تكن على متعلقة بتكبروا المضمنة معنى الحمد ، انما كانت تكون متعلقة بحامدين التى قدرها) (٤٣) .

على أن التضمين الذى قال به الزمخشرى وتفسيره له ، سواء كان تفسير اعراب أو تفسير معنى ليس الا بيانا لصحة تعدى فعل التكبير بحرف الاستعلاء ، لكن نكتة الخروج عن مقتضى الظاهر فى التعدية باللام تظل معه غائمة .

وأرى — والله أعلم — أن الله يريد من عباده الارتفاع الى مستوى من شكر الله على نعمه يليق بجلال هذه النعم ، والحديث هنا عن نعمة التخفيف ورفع المشقة والحرج بتيسير العبادة ، حيث رخص للمريض والمسافر بالافطار فى رمضان رحمة بهما ، دون أن يحرمهما فضل الصيام متى زال المانع منه ، وذلك فضل من الله عظيم يستوجب من عباده أن

---

(٤٣) البحر المحيط ٢/٤٤ .

يقابلوه بالشكر ، ويعظموا الله تعظيما يجلل نعمته ويغطيها ، وهذا هو ما يشيعه حرف الاستعلاء على مدخوله ، ومن فضل الله أن جعل الحمد على النعمة أفضل منها ، فقال عليه السلام فيما رواه ابن ماجة : (ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله الا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ) (٤٤) •

فالغرض من العدول الى حرف الاستعلاء هو حث المؤمنين على المبالغة فى تعظيم الله تعالى والاكثار من شكره ومداومة الثناء عليه بما يجلل توفيقه لهدايتهم •

وهذا المعنى للاستعلاء صرح به الألوسى فى قوله تعالى : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة •• البقرة ١٥٧ » فقال معللا ايثار النظم لحرف الاستعلاء على حرف الاختصاص : (وأتى بعلى اشارة الى أنهم منغمسون فى ذلك ، وقد غشيهم وتجللهم ، فهو أبلغ من اللام) (٤٥) •

كما صرح به ابن القيم كذلك فى هذه الآية فقال : (والغرض بذلك كثرة الصلاة والرحمة ، لأن ما علاك وجللك فقد أحاط بك) (٤٦) •

وهذه لطيفة من اللطائف التى وقع عليها الألوسى وابن القيم ، مما يدلل على أن أسرار الحروف فى الذكر الحكيم لا تكاد تحصى ، وأضيف الى ما قالاه من التغشية والتكثير أن على توحى بجعل الرحمة سياجا حول المؤمن ، وحصنا يحميه من عذاب الله فهو منها فى غطاء يحول دون وصول غضب الله اليه ، ويحجب عنه سخطه وعقابه •

---

(٤٤) سنن ابن ماجة (كتاب الأدب) ٣٨٠٢/٢ دار احياء التراث العربى بيروت •

(٤٥) روح المعانى ٢٣/٢ ـ ٢٤ •

(٤٦) الفوائد المشوق الى علوم القرآن ٣٩ •

ولنتأمل معا هذا التصوير الرائع ، وامتلاء حرف الاستعلاء بالدلالات الموحية ، فى قوله تعالى كاشفا عن حقد المنافقين من أهل الكتاب وما انطوت عليه أنفسهم من الغيظ : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .. آل عمران ١١٧ ــ ١١٨ » .

ففى قوله « عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » تصوير يجسد حال هؤلاء المنافقين ، وقد امتلأت نفوسهم غيظا وحقدا على المؤمنين ، وأعياهم أن يجدوا متنفسا له بالنيل منهم والكيد لهم ، فانكفأوا على أناملهم يعضونها ، ويفرغون فيها ما فاضت به نفوسهم ، وكأنهم من فرط غيظهم فقدوا وعيهم ، فأطبقت أنيابهم على أناملهم ، ظنا منهم أنهم يلتهمون أجساد المسلمين ويتشفون فيها .

فقل لى بربك : أكان يمكن أداء هذه الصورة بكل هذه الايحاءات والظلال ، أو أن النظم جاء هكذا : عضوا لكم الأنامل من الغيظ . وهل أفصح الألوسى عن سر هذا الحرف حين قال تفسيرا لمعنى على : (« عضوا عليكم » أى لأجلكم) (٤٧) .

ومما هو جلى فى الفرق بين موقع حرف الاستعلاء وموقع اللام قوله تعالى فى وصف المنافقين « يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا .. البقرة ٢٠ » .

---

(٤٧) روح المعانى ٤/٣٩ .

تأمل كيف جاءت المقابلة دقيقة رائعة حين وضعت اللام موضعها دالة على حصول الضوء لهم ، لائحة بجلب النفع لهم ، ثم وضعت على موضعها مع الاظلام لتوحى بثقله على نفوسهم ، وتشير الى ما لحقهم من ضرر بانطفاء ضوئهم ، وكأن الظلام جند من جند الله ، أطبق عليهم وأحاطهم ، وحال دون تفلتهم مما ينتظرهم من الصواعق ومنعهم الهروب من مصيرهم المحتوم !

وما وقعت فيه (على) دالة على التحمل وثقل التبعة ، قوله تعالى على لسان شعيب خطابا لموسى عليهما السلام : « انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج •• القصص ٢٧ » •

لما كان الزواج بابنة شعيب منفعة لموسى طلب منه شعيب فى مقابله مهرا لهـا ، أن يتحمل أعبـاء العمل معه ثمانية أعوام ، وجاءت (على) مشيرة الى هذه التبعة التى ألقيت على كاهل موسى ، وما يوجبه تحملها من وفاء بما تعهد به ، والتزام بأداء ما اشترطه عليه ، وما أصعب ذلك وأشـده • و (على) هذه هى التى أطلق عليهـا ابن الجوزى معنى الشرط (٤٨) • وليس هو معنى غير معنى الاستعلاء ، بل هو منبثق مما توحى به من التحمل والمشـقة ، وما تومىء اليه من احسـاس بوطأة الالتزام وثقل المسئولية •

ولو أنك جئت هنا باللام فقلت : انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين لتأجرنى ثمانى حجج ، لأشـعر ذلك بأن شـعيبا يسعى الى نفع يعود اليه ، ويدفع ابنته ثمنا له ، وهذا ما لا يليق بمؤمنة حصـان كابنة شعيب ، ولا بمقام أبيها • لكنك مع (على) تشـعر بكرامتها ، وعظم المهر الذى يتحمله موسى فى سبيل الارتباط بها • وذلك سر ايثار هـذا الحرف فى موضعه •

---

(٤٨) انظر منتخب قرة العيون النواظر ١٧٧ •

وتأمل موقع « على » فى قوله تعالى : « ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه •• النساء ١١١ » وقوله جل شأنه : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها •• الاسراء ١٥ » وكيف يجسد لك ما يجنيه مقترف السيئات على نفسه بتعريضـــها لعذاب الله ، وتحميلها من الأوزار ما لا تنهض بحمله ، كما توحى اليك بضعف نفس المذنب وعجزه عن مغالبة شـــهواته وأهوائه ، فهو كمدمن خمر يعلم أنها تهلكه ، ولكنه لا يستطيع دفعها عن نفسه ، فهو مقهور ذليل تستعبده الآثام وتسوقه الأهواء ، واليك ما قاله أبو حيان فى آية النساء وهو من دقيق القول : (وفى لفظة (على) دلالة على استعلاء الاثم عليه ، واستيلائه وقهره له) (٤٩) •

* * *

على وحرف الابتداء

كثيرا ما تعدى الفعل بعلى فى مواطن من شأنه أن يتعدى فيها بمن، فاسرع اللغويون والنحاة الى تطبيق مذاهبهم ، قولا بالنيابة ، أو ذهابا الى تضمين الفعل •

من ذلك قوله تعالى : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون •• المطففين ١ ـــ ٣ » •

فذهب الكوفيون الى أن على بمعنى (من) وذهب البصريون الى التضمين ، قائلين ان المعنى : حكموا على الناس فى الكيل(٥٠) •

واذا كان القول بنيـــابة الحروف بعضـــها عن بعض مما وصـــفه المحققون بأنه من ضيق العطن ، فان تضـــمين الاكتيال معنى الحكم مما لا تتحقق فيـــه شروط التضمين ، من وجود المناســـبة بين معنى الكلمة

---

(٤٩) البحر المحيط ٣٤٦/٣ •

(٥٠) انظر الجنى الدانى ٤٧٨ •

ومعنى ما تضمنته • فأى مناسبة بين الحكم والاكتيال أو الاستيلاء كما ذهب اليه آخرون ؟ أليس الاستيلاء والتسلط من المعانى التى يشيعها فى الفعل حرف الاستعلاء ؟ •

اننا نقول انه لا تضمين فى الفعل ، ولا حرف الاستعلاء بمعنى الابتداء ، وانما عدل النظم الكريم الى حرف يوحى بالتحامل والغبن والاضرار بمن كتب عليه التعامل معهم ، ولو أن الفعل عدى بحرفه الذى من شأنه التعدى به ، لما دل على ظلمهم وتجاوزهم فى الاكتيال منهم •

وقد كان الزمخشرى خير من كشف عن اختصاص حرف الاستعلاء بما هو من مواطن حرف الابتداء فقال : (لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل (على) مكان (من) للدلالة على ذلك) (٥١) •

وما قاله الفراء من صحة وقوع الحرفين مع فعل الاكتيال انما هو وقوف عند الدلالة المعجمية للفعل ، وليس استبطانا لأسرار الفعل والحرف فى موقعهما من النظم • قال : (« اكتالوا على الناس » يريد : اكتالوا من الناس ، وهما تعتقبان : على ومن فى هذا الموضع ، لأنه حق عليه ، فاذا قال : اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك ، واذا قال : اكتلت منك ، فهو كقولك : استوفيت منك) (٥٢) •

فلو جرينا على هذا القول من أن الاكتيال اذا عدى بعلى دل على أخذ الحق ، لما كان فيه ذم للمطففين ، ولما استحقوا هذا الوصف الا فى جانب واحد هو جانب الايفاء لا الاستيفاء ، لأنه هو الذى صرح

---

(٥١) الكشاف ٤ / ٢٢٠ •

(٥٢) معانى القرآن ٣/٢٤٦ •

فيه بالاخسار ، وليس ذلك من شأن المطففين ، الذين يغبنون الناس كيلا منهم ، واكتيالا عليهم •

وهذا ما صرح به الراغب : (وطفف الكيل : قلل نصيب المكيل له ، فى ايفائه واستيفائه) (٥٣) •

على أننى أحس فوق ذلك لتعدية الفعل (كالوا) بنفسه دون اللام ، فى قوله « واذا كالوهم » واختصاص هذه الصيغة المجردة من الزيادة ، فى مقابلة « اكتالوا » فى جانب الاستيفاء أحس له وقعا خاصا ، ذلك أن انقاص الحروف وتقليلها كأنما يشى بالسرقة وانتقاص الكيل فى الوفاء لهم ، وأن زيادة المبنى فى صيغة الاكتيال وتعديها بحرف الاستعلاء مما يشى بالزيادة فى استيفاء الكيل منهم قهرا واغتصابا مما تتناغم فيه الألفاظ مع المعانى تناغما لا يحدث مثله فى نظم غير نظم القرآن الكريم • والا فهل مصادفة أن تستبدل على بمن ، والأولى أكثر حروفا وأدل على الجور والظلم والاستيلاء ، ثم يختار معها صيغة الزيادة فى حروف الفعل لتأتى فى المقابل صيغة مجردة من الزيادة ، ومن التعدية بالحرف الذى من شأنه أن يتعدى الفعل به ، حتى جعله أبو حيان حذفا فى قوله : (وكال ووزن مما يتعدى بحرف الجر ، فتقول : كلت لك ووزنت لك ، ويجوز حذف اللام ، كقولك نصحت لك ونصحتك) ؟ هل كل ذلك من قبيل المصادفة ؟ ولمجرد أنه يصح فى اللغة أن يقال هذا وأن يقال ذاك ؟

أى اعجاز هذا ؟ وأى نظم ذلك الذى يزيد الحرف أو يحذفه فيشيع فى جوانب النص كل هذه الدلالات والايحاءات بما لا تنهض به الكلمات وتعجز عنه الجمل الطوال ؟ ألا انه تنزيل من حكم حميد !

---

(٥٣) المفردات ٣٠٥ •

ومنه قوله تعـالى فى وصـف المؤمنين : « والذين هم لفروجهم حافظـون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمـانهم فانهم غير ملومين •• المؤمنون ٥ ـ ٦ » قال الفراء : (المعنى الا من أزواجهم اللاتى أحـل الله لهم) (٥٤) وهو جار على مذهبه من القول بتناوب حروف الخفض، وتبادلها مواقعها •

أما أبو حيان فقـد جرى على طريقة البصريين فى تضمين الفعـل قائلا : (والأولى أن يكون من باب التضـمين • ضـمن حافظون معنى ممسكون ، أو قاصرون ، وكلاهما يتعدى بعلى)(٥٥) •

ولعل التردد فى تضمين الفعل معنى الامسـاك أو معنى القصر ، مما هو دليل واضح على أنه يبحث عن صـحة التعدى فقط ، وليس عن أسرار المخالفة فى التعدى ، اذ لو كان للتضمين غرض بلاغى لمـا كان له الا معنى واحد يفى بالغرض ولا يفى به سواه ، وهذا يفسر لك كيف يختلف القائلون بالتضـمين فى تقدير المعنى المتضـمن ، لأنهم باحثون عن أى فعل يصح تعديته بالحرف الذى يتعدى به الفعل المضمن ويكون قريبا من معناه •

ولعل الزمخشرى كان أقرب الى دلالة حـرف الاستعلاء وما يدل عليه فى هذا الموضع من علو مكانة الرجل ، وحقه فى القوامة على المرأة ، وواجبها فى طاعته والانضواء تحت امرته • قال الزمخشرى : (« على أزواجهم » فى موضع الحال ، أى الاوالين على أزواجهم ، أو قوامين عليهن ، من قولك : كان فلان على فلانة ، فمات عنهـا ، فخلف عليهـا فلان ، ونظـيره كان زياد على البصرة ، أى واليا عليهـا ، ومنه قولهم : فلانة تحت فلان ، ومن ثم سميت المرأة فراشا) (٥٦) •

---

(٥٤) معانى القرآن ٢/٢٣١ •
(٥٥) البحر المحيط ٦/٣٩٦ •
(٥٦) الكشاف ٣/٢٦ •

وتأمل كيف عدل القرآن عن حرف الابتـداء الى حرف الاستعلاء فى قوله تعالى : « انمـا التوبة على الله للذين يعملون السـوء بجهـالة ثم يتوبون من قـريب فأولئـك يتوب الله عليهـم .. النسـاء ١٧ » . ليفتح باب التوبة واسـعا ، ويبسـط يده لمن أغرق نفسـه فى المعاصى والذنوب ، ويبعث الرجاء والأمل فى نفسـه ، ليقبل على ربه ، ويتفلت من حبائل الشيطان ، وذلك بما يعطيه على نفسه من عهده بقبول توبته ، والتكفير عن سيئاته ، ليصرفهم عن الماضى بأوزاره ، الى المستقبل بآماله وفيوضات الرحمة فيه ، يحدوهم اليه حرف الاستعلاء وما يوحى به من تحقق ثبوت ما وعدوا به ، وضمان قبول توبتهم ، بحكم أن الله اذا وعد فلن يخلف وعـده . ولو أنه قال انمـا التـوبة من الله .. لمـا أعطى للتأبين هذا الوعد الذى قطعه على نفسه،ممايثبط الهمم ويدفع الى اليأس

ألا ترى الآن كيف يجنى القول بنيابة على عن حرف الابتـداء فى هذا الموضع (٥٧) ؟ ثم ألا ترى كيف يشيع حرف الاستعلاء فى المقـابل جـوا من الرعب والفزع يملأ اقطـار النفوس ، ويخلع أوتار القلوب ، بما يحمله من سيف القضاء النافذ ، وما ينذر به من وعيد محقق لا ينجو منه أحد فى قوله تعـالى : « وان منكم الا واردها كان على ربك حتمـا مقضيا .. مريم ٧١ » .

أفكنت واجـدا لحـرف الابتـداء فى موقعه ما وجـدته لحرف الاستعلاء ؟ .

* * *

على وحرف الانتهـاء

من المواضع التى يقتضى ظاهرها تعدية الفعل بالى ، ولكن القرآن

(٥٧) انظر روح المعانى ٤/٢٣٨ .

عدل عنه الى حرف الاستعلاء قوله تعالى فى قصة أصحاب الجنة : « فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين .. القلم ٢١ ـــ ٢٢ » فعدى فعل الغدوّ بعلى ، والأصل أن يتعدى بالى. فما سر هذه المخالفة ؟

هذه الآية مشهد من مشاهد الحوار فى قصة بدأها الله بقوله : « انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم فتنادوا مصبحين ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون .. القلم ١٧ ـــ ٢٧ » .

ونلاحظ أن على تكررت فى هذه الآيات أربع مرات . الأولى « فطاف عليها طائف من ربك » وهى تعبر عن شدة بأس الله تعالى ، وقسوة عقابه ، اذ أن الطائف مرسل من ربك ، ولم يطف بها ، لأن الطواف بالشىء تعظيم له ، وانما طاف عليها ، ليعفى على كل أثر لها ، حتى ان أصحابها حين راوها لم يكادوا يتعرفون عليها ، ثم جاءت (على) فى قوله « أن اغدوا على حرثكم » لتصور أصحاب الجنة وكأنهم قطاع طريق يستلبون حقوق الناس ، ويبكرون لتنفيذ ما بيتوه حتى لا يراهم أحد ، شأنهم شأن اللصوص الذين يلتحفون الليل ويستترون به ، ليتمكنوا من سرقة ما أرادوا . ففى على معنى الاستيلاء على الحرث والاغارة عليه ، وهى تفصح عن نية العدوان والاغتصاب . فهل هناك تعبير عن جور الغادين على حقوق الفقراء والمساكين أشد من هذا التعبير ؟ وهل يمكن لحرف الانتهاء أن يؤدى ما أداه حرف الاستعلاء ؟

ثم انظر الى موقع (على) فى قوله (أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) وكيف تصور وجهة نظر أصحاب الجنة ، واعتقادهم بأن المساكين يغيرون عليهم ويستلبونهم رزقهم ، ويشاركونهم ما خصهم الله به ويغلبونهم على أمرهم . انه العدوان عليهم والجور على حقوقهم .

و (على) فى قوله « وغدوا على حرد قادرين » تنشر على جملتها مظاهر القوة والغلبة والادلال بالتملك والسطوة •

فانظر ماذا يفقد النظم الكريم لو سقط واحد من حروف الاستعلاء هذه واستبدل به حرف آخر ، وكيف ينفرط العقد وتتناثر حباته ؟

وهـذا الذى قلته راجع الى ما قاله الزمخشرى فى أحـد وجهين ذكرهما تعليلا لتعدى فعل الغدو بحرف الاستعلاء • (فان قلت : هلا قيل : اغدوا الى حرثكم ؟ وما معنى على ؟ قلت : لمـا كان الغدو اليه ليصرموه ويقطعوه كان غدوا عليـه ، كما تقول : غدا عليهم العـدو ، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الاقبال ، كقولهم : يغدى عليه بالجفنـة ويراح ، أى فأقبلوا على حرثكم باكرين) (٥٨) •

الوجه الأول كلام أرباب البيان ، والوجه الثانى تخريجات نحاة ، وبينهمـا بون بعيـد ، فالزمخشرى ملتفت فى الأول الى دلالة حـرف الاستعلاء وما ينشره فى جملته من معنى الاغارة والعدوان دون قصـد الى تشبيه الغدو بالاغارة ، كما فهم البعض متأولين كلامه بما يدل على أن فى غدا استعارة تبعية أو فيه مع الحرف استعارة تمثيلية ، على حـد ما جاء فى روح المعانى : (وظاهر كلام جار الله أن غدا بمعنى بكر يتعدى بالى ، وعدى هاهنا بعلى ، لتضمين الغدو معنى الاقبال ، كما فى قولهم ، يغدى عليه ويراح ، أى فأقبلوا على حرثكم باكرين ، ويجوز أن يكون من غدا عليـه ، اذا أغار ، بأن يكون قد شـبه غدوهم لقطع الثمـار بغدو الجيش على شىء ، لأن معنى الاستعلاء والاسـتيلاء موجود فيه ، وهو الصرم والقطع ، ويكون هناك استعارة تبعية ، وجـوز أن تعتبر الاستعارة تمثيلية) (٥٩) •

---

(٥٨) الكشاف ١٤٤/٤ •

(٥٩) روح المعانى ٣٠/٢٩ •

ومن المواطن التى غوير فيها بتعدى الفعل مرة بحرف الانتهاء ، وأخرى بحرف الاستعلاء ، فأفاض كل منهما على فعله من معناه ما يحقق أغراض النظم ومقاصده ، قوله تعالى : « فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين •• الصافات ٩١ ـ ٩٣ » •

لما كان قوله : « فراغ الى آلهتهم » يعبر عن قصد ابراهيم الى أصنامهم ، والسعى اليها خفية جىء بالى معبرة عن انتهائه اليها ، ومشيرة الى جعل وصوله اليها غاية لا يلوى معها على شىء حتى يحقق ما عزم عليه •

ثم حين أراد القرآن تصوير ما فعله ابراهيم بآلهتهم واغارته عليها جىء بعلى ، لتدل بمعنى الاستعلاء فيها على تمكنه منها ، وقهره لها ، وما لحقها من آثار التحطيم والتدمير ، كما تكشف عن عجز هذه الآلهة وصغارها ، وهى ذليلة أمام ابراهيم ، ينهال عليها ضربا وتحطيما دون أن تدفع عن نفسها ما نزل بها من الضر ، وفى ذلك ما فيه من التهكم بعقول من يعبدونها • كما توحى بأن ابراهيم عليه السلام أتى عليها جميعا بما لم يبق على شىء منها سوى ما أراد أن يورى به فى رده عليهم ، كما تحكيه آية أخرى « فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون •• الأنبياء ٥٨ » وقد نبه الراغب الى نكتة الخروج الى حرف الاستعلاء فى هذه الآية بقوله : (راغ فلان الى فلان : مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال ، قال : فراغ الى أهله ـ فراغ عليهم ضربا باليمين ـ أى مال ، وحقيقته طلب بضرب من الروغان ، ونبه بقوله : (على) على معنى الاستيلاء) (٦٠) •

---

(٦٠) المفردات ٢٠٨ •

والاستيلاء فيه معنى القهر والغلبة ، فى مقابلة العجـز والضعف والاستسـلام ٠

ومما غوير فيـه النظم بايصـال الكلمة بالى مرة وعلى أخرى ، وضعا لكل حرف فى الموضع الذى هو أشبه به وأليق بمكانه ، أنك تجد السبيل مقرونا بالى تارة ، وبعلى أخرى ٠

فمن الأول قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ٠٠ آل عمران ٩٧ » وقوله : « ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل ٠٠ غافر ١٠ — ١١ » ٠

فالحج فى الآية الأولى مقصـد وغاية تنتهى اليها آمال المسلمين ، وهو عبادة مفروضة على كل من وجد سبيلا يحقق الوصـول الى بيت الله الحرام ، وليس سوى (الى) ما يصلح لمعنى الوصول والانتهاء ، ومن ثم أوصل السبيل بها ٠

وفى الآية الثـانية يتلمس الكافرون ، وهم يعذبون فى نار جهنم ، طريقا الى الخروج ، ويصرخون ضارعين الى الله تعـالى أن يستجيب لندمهم ، ويعفو عنهم بعـد أن أقروا بذنوبهم ، وغاية آمالهم أن يجدوا سبيلا ينتهى بهم الى خارج جهنم ، ولعل رغبتهم الجـامحة فى ايجاد نهاية لمـا يعانونه ، والهرب من عذاب النـار هى التى جعلتهم يقدمون الجار اسراعا الى المقصود ، وانتهاء الى الغرض ٠

وحين يكون المراد اظهـار التمكن والقهر ، والدلالة على الغلبـة والعلو ، تأتى على مجسدة هـذه المعانى ، كما فى قوله تعالى : «الذين يتربصـون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وان كان للكافرين نصـيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله

يحـــكم بينــكم يوم القيـــامة ولن يجعـــل الله للـــكافرين على المؤمنين سبيلا •• النساء ١٤١ » •

فقد كشف حرف الاســـتعلاء عن دخائل الـــكافرين ، ورغبتهم فى التســـلط على المؤمنين واذلالهم ، وبســـط سيطرتهم عليهم ، ولكن الله بمعيته للمؤمنين لا يمكنهم من رقابهم ، فهم أعـــزاء بالله أبدا ، لذا لم يقل : ولن يجعل الله للـــكافرين الى المؤمنين ســـبيلا ، لأن الله قضى أن يتصارع الحق والباطل ويلتقى الكافر بالمؤمن ، ولكنه وعد أن لا يمكن الكافرين من المؤمنين ، وأن لا تكون لهم الغلبة عليهم •

ولمـــا كان للحق ســـلطانه وقوته ، وللمظلم اســـتخذاؤه وأثقاله ، أوصل السبيل بعلى فى قوله تعـــالى : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انمـــا السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق •• الشورى ٤١ ــ ٤٢ »

فالمنتصر من ظلم وقع عليه مرفوع القـــامة ، مستريح الضمير ، لا مؤاخذة عليه ولا تبعة تثقله ، أما الذين يظلمون النـــاس بغيـــا فى الأرض وفسادا فهم يحملون ثقل جرائمهم وتطـــاردهم آثامهم وكأنهم يحملونها على ظهـــورهم ، يترقبون الانتقـــام منهم ، ويخشون اغـــارة المظلوم عليهم • قال العز بن عبـــد الســـلام : (وفى الآية ســـؤال آخر فى قوله : « ما عليهم من ســـبيل » • ولم يقـــل : ما اليهم ، وهـــو الحقيقة ، اذ يقال : طريق الى مكان ، وسبيل اليه •

والجواب أن (على) يستعمل فى الضرر ، كقوله : « ومن أســـاء فعليها » وكقولنا : « عليه دين » • والمقصود ها هنا انما هو نفى الضرر عنهم اذا طلبوا حقوقهم ، فكان الاهتمام بالمقصود أولى) (٦١) •

---

(٦١) الفوائد فى مشكل القرآن ١٥٧ •

ومن المواطن التى التبس أمرها علىّ فرقا بين الى وعلى ، كما التبس على غيرى ، وجال الباحثون فيه كثيرا فأتوا بما لا يقنع ، تعدى فعل الانزال بالى حينا ، وبعلى حينا آخر ، وخاصة فيما اشتبه نظمه ، كما فى قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب الأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ٠٠ البقرة ١٣٦ » ٠

وقوله : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ٠٠ آل عمران ٨٤ » ٠

قال الغرناطى تفسيرا لهذه المخالفة بين الحرفين : (ان قوله فى البقرة « وما أنزل الينا ، لما قيل قبله « قولوا » وهو أمر للرسول ومن اتبعه على التشريك ، كالوارد فى قوله « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون » ثم قال : « وقالوا سمعنا وأطعنا » فشرك بينهم ، وأخبر سبحانه أن الجميع قالوا ذلك ، وكذا أمر هنا جميعهم ، فقال : « قولوا » واذا كان الأمر للجميع ، وجرى على حقيقته ، فانما أنزل اليهم ، لأن المنزل عليه حقيقة هو الرسول لا المؤمنون ٠ واذا قلنا أنزل على المؤمنين فمجاز ، كما أنا اذا قلنا أنزل الى الرسول لم يقع موقع أنزل عليه ، وان كان كل منهما جائزا ، الا أنا اذا اخذنا الكلام على ألا تضمين ولا تقدير ، فانما نقول أنزل على الرسول ، وأنزل على المؤمنين ، مع فصاحة (أنزل على الرسول) ووروده فى القرآن ٠

فلما قال فى سورة البقرة (قولوا) وأمر الجميع ناسبه (الينا) كما ورد فى قوله تعالى : « وقولوا آمنا بالذى أنزل اليكم » حين خوطب الجميع ، ولما قال فى آل عمران (قل) وكان الخطاب للرسول ناسبه (علينا) لأنه أنزل عليه ، فجاء كل على ما يجب) (٦٢) ٠

---

(٦٢) ملاك التأويل ٩٦/١ ٠

وما قاله الغرناطى منقوض بكثير من آيات القرآن ويكفى أن يجىء الخطاب للرسول وحده فى آيتين ، واحداهما عدى فيها الانزال بعلى ، والأخرى بالى ، وهما قوله تعالى : (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق .. الزمر ٢) وقوله « انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق .. الزمر ٤١» وهما فى سورة واحدة ، ثم يأتى معدى بعلى والخطاب للؤمنين وحدهم كما فى قوله تعالى : « واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة .. البقرة ٢٣١ » .

وقد نقل أبو حيان عن الراغب تعليلين لمغايرة التعدية (وقال الراغب : انما قال هنا (على) لأن ذلك لما كان خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان واصلا اليه من الملأ الأعلى بلا واسطة بشر ، كان لفظ على المختص بالعلو أولى به ، وهناك لما كان خطابا للأمة ، وقد وصل اليهم بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم ، كان لفظ (الى) المختص بالايصال أولى . ويجوز أن يقال : أنزل عليه ، انما يحمل على ما أمر المنزل عليه أن يبلغ غيره ، وأنزل اليه ، على ما خص به فى نفسه ، واليه نهاية الانزال ، وعلى ذلك قال : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » خص هنا بالى ، لما كان مخصوصا بالذكر الذى هو بيان المنزل ، وهذا كلام فى الأولى لا فى الوجوب) (٦٣) .

والتعليل الأول هو نفس ما ذكره الغرناطى فيما نقلناه ، وقد بينا ما فيه ، اما التعليل الثانى فهو منقوض كذلك بنصوص القرآن ، من مثل قوله تعالى : « ياأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك » وهو صريح فى الأمر بتبليغ ما أنزل اليه ، ولو جرى على ما قاله الراغب لقال : ما أنزل عليك ، ومثله قوله تعالى : « واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع .. المائدة ٨٣ » وهو أكثر

---

(٦٣) البحر المحيط ٥١٦/٢ ـ ٥١٧ .

وضوحا فى الدلالة على أنهم سمعوا ما أمر بتبليغه ، ومع ذلك فقد عدى الفعل بالى •

وقد سبق الزمخشرى الى رفض مثل ذلك التعليل : (فان قلت :لم عدى أنزل فى هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء ؟ قلت : لوجـود المعنيين جميعـا ، لأن الوحى ينزل من فوق وينتهى الى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر ، ومن قال: انما قيل علينا لقوله (قل) و « الينا » لقوله : « قولوا » تفرقة بين الرسول والمؤمنين ، لأن الرسول يأتيه الوحى على طريق الاستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهـاء فقد تعسف ، ألا ترى الى قوله ــ بما أنزل اليك ــ وأنزلنا اليك الكتـاب ــ ، والى قوله : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا) (٦٤) •

ومع أن الزمخشرى كان على حق فيما رد به ، فانه لم يفسر لنـا سر اختصاص موضع بالى ، وآخـر بعلى ، والقـول بان الانتهـاء والاستعلاء كليهما يصلحان لتعدية الفعـل بهمـا لا يكفى فى استجلاء أسرار الذكر الحكيم •

كما أن القول باختلاف التعدية للتفنن فى العبارة كمـا ذهب اليـه الألوسى لا يشبع نهم الباحث عن بلاغة القرآن الكريم • يقول الألوسى: (والتحقيق أنه لا فرق بين المعدى بالى ، والمعدى بعلى الا باعتبار ، فان اعتبرت مبدأه عديته بعلى ، لأنه فوقانى ، وان اعتبرت انتهاءه الى من هوله عديته بالى ، ويلاحظ أحد الاعتبارين تارة ، والآخر أخرى تفننـا بالعبارة) (٦٥) •

---

(٦٤) الكشاف ١/٤٤٢ •

(٦٥) روح المعانى ٣/٢١٥ •

ولم أجد لأحد فى ذلك كلاما يستريح اليه ضمير الباحث غير ما قاله الخطيب الاسكافى ، وقد تعرض للحديث عن تعدية الانزال بعلى والى مرتين فى كتابه ، الأولى فى سورة البقرة ، ولم يقل فيها أكثر مما قاله الراغب كما نقله أبو حيان ، والثانية فى سورة الزمر ، حين تساءل عن سر التعدية بالى فى قوله : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين .. الزمر ٢ » والتعدية بعلى فى قوله : « انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها .. الزمر ٤١ » وفى هذه المرة فتح الله عليه بما احتجب عنه فى المرة الأولى .

وهذا نص ما قاله فى آيتى الزمر : (والجواب أن يقال : قد تقدم قولنا فى الفرق بين أنزلنا اليك ، وأنزلنا عليك ، وأن (على) يتضمن معنى فوق ، وأن يكون الوحى جاءه من تلك الجهة ، وأن (الى) للنهاية ، فلا تختص بجهة دون جهة ، وكذلك كان أكثر المواضع التى ذكر فيها انزال القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم ، عدى بعلى ، كقوله تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » وكقوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده » وقال : « نزل به الروح الأمين على قلبك » وقال : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » . وأكثر ما جاء ذكر انزاله على الناس جاء معدى بالى ، كقوله : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا » ، ثم كل موضع قيل فيه : أنزلنا اليك ، فقد شدد فيه التكليف عليه ، ونزل منزلة أمته ، فيما يجب على عالمهم تبيينه لمتعلمهم ، كقوله فى أول هذه السورة : « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين » فقد أمر باخلاص العبادة ، والمراد هو وأمته ، وكقوله : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » فكان المراد فى المواضع التى استعملت فيها « الى » أنه تناهى الى حيث لا متعدى وراءه من

عالم سنة مقصورة عليه ، فكل موضع عدى فيه الانزال بعلى فان المراد به أنه شرفك ، وأعلى بذلك ذكرك ، لتؤدى ما عليك فتنذر وتبشر ، فمن قبل فحظه أصاب ، ومن أعرض فنفسه أويق ، ويكون به تهديد لمن ترك القبول ، كقوله تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » ثم قال : « لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين ») (٦٦) •

وقد تتبعت ما جاء فى القرآن من مادة الانزال ، فأحصيت منها سبعة وعشرين موضعا عديت بعلى ، ومثلها عديت بالى ، فيما خص فيه الانزال بمن نزل عليه الوحى من النبيين ولم يشاركهم فيه من أمروا بتبليغه اليهم ، ولئن صح هذا الاحصاء — وهو ان شاء الله صحيح — فان هذا التساوى فى العدد بين ما عدى بعلى ، وما عدى بالى ، لابد أن يلفت النظر ، ويستدعى الوقوف عند هذا الضرب من الاعجاز،على أن لا يكون تفسيرنا لهذه الظاهرة واقفا عند الحد الذى وقف عنده القائلون بالاعجاز العددى ، فى محاولة للتوصل الى نتائج أقل ما يقال فيها انها تصرف الفكر عن تدبر معانى القرآن وأسراره • وتفسير ذلك عندى أن هذا التساوى هو دليل على التوازن بين مواطن التشريف ومواطن التكليف ، أو قل انه تكافؤ الحقوق والواجبات ، وذلك اذا نحن سلمنا للاسكافى بان (على) تأتى دالة على التشريف ، ، و (الى) تنحو منحى التشديد فى التبليغ والعمل بالمنزل ، ونحن مسلمون له ذلك ان شاء الله ، بناء على استقراء هذه المواضع جميعا ، ما تعدى منها بعلى ، وما تعدى بالى ، حيث وجدت ما يشبه أن يكون ظاهرة عامة ، تبدو فيها روح التكريم والتشريف للأنبياء فى كل المواطن التى تعدت بعلى ، وروح الحث والاستنهاض وحدة النبرة فى الدعوة الى التمسك بالمنزل ، والالتزامات به ، وعدم الحيدة عنه أو التفريط فيه ، فيما تعدى بالى وهذه نماذج دالة وأمثلة هادية :

---

(٦٦) درة التنزيل ٤٠٣ ـ ٤٠٤ •

فمما جاء معدى بعلى هامسا فيــه حرف الاستعلاء بشرف المنزل ورفعة من أنزل عليه ، قوله تعــالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنــذرين .. الشــعراء ١٩٣ » « نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لمــا بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبــل هــدى للناس وأنزل الفرقان .. آل عمران ٣ ــ ٤ » « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .. الفرقان ١ » « ياأيها النــاس ان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .. البقرة ٢٣ » « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لمــا بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين .. البقرة ٩٧ » « بئسما اشتروا به أنفســهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياأنينزل الله من فضلهعلىمن يشاء منعباده.. البقرة ٩٠ » « وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما .. النساء ١١٣ » « أو لم يكفهم أنا أنزلنــا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمــة وذكرى لقــوم يؤمنــون .. العنكبوت ٥١ » « طه ما أنزلنــا عليك القرآن لتشقى .. طه ١ ــ ٢ » « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده .. النحل ٢ ».

ومما جاء معدى بالى وهمس فيه حرف الانتهاء بضروره انهائه الى المبلغين وتقديمه اليهم فى صورة واضــحة ، والتشــديد على من انتهى اليه العلم بالكتاب أن يعمل بما علم وتحذير من أنزل اليه الكتاب من أن يشغله عن قصده وهدفه أحــد قوله تعالى : « انا أنزلنا اليك الكتــاب بالحق لتحكم بين الناس بمــا أراك الله ولا تكن للخائنين خصــيما .. النســاء ١٠٥ » « وأن احــكم بينهم بمــا أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحــذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليــك .. المــائدة ٤٩ » « ياأيها الرســول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فمــا بلغت رسالته .. المــائدة ٦٧ » « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بمــا أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقــد

أمروا أن يكفروا به٠٠ النساء٦٠ » « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ٠٠ المائدة ٤٨ » « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ٠٠ يونس ٩٤ » ٠

« كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ٠٠٠ الأعراف ٢ » « ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين ٠٠ القصص ٨٧ » « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ٠٠ الزمر ٢ » ٠

وان شئت المقارنة فهاتان آيتان من متشابه النظم هما قوله تعالى: « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ٠٠ آل عمران ٣ — ٤ » وقوله تعالى : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ٠٠ المائدة ٤٨ » ٠

فلا شك أنك واجد فى الأولى روح التشريف والتعظيم لقدر من نزل عليه الكتاب ، وكفى شرفا له أن يعاد ذكر القرآن المنزل عليه مرة أخرى ليكون مفتتح الكتب المنزلة ومنتهاها ٠ وفى المقابل تجد روح التكليف والتشديد وتحذير الرسول من أن يصرفه عن هدفه وطريقه ذوو الأهواء من أهل الكتاب ٠

* * *

زيادتها مع الفعل المتعدى

قد يكون الفعل مما يتعدى بنفسه ، ولا يحتاج الى واصل ، ثم تزاد (على) فتخلع على النظم من معانيها ما يحقق أغراضه ، ويبرز مقاصده ٠

من ذلك قوله تعالى على لسان رسوله فى خطاب زيد بن حارثة وقد اذاه استعلاء امرأته زينب بنت جحش وهم بطلاقها « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه .. الأحزاب ٣٧» فلم يكتف الرسول بقوله «أمسك زوجك» لتجىء (على) مطالبة زيدا بمزيد من التحمل والصبر على أذى زوجه ، مفصحة عما يعانيه من وطأة التعالى عليه ، مدفوعة بكرم المحتد ، وشرف الأرومة ، وما أصعبه على نفس الرجل ، أن تتقاله امرأته ، وتأنف عليه . ولو رحت تحذف حرف الاستعلاء لما كان للنظم هذا المذاق ، ولما شعرت معه بما يعانيه زيد ويحس به .

ومنه تعدى الفعل « ربط » بعلى ، وهو مما يتعدى بنفسه ، فتقول: ربط الدابة اذا شدها برباط ، ومن مجازه ربط الله على قلبه اذا صبره (٦٧) .

وقد ورد هذا الفعل متعديا بعلى فى ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم وهى جميعا مجاز عن الهام الله أصحاب القلوب الصبر ، وتقوية عزائمهم فى مواقف تضطرب لها القلوب الثابتة ، وتخور فيها العزائم الصلبة .

الموضع الأول فى غزوة بدر ، حين اضطربت قلوب المؤمنين قبيل أول معركة بين الايمان والشرك ، وتثاقلت النفوس عن لقاء المشركين ، كما يصوره قوله تعالى : « كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون » فكان من رحمة الله بالمؤمنين أن أمدهم بروح منه ، وأنزل عليهم السكينة ، وربط على قلوبهم بالايمان : « اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام .. الأنفال ١١ »

---

(٦٧) انظر أساس البلاغة ٢١٦ وما بعدها .

والموضع الثانى : فيما حكاه الله تعالى عن أهل الكهف وهم يجابهون سطوة الشرك ، ويجاهرون بايمانهم ، ويتحـــدون قوى الشرك معلنين توحيدهم لله فى مظاهرة ايمانية ، لا يســـتطيعها الا من ثبت الله قلبه ، وملأه يقينـــا به « نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب الســموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا .. الكهف ١٣ ـــ ١٤»

والثالث . فى قصة أم موسى بعد أن ألقت بابنها فى اليم ، فضعفت وأصـــابها الفزع والخوف عليه ، وخارت قواها ولولا أن تداركهـــا الله بلطفه وثبت قلبها لأسلمت وليدها بنفسها الى الموت : « وأصـــبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبهـــا لتكون من المؤمنين .. القصص ١٠ » .

وفى تعليل دخول حرف الاســـتعلاء على القلوب دون تعدى الفعل بنفسه حكى الألوسى عدة تفسيرات : (قال الواحدى : ويشبه أن تكون (على) صلة ، أى وليربط قلوبكم .

وقيل : الأصل ذلك الا أنه أتى بعلى قصدا للاستعلاء ، وفيه ايماء الى أن قلوبهم قد امتـــلأت من ذلك حتى كأنه علا عليهـــا ، وفى ذلك من افادة التمكن ما لا يخفى)(٦٨) .

هذا ما قاله الألوسى فى آية الأنفال ثم قا ل فى آية الكهف : (وعدى الفعل بعلى وهو متعد بنفسه لتنزيله منزلة اللازم)(٦٩) .

ولسنا نستحسن أن تكون (على) صلة بمعنى أنها زيادة فى المبنى

---

(٦٨) روح المعانى ٧٦/٩ .

(٦٩) السابق ٢١٨/١٥ .

لا يقابلها زيادة فى المعنى ، أو أن الزيادة لمجرد التأكيد كما جرت العادة فى تعليل كل زيادة ، كما أن تنزيل الفعل منزلة اللازم بمعنى أنه أوقع الربط على القلوب ليس مما يستلهم أسرار الحروف .

بقى لنا القول بأنها جاءت قصدا للاستعلاء ، ايماء الى أن القلوب امتلأت ثقة ويقينا حتى فاض عليها وعلاها ، وهو أقرب الى روح النظم وأدل على أسرار الحرف . ذلك أن الاستعلاء هنا ينشر من ظلاله على ما حوله معنى تغشية الله هذه القلوب وتجليله لها ، وما أفاضه عليها من الثقة به ، والاطمئنان الى معيته ما أحاطها بغطاء من الأمن والثبات ، فلم يعد يتسرب اليها الخوف ، ولا ينفذ اليها الضعف والوهن ، ولا يصل اليها ما يزعجها بعد أن بسط الله تعالى عليها يده ونشر عليها غلالة من حمايته .

ومن بديع مواقع زيادتها فى الكتاب المجيد ، قوله تعالى تهديدا للمشركين : (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها .. محمد ١٠ » .

فهؤلاء المشركون يمرون مصبحين وممسين على أمم كانت أشد منهم قوة ، وأكثر أموالا وأولادا أبادها الله ومحاها من الوجود ، فأصبحت أثرا بعد عين ، فهددهم الله تعالى بذات المصير « وللكافرين أمثالها » .

واذا كان الانسان فى بعض أحواله يقبل راضيا على الموت ، اذا اطمأن على عقبه من بعده ، وعلم أن بين أيديهم من المال ما يضمن لهم عيشة راضية ، فان القرآن آثر فى وعيده لهم أن يعبر بما يدل على اهلاكهم واهلاك أموالهم وأولادهم ، ليكون وقعه على نفوسهم أشد ، وأثره على قلوبهم أقوى وأفظع ، لذا لم يقل : ــ دمرهم الله ــ حتى لا يفهم أن العذاب وقع على الكافرين وحدهم ، وأصابهم فى أنفسهم دون أموالهم وأبنائهم ، وجاء « بعلى » مشيرة الى أن بأس الله وانتقامه

قد امتدا الى كل ما يختص بهم من أهل وولد وما جمعوه وشيدوه ، ومن ثم كان دمر عليه أبلغ من دمره ، لما فيه من حذف المفعول وتناسى وجوده، ولزيادة على المشعرة بأن التـدمير أتى على كل شىء دولهم ، ولم يبق من آثارهم شيئا .

وتأمل هذه المبـالغة فى الحرص على المشـاهدة وانعام النظر ، وظهور المشاهد حتى لكأنه ملء العين والبصر ، فى قوله تعالى على لسان الملأ من قوم ابراهيم : (فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .. الأنبياء ٦١ » .

والآية أحد المشاهد فى قصة ابراهيم عليه السلام بعد أن اتى على آلهتهم تحطيما وتدميرا ، وهو حدث فريد ، وفاعله رجل فى نظر القوم عجيب ، ولا تكاد عقولهم تستوعب ما سمعوا ، ولا تصدق أبصـارهم ما ترى . لذا لم يكتف النظم الكريم بقوله « فأتوا به » ولم يقل : أمام أعين الناس ، وآثر حرف الاسـتعلاء ، ليدل على بالغ دهشـة القوم ، وعدم امكان تصديق خبر كهذا ، يجرؤ فيه انسان على تحطيم آلهتهم ، فهم بحاجة الى أن يقلبوا فيه أعينهم ، ويحدقوا فيه بأبصارهم ، ولا بد أن يكون فى مكان ظـاهر تراه فيه أعين الجميـع ، ويسـتعلى فيه على أبصارهم وهم يشهدون محاكمته . يقول أبو حيان : (و (على) معناها الاستعلاء المجازى ، كأنه لتحديقهم اليه ، وارتفاع أبصـارهم لرؤيته مستعل على أبصارهم)(٧٠) .

ومما عدى فيه الفعل بعلى وأصله أن يتعدى بنفسه قوله تعالى : « حتى اذا أتوا على وادى النمل قـالت نملة يا أيهـا النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون .. النمل ١٨ » .

---

(٧٠) البحر المحيط ٦/٣٢٤ .

وكثيرا ما تعدى هذا الفعل بنفسه كما فى قوله تعالى « وكل أتوه داخرين .. النمل ٨٧ » وقوله « حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها .... الكهف ٧٧ » « هل أتــاك حديث ضــيف ابراهيم المكرمين ... .. الذاريات ٢٤ » .

وهو حين يتعدى بنفسه يدل على : معنى الوصول الى المأتى ، أما حين يعدى بحرف الاستعلاء ، فانه يكتسب منه الدلالة على شدة وطأة الآتى ، وما يصحبه من ايقاع بما أتى عليه واضرار به يصل الى حد افنائه وابادته ، ومنه (أتى عليهم الدهر : أفناهم) (٧١) .

وقد عكس حرف الاستعلاء فى آية النمل آثار الذعر الذى أصاب عالم النمل ، والأضرار التى لحقت بواديه ، وشــدة وطأة جند سليمان عليه ، وهم يضربون الأرض بأقدامهم فى مظاهرة للقوة والخيلاء مما حدا برائدة القوم أن تصدر أمرها بالانسحاب من طريقهم ، والايواء الى مساكنهم . ولعلك تلمس آثــار حرف الاستعــلاء فى قول النملة « لايحطمنكم سليمان وجنوده » .

وقد علل الزمخشرى مجىء على بوجهين ، لا أرى فيهما ما يفصح عن سر الاستعلاء كما يجســده هذا الحرف ، فالوجه الأول واقف عند استعلاء حسى لا ينهض ببلاغة النظم ، والثــانى بنى على أن الجنود كانوا محمولين على الريح ، وأرادوا النزول عند منقطع الوادى ، وليس فى النظم ما يدل عليه ، فقد جاء قبل هذه الآية قوله « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون » فلم لا يكون كل جنس من الجنود محشورا على هيئته التى خلق عليها ، فيكون الانس على

---

(٧١) أساس البلاغة ١١ .

الأرض والطير فى السماء ، وما معنى قوله « يوزعون » اذا كانوامحمولين على الريح ؟

وهذا نص الكشاف : (فان قلت : لم عدى أتوا بعلى ؟ قلت : يتوجه على معنيين : أحدهما أن اتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ، كما قال أبو الطيب :

● ولشـــد ما قربت عليك الأنجم ●

لما كان قربا من فوق والثانى : أن يراد قطع الوادى ، وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشىء اذا أنفذه وبلغ آخره ، كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادى ، لأنهم ما دامت الريح تحملهم فى الهواء لا يخاف حطمهم (٧٢) .

وأشعرت (على) بمعنى الاهلاك والابادة فى قوله تعالى : « ما تذر من شىء أتت عليه الا جعلته كالرميم .. الذاريات ٤٢ » .

كما دلت على الاشراف وعلوا الآتى على المأتى فى قوله عز وجل : « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنـــام لهم .. الأعراف ١٣٨ » فان العاكفين على عبادة أصنـــامهم من راكع وساجد ومندن ، والقادمون يرمقونهم بأبصارهم من عل ، فهم باشرافهم عليهم مستعلون عليهم متمكنون من مشاهدتهم . وليس ببعيد أن تومىء على الى انحطاط عبدة الأصنام ، وتسفل ادراكهم ، وحقارة شـــأنهم ويكون الاستعلاء مجازيا ولعله أدخل فى نكت القرآن الكريم .

ومن الاستعلاء الدال على الاشراف والتمكن من رؤية المشرف عليه قوله تعالى : « ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر الســـوء ،

---

(٧٢) الكشاف ١٤١/٣ .

أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ٠٠ الفرقان ٤٠ » ٠

حيث أراد القرآن تصوير غفلتهم ، وما أصـــاب أبصـــارهم من العمى ، وعقولهم من التبلد والجمود ، وهم يطالعون فى أسفارهم آثار عقاب الله تعالى وعذابه ، أبصارهم شاخصة فيما أصاب القرية ، وما حل بأهلها نتيجة كفرهم ، فلم يدعهم ذلك الى النظـــر والتفكر مع تمكنهم من الرؤية ، ووضوح آثار العذاب ٠

وليس هناك ما يدعو الى تضمين الاتيان معنى المرور (٧٣) ليصح تعديته بحرف الاستعلاء ، ذلك أن الاتيان على القرية يدل على أنه تمكن منها واحتواها كلها بنظره ، ووقف على مشاهد الآثار فيهـــا وهو أدل حينئذ على الحمق والغفلة من المرور بها ، لأن المار عجل يود الاسراع فى الوصول الى غايته وذلك قد لا يمكنه من رؤية المار عليه كما يتمكن الآتى فلماذا التندى بدلالة الفعل مع غناء حرف الاستعلاء بالاشارة الى المقصد والغرض ؟

وانظر الى معنى الاستعلاء والقهر الذى أضفاه حرف الاستعلاء على فعل من شأنه أن يصل الى مفعوله بنفسه ، فى قوله تعالى على لسان أصحاب النار : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ٠٠٠ ٠٠ المؤمنون ١٠٦» ردا على سؤال الله أو الملائكة لهم : « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » ٠

فالفعل (غلب) مما يتعدى بنفسه كما فى قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ٠٠ البقرة ٢٤٩ » ٠

وعدى بعلى هنا ايحاء بمعنى الاستيلاء والقهر وعجز المغلوب عن انتزاع ما سلب منه ، والمسلوب هنا أنفس الكافرين وعقولهم ، وذلك

---

(٧٣) انظر روح المعانى ٢١/١٩ ٠

تصوير للشقاوة المكتوبة عليهم بصورة القاهر الذى غلبهم على أنفسهم ، فانتزع منهم عقولهم وأبصارهم وأسماعهم ، فلم يستمعوا الى آيات الله ، ولم يبصروا آثاره الدالة عليه ، ولم يتدبروا آياته . وفرق كبير بين غلبتنا شقوتنا ، وغلبت علينا شقوتنا ، كما أن هناك فرقا بين غلبه وبين استولى عليه ، وبذلك فسره الراغب : (وغلب عليه كذا ، أى استولى « غلبت علينا شقوتنا ») (٧٤) .

ومن دقيق ما جاء فرقا بين تعدية الفعل بنفسه وتعديته بعلى قوله فى سورة (يس) : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون .. ٦٥ — ٦٦ » وقوله فى سورة القمر « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا مس سقر ٣٧ » .

والمتأمل لأعطاف السياق فى السورتين لا يقبل أن يكون طمس الأعين هو نفسه الطمس على الأعين كما يوحى به قول الراغب : (الطمس ازالة الأثر بالمحو . قال : « واذا النجوم طمست » « ربنا اطمس على أموالهم » أى أزل صورتها « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم » أى أزلنا ضوءها وصورتها كما يطمس الأثر)(٧٥) . لأن على بهذا القول تصبح زائدة لغير معنى ، ونحن نرى أن ثمة فرقا بين طمس الشىء وهو ازالة أثره ، والطمس على الشىء بمعنى حجبه واخفائه ، كما يوحى به حرف الاستعلاء . وكما دل السياق فى سورة (يس) على أن الطمس على أعينهم هو ازالة ضوئها وحجب الرؤية عنها فكما قال قبلها : (اليوم نختم على أفواههم) دالا على اعجازهم عن الكلام وافقادهم حاسة النطق ، دون محو أفواههم ، فكذلك الطمس

---

(٧٤) المفردات ١٦٤ .

(٧٥) المفردات ٣٠٧ .

على أعينهم : أراد به افقادهم القدرة على الابصار باذهاب ضوء الأعين ، يؤكد ذلك قوله تعالى « فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون » فآلة الابصار موجودة ولكن الله عطلها فلا يستطيعون الابصار بها . أما آية القمر فهي تصور مشهدا من مشاهد التعذيب لقوم لوط ، حيث مسخهم الله تعالى ، وسوى أعينهم بوجوههم ، فأزال ضوءها وصورتها ، نكالا لهم وتمثيلا بهم . « فطمسنا أعينهم فذوقوا مس سقر » وبهذا الذى قلته قال صاحب اللسان : (وفى التنزيل العزيز : « ولو نشاء لطمسنا على أعينهم » يقول : ولو نشاء لأعميناهم)(٧٦) .

ومثل ذلك مستفيض فى كتاب الله يشى به حرف الاستعلاء ، ويدل عليه ، من مثل قوله تعالى : « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا .. الكهف ١١ » وقوله « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .. البقرة ٧ » وهو فى كل ذلك لا يقصد سوى تعطيل الحواس عن الادراك .

---

(٧٦) لسان العرب ٥/٢٧٠٤ .

الفصل الثالث

من أسرار حرف الظرفية

حقيقة الظرفية ومجازها

أستهل الحديث عن هذا الحرف الذى توسع العرب فيه توسعا أكسبه مرونة هائلة ، حتى أصبح أداة طيعة فى التعبير عن العديد من المعانى المختلفة المخبوءة فى النفس ، بما قاله الامام الرضى : (و (فى) للظرفية اما تحقيقا نحو : زيد فى الدار ، أو تقديرا نحو : نظرت فى الكتاب ، وتفكر فى العلم ، وأنا فى حاجتك ، لكون الكتاب والعلم والحاجة شاغلة للنظر والتفكر والمتكلم ، مشتملة عليها اشتمال الظرف على المظروف ، فكأنها محيطة بها من جوانبها ، وكذا قوله عليه الصلاة والسلام :(فى النفس المؤمنة مائة من الابل) أى فى قتلها ، فالسبب الذى هو القتل متضمن للدية تضمن الظرف للمظروف ، وهذه هى التى يقال انها للسببية) (١) .

رحم الله الرضى . أدلى فأروى ، ورمى فأصاب ، حيث رد كل ما قيل عن تناوب هذا الحرف مع غيره ، وأرجعه الى معنى الظرفية فى صورتيها الحقيقية والمجازية .

ولعلك حين تقارن بين سعيت لحاجتك ، وسعيت فى حاجتك ، يلوح لك الفرق واضحا كما أشار اليه الرضى . فالأول أظهر مجرد الاهتمام بالسعى لانجاز هذه الحاجة ، والثانى تفرغ لها تفرغا كاملا ، وطرح كل ما سواها ، وانشغل بها انشغالا ملك عليه فكره ووجدانه ، فهو يعيش فيها ، ويتحرك من خلالها ، وهو ما تجده فى قول ثعلبة بن صعير :

هل عند عمرة من بنات مسافر ... فى حاجة متروح أو باكر

---

(١) شرح الكافية ٣٠٤/٢ .

فحاجته التى سافر من أجلها هى التى شغلته عن أهله وأحبائه وتحمل فى سبيلها عناء السفر ومشاقه ، وهو غارق فى هذه الحاجة بفكره ووجدانه ، كما هو فيها بحركته وتقلباته .

وقوله عليه السلام : (فى النفس المؤمنة مائة من الابل) دل حرف الظرفية فيه على تعظيم النفس المؤمنة وحرمتها ، وتفظيع الاقدام على قتلها ، حتى ان هذه الدية العظيمة ، تتوارى فيها ، ويحتويها اثم القتل ويشتملها ، ولعل هذا هو الذى جعله عليه السلام لا يصرح بالقتل ، لتظل النفس بجلالها ، تشيع من حولها هالات التعظيم ، منذرة متوعدة .

وحرف الظرفية فى حديث الرسول الذى مؤداه فى قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب .. البقرة ١٧٩ » وهو فى الآية وجه من وجوه الاعجاز البلاغى . ذلك أن الله أراد أن يعظم من شأن القصاص فى بيئة تستهين بالأنفس وتبنى أمجادها وفخارها على كثرة ما تزهق من أرواح ، والقصاص رادع يمنع من الاقدام على القتل ، فهو سبب من أسباب الحياة ، وفى دخول حرف الظرفية ما يجعله سياجا للحياة وحصنا يحميها ويصونها ، ويشتملها اشتمال الوعاء للموعى به ، ولا يضير بعد هذا أن يكون ذلك مجازا بالاستعارة يشبه فيه القصاص بالظرف ، والحياة بالمظروف ، ما دمنا قد أدركنا أسرار هذا التجوز ومراميه .

وعلى هذا جاء قوله تعالى على لسان الملأ من قوم نوح فى خطاب نبيهم : « انا لنراك فى ضلال مبين .. الأعراف ٦٠ » مبالغة فى كثرة ضلاله ، وقصدا الى تمكنه فيه ، واغراقه فى الالتصاق به ، وجاء جوابه لهم بالباء عدولا عن حرف الوعاء ، مبالغة فى نفى اقترابه من الضلال وتلبسه به « قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين .. .. الأعراف ٦١ » ولم يقل : لست فى ضلالة ، لأنه حينئذ يكون نفيا

لكثرة الضلال والاغراق فيه ، لا نفيا لتلبسه به ، وهو ما أكده بافراد الضلالة • واطرادا لهذا الغرض ودليلا على القصد اليه جاء خطاب الملأ من قوم هود لنبيهم : « انا لنراك فى سفاهة •• الأعراف ٦٦» وجاء رده عليهم : « قال يا قوم ليس بى سفاهة •• الأعراف ٦٧ » وهذا من دقائق لسان العرب وأسرار الاعجاز فى الكتاب العزيز •

والى هذه النكتة من أسرار التجوز بحرف الظرفية أشار المعز بن عبد السلام : (أن يجعل المعنى محلا للجرم وهو مجاز تشبيه أيضا ، يتجوز به عن كثرة ما جعل ظرفا مجازيا ، لما كان الحاوى أعظم من المحوى شبه به ما توالى أو كثر من المعانى ، وله أمثلة ، أحدها قوله : انا لنراك فى ضلال — الثانى قوله : انا لنراك فى سفاهة) (٢) •

ولا تعارض بين هذه النكتة وبين ما صرح به الزمخشرى ، من قوله (وجعلت السفاهة ظرفا على طريق المجاز ، أراد أنه متمكن فيها غير منفك عنها)(٣) • لأن الايماء بالكثرة ، والدلالة على التمكن ، كلاهما مما يشى به حرف الوعاء • ولا يخفى عليك أن كلام الزمخشرى فى هذا الموضع ذاهب الى التجوز فى مدخول الحرف بخلاف العز فانه يذهب الى التجوز فى الحرف ذاته • وهو ما يفيده كلام الكشاف فى موضع آخر(٤)•

ومن بليغ ما جاء حرف الوعاء فيه دالا على التمكن والرسوخ وعده بعض المفسرين حرفا زائدا ، قوله تعالى فى دعاء المؤمن : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه

---

(٢) الاشارة الى الايجاز ٢٢ •
(٣) الكشاف ٢/٨٧ •
(٤) انظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ٤١٩ — ٤٢٠ •

وأصلح لى فى ذريتى ٠٠ الأحقاف ١٥ » حيث ان « أصلح » فعل يتعدى بنفسه ، كما فى قوله تعالى : « وأصلحنا له زوجه ٠٠ الأنبيـاء ٩٠ » وزيادة حرف الظرفية للدلالة على رجائه فى أن يكون الاصلاح عميق الأثر فى نفوس الأبناء ، متمكنا منهم ، يجرى فى عروقهم ودمـائهم ، وليس صـلاح الظواهر ، الذى لا يتجـاوز الألسـنة ، ولا ينفذ الى الأعماق ٠

أترى المفسرين حين جعلوه من تنزيـل الفعـل الـلازم منزلة المتعدى (٥) وألحقوه بقول الشاعر :

يجرح فى عراقيبها نصلى

نفذوا الى أعماق الحرف ؟ ألا ترى فارقا بين أن تقول : يجرح عراقيبهانصلى وبين قول الشاعر يجرح فى عراقيبها نصلى ؟

أليس الشاعر يريد نفاذ نصله الى أعماقها والاجهاز عليها ؟ وهو ما لا يؤديه تعدى الفعل بنفسه ، اذ قد يكون الجرح سطحيا لا غائرا مؤثرا ؟

وقريب منه قوله تعالى مصورا استقبال سارة نبأ تبشيرها باسحاق « فأقبلت امرأته فى صرة فصـكت وجهها وقالت عجوز عقيم ٠٠ الذاريات ٢٩ » حيث كان لهول الخبر ومفاجأته أثر كبير ، أفقدها اتزانها ، وأذهلها عن نفسها ، فأطلقت صيحتها المدوية ، تعبيرا عن دهشتها مما سمعت ، دون أن تبالى بما فى بيتهامنضيوف غرباء عنها،والمبالغة فى شدة الصيحة وعظمها لا يبرزها الا أن تجعل ظرفا يغطى على سارة ويحتويها ، حتى

---

(٥) انظر الكشاف ٣/٥٢١ ، وروح المعانى ٢٦/١٩ ٠

لكأن السامع انشغل بالصيحة عن الصائح ، وهو ما يعبر بدقة عن شدة وقع الخبر على قلبها .

ولنقرأ بعد ذلك ما قاله الألوسي لنرى الى أى حد كشف عن بلاغة النظم الكريم : (والجار والمجرور فى موضع الحال ، أو المفعول به ان فسر (أقبلت) بأخذت . قيل : ان (فى) زائدة ، كما فى قوله : يجرح فى عراقيبها نصلى ، والتقدير : أخذت صيحة) (٦) .

ومن بليغ مواقع (فى) ما سماه النحاة بالمقايسة ، على أنها أحد المعانى التى تفارق فيها الظرفية ، وهى الداخلة بين مفضول سابق وفاضل لاحق (٧) ومثلوا لها بقوله تعالى : « فمامتاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل .. التوبة ٣٨ » والمعنى على هذا ما متاع الحياة الدنيا بالقياس الى الآخرة الا قليل .

وأرى — والله أعلم — أن حرف الوعاء على أصله ، والظرفية فيه هامسة بعظم الآخرة ونعيمها ، وتفاهة الدنيا ومتاعها ، وهو اذا ما قورن بنعيم الآخرة ظهرت ضآلته وتلاشى فيه ، وصار قطرة فى بحر ، أو ضوء ذبالة خافت ، جئت به فى أوج النهار ، ووضعته فى ضوء الشمس ، فاحتوته وتلاشى فيها . وذلك أوقع فى الكشف عن ضآلة الدنيا ، والتقليل من متاعها ونعيمها من جعل « فى » للمقايسة .

* * *

فى وحرف الاستعلاء

ان أكثر الحروف قربا من (فى) وتداخلا معها هو حرف الاستعلاء مما جعل الكوفيين وكثيرا من المفسرين يذهبون الى جعل (فى) بمعنى (على) فى كثير من آيات الذكر الحكيم ، وان اتجه آخرون الى جعل

---

(٦) روح المعانى ١٣/٢٧ .

(٧) انظر الاتقان ١٦٧/١ .

(فى) بمعنى (على) فى كثير من آيات الذكر الحكيم ، وان اتجه آخرون الى جعل ذلك من باب استعارة حرف الظرفية لحرف الاستعلاء .

ومن المواطن الشهيرة التى خاض فيها النحاة والمفسرون وأرباب البيان قوله تعالى على لسان فرعون مهددا السحرة ابان اعلانهم الايمان بموسى: « انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل .. طه ٧١ » .

قال أبو القاسم الزجاجى : ((فى) معناها الوعاء والظرفية . وقد تأتى مكان (على) قال تعالى « ولأصـــلبنكم فى جذوع النخل » أى : على)(٨) .

وقال الفراء : (يصلح (على) فى موضـــع (فى) لأنه يرفع فى الخشبة فى طولها ، فصلحت (فى) وصلحت (على) ، لأنه يرفعها فيها فيصير عليها) (٩) .

ومقتضى كلام الفراء أن لكل من الظرفية والاســـتعلاء وجهـــا ، فالجذع يصلح مكانا للصلب كما يصلح مكانا للاستعلاء عليه ، ولكن لماذا أوثر حرف الظرفية على حرف الاستعلاء ؟ هذا ما لا جواب له عنده .

أما الزمخشرى فانه جعل ذلك من التجوز بحرف الظرفية عن حرف الاستعلاء (شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشىء الموعى فى وعائه ، فكذلك قيل فى جذوع النخل) (١٠) .

الدلالة على التمكن ذلك هو الغرض من التجوز فى رأى الزمخشرى والبيانيين الذين اقتفوا أثره ، وأفرغوا كل جهدهم فى استنطاق عبارة

---

(٨) كتاب حروف المعانى ١٢ .
(٩) معانى القرآن ٢/٢٨٦ .
(١٠) الكشاف ٢/٥٤٦ .

الزمخشرى لمعرفة ما اذا كان يريدها استعارة فى الحرف أو فى مدخوله ، تبعية أو مكنية •

ولا ننكر ان التمكن أحد الدلالات التى يعيشها حرف الوعاء فيما يوصل به ، لكن أن يجعل التمكن سببا من أسباب استعارة حرف الظرفية هنا ، ثم يجعل نفس الغرض من التمكن سببا فى استعارة حرف الاستعلاء فى قوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم •• البقرة ٥ » هو من قبيل الخلط بين دلالات الحروف وأسرار التجوز بها وهذا ما قاله الزمخشرى هناك : (ومعنى الاستعلاء فى قوله « على هدى » مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه) (١١) •

فاذا كانت على تدل على التمكن وتستعار له ، فلم استعير حرف الظرفية للدلالة على ذات الغرض فى الآية ؟

والذى يبدو لى — والله أعلم — أن للظرفية فى النظم الكريم ظلالا وايحاءات يعجز حرف الاستعلاء عن الوفاء بها ، ففرعون يعبر بقوله هذا عن غيظ بلغ مداه ، وثورة غاضبة عاصفة ، وهو يرى عرشه يهتز تحت قدميه بعد هزيمة من ظنهم سيقهرون خصمه ، ويثبتون دعـــائم ملكه ، وتحولهم من جند يدافعون عنه الى عدو يحاربه ويناصر خصمه ، فأطلق هذه الكلمات منذرا بأقصى العقوبة ، تنكيلا بالسحرة وتمثيلا بهم ، معلنا أنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وهو القتل صبرا ثم يمثل بهم اعلاما لغيرهم ، وتهديدا لمن تسول له نفسه أن يحذو حذوهم •

وتعبيرا عن شدة الأخذ وعدم الرحمة بالمصلوبين جاء حرف الوعاء ، دالا على أنهم سيشدون الى الجذع شدا بالغ القوة والقسوة ، حتى ليكاد المصلوب يواريه الجذع ويشتمله وذلك يتناغم مع صيغة التضعيف فى

---

(١١) الكشاف ١/١٤٢ •

الفعل « أصلب » ، ويجسد لك حالة الغيظ التى تموج بها نفس فرعون ، كما يشف لك تغلت أعصابه ، وما أثاره الموقف فى نفسه من هلع ، وكأنه يخشى تفلت هذا الجسد الميت ، وروغانه من الجذع المصلوب فيه .

ومن دقيق ما جاء حرف الظرفية فيه مستجيبا لدواعى النظم وأغراضه ، قوله تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا .. الاسراء ٣٧ » حيث المخاطب مغرور منتفخ الأوداج ، يضرب الأرض بقدميه اختيالا وكبرا ، لذا لم يكتف القرآن بنهيه عن المشى اختيالا وتكبرا ، ومعلوم أن المشى المعتاد لا يكون على غير الأرض ، فعدى المشى اليها بفى ، اشعارا بشدة ضربه فى الأرض ومبالغته فى وطئها ، شأن من يظن أنه قادر على خرقها ، وذلك يجسد لك الى أى حد بلغ اغتراره بقوته ، وتمكنه من دنياه .

ثم قارن هذه الآية بقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما .. الفرقان ٦٣ » وكيف دل حرف الاستعلاء على تواضع المؤمنين ، واقلاعهم عن الدنيا ، وزهدهم فيها ، وكيف يمشون برفق على هذه الأرض حتى لا تكاد تلمسها أقدامهم ، وكأنهم يمشون بين قوم نيام ، يخشون ايقاظهم ، واقرأ بعد ذلك رائع القول ودقيقه ، فرقا بين فى وعلى من هذين الموضعين فى ما قاله الزركشى : (وقال : «عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا» وقال : « ولا تمش فى الأرض مرحا » وما قال على الأرض ، وذلك لما وصف العباد بين أنهم لم يوطنوا أنفسهم فى الدنيا ، وانما هم عليها مستوفزون ، ولما أرشده ونهاه عن فعل التبختر قال:ولا تمش فى الأرض مرحا ، بل امش عليها هونا) (١٢) .

---

(١٢) البرهان ٤/١٧٦ .

فاذا جئنا الى تعدية المشى بفى من قوله تعالى : « فامشـوا فى مناكبها وكلوا من رزقه .. الملك ١٥ » رأينا كيف يعين حرف الظرفية على عمق الحركة وقوتها ، كما هى مطلوبة من المسـلم سـعيا فى الأرض ، وعمارة للدنيا ، وهو ما يستلزم الضرب فى أعماق الأرض بحثـا عمـا أجراه الله تعالى للانسان على سطحها ، وما استودعه باطنها ، و (على) فى موقعها تشعر بالضعف ، والعيش على هامش الحيـاة ، وليس بمثله تبنى الحضارات ، ويتحقق استخلاف الله للانسان فى أرضه .

والى قريب منه يومىء حرف الوعاء فى قوله تعالى : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم .. طه ١٢٧ » وهو ما رأى ابن الجوزى أنه بمعنى (على) (١٣) وليس كما قال . لأن (على) فى هذا الموضع تشعر بالمرور السريع على هذه الديار ، مما لا يعين على التأمل وعمق النظر كمايفيده حرف الظرفية الدال على أنهم متمكنون منها ، يتقلبون فيها ، وهو أدعى للعظة والتذكر .

وحرف الظرفية فى قوله تعالى : « أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى النـاس .. الأنعـام ١٢٢ » يدل على عمق تأثير المؤمنين فيمن حولهم وغزو قلوبهم . وتجاوزهم بهدى الله تعالى أسماع الناس وظواهرهم ، الى بواطنهم وأعماق أفئدتهم . وهو ما يلمح اليه قول أبى حيان : (وقال « فى الناس » اشارة الى تنويره على نفسه وعلى غيره من النـاس ، فـذكر أن منفعـة المؤمن ليسـت مقتصرة عـلى نفسه) (١٤) .

وقد كثر فى القرآن تعدية الصـبر بعلى اشـارة الى التغلب على

---

(١٣) انظر منتخب قرة العيون النواظر ١٩١ .
(١٤) البحر المحيط ٤/٢١٤ .

الشدائد ، والتعالى على المحن ومصائب الدنيا ، كما فى قوله تعالى : « فصبروا على ما كذبوا .. الأنعام ٣٤ » وقوله : « ولنصبرن على ما آذيتمونا .. ابراهيم ١٢ » وقوله : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا .. المزمل ١٠» وقوله : « والصابرين على ما أصابهم .. .. الحج ٣٥ » وجاء الصبر متعديا بفى مرة واحدة فى القرآن الكريم ، هى قوله تعالى: «ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ... .. البقرة ١٧٧ » .

وأنت ترى كيف غويرت طريقة النظم ، فانتصب « الصابرين » على المدح ، وهو مقام يقتضى الكمال فى هذه الصفة ، ويدل على أنهم بلغوا الغاية منها .

والمبالغة فى الصبر تقتضى أن يكون الصابر محاطا بالمصائب ، محاصرا بالمحن والشدائد من كل جانب ، سواء منها ما كان فى نفسه أو فى ماله أو فى أهله ، وهو ما يجسده حرف الظرفية ، دالا على أنهم اتصفوا بالصبر حين كانت تحيط بهم البأساء والضراء وتشملهم اشتمال الوعاء للموعى فيه .

وهذا مسلك تغياه من تمكن من لغة هذه الأمة وفقه أسرارها كما قال ربيعة بن مقروم :

شهدت طرادها فصبرت فيها　　　اذا ما هلل النكس اليراع

فالصبر فى الحرب شىء والصبر عليها شىء آخر كما لا يخفى ، وذلك ما كشف عنه فى دقة ووضوح صاحب روح المعانى : (وعدى

الصبر الى الأولين بغى ، لأنه لا يعد الانسان من الممدوحين اذا صبر على شىء من ذلك ، الا اذا صار الفقر والمرض كالظرف له ، وأما اذا أصاباه وقتا ما وصبر فليس فيه مدح كثير ، اذ أكثر الناس كذلك)(١٥)

* * *

فى حرف الاختصاص

وقف كثير من أئمـة اللغة وأرباب البيان أمام روعة النظم ودقة استخدام الحروف فى مواضعها ، وتتابعت على ألسـنتهم وأقـلامهم أسرارها ونكاتها فى قوله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين فى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله .. التوبة ٦٠ » .

قال ابن الأثير : (انما عدل عن اللام الى (فى) فى الثلاثة الأخيرة ، للايذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام لأن (فى) للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، كما يوضع الشىء فى الوعاء ، وأن يجعلوا مظنة لها ، وذلك لما فى فك الرقاب والغرم من التخلص)(١٦) .

ونقل السيوطى عن الفارسى وجهـا آخر فى العدول من اللام الى حرف الوعاء : (وقال الفارسى : انما قال « وفى الرقاب » ولم يقل : وللرقاب ، ليدل على أن العبد لا يملك) (١٧) .

وذلك كله جيد رائع ، أضيف اليه أن حرف الظرفية فيما دخل عليه من مواضعه ، يحمل المتصدق أو القائم على الصدقات مسئولية خاصة فى

---

(١٥) روح المعانى ٤٧/٢ .
(١٦) المثل السائر ٢٤١/٢ .
(١٧) الاتقان ١٤٥/١ .

تعهد صدقته والقيام عليها ، حتى يتأكد من فك الرقبة ، وتخليص الغارم من غرمه ، لا مجرد دفعهما لهذا الغرض ، كما هو الشـــان فى الفقراء والمساكين والعاملين عليها ، لأن العبد والغارم فى موقف الضعف ، وهما مظنة استغلالهما ، فوجب على المتصدق ، أو القائم على الصدقات أن يتأكد من وضعها فى محلها الذى لا يتهدده الضياع ، وكذلك الشأن حين توضع فى سبيل الله حيث يجب تحرى المواطن التى هى أكثر نفعا لخدمة قضايا الاسلام •

تلك ايحاءات حرف الظرفية ، وما تحتمه من وضع الصدقة موضعا أمكن وأنفع •

وفى عدول القرآن من اللام الى حرف الوعاء ، فى قوله تعـــالى : « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حســـنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون •• النحل ٤١ » دليل على أن الغرض ليس هو بيان خلوص الهجرة لله تعـــالى ، وانمـــا هو الايمـــاء الى أن المهاجرين لاذوا الى حمى الله تعالى فأظلهم بعنايته وأحاطهم برعايته ، فهم فى ظله هاجروا ، وهم فى كنف من حمايته وجدوا الأمن الذى لم يجدوه فى أوطانهم ، فمكنهم الله فى مهجرهم ، وآواهم فى غربتهم • ألا ترى الى قوله « لنبوئنهم فى الدنيا حسنة » ؟ • ولعل الوجه الأول مما قاله الالوسى تفسيرا لفى هو الأقرب الى بلاغة النظم الكريم • قال : (« والذين هاجروا فى الله » أى فى حقه • ففى على ظاهرها • ففيهاشارة الى أنها هجرة متمكنة تمكن الظرف فى مظروفه ، فهى ظرفية مجازية • أو لأجل رضاه ـــ ففى للتعليل) (١٨) •

ومثله قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله

---

(١٨) روح المعانى ١٤٤/٤ •

لمع المحسنين .. العنكبوت ٦٩ » . وهو ما عده البعض من أداء فى لمعنى اللام (١٩) . على أن معناه : والذين جاهدوا لنا وأحسب ـ والله أعلم ـ أن القرآن يقصد بحرف الوعاء الاشارة الى أن هؤلاء المجاهدين باخلاصهم أنفسهم لله تعالى ، ووضعهم أرواحهم فى يده ، هم فى حصن من حماية الله تعالى ، يغشاهم برحمته ، ويحيطهم بأمنه وحوله ، وينشر عليهم سياجا من معيته ، كما يشير اليه تذييل الآية « وان الله لمع المحسنين » وهذا النوع من التجوز هو ما كشف عنه الامام الرضى فى قوله : (وقولهم أنت أخى فى الله ، أى فى رضاء الله ، أى رضاه مشتمل على مؤاخاتنا ، لا تخرج منه الى الأعراض الدنيوية ، وكذا قولهم : الحب فى الله والبغض فى الله) (٢٠) .

وهذه الظرفية التى قيل انها للسببية فى قوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم فيه عذاب عظيم .. الأنفال ٦٨ » هى من التجوز فى الظرف لتصوير شدة غضب الله تعالى ، حين آثر المسلمون عرض الدنيا على الآخرة ، واختاروا الفداء على القتل ، ولولا سبق الكتاب بأن لا يعذب المسلمين ورسول الله فيهم لحل بهم العذاب وهم غارقون فى أخذ الفداء ، منهمكون فيه ، ولعجل لهم العذاب قبل أن يستمتعوا بآثار ما أخذوه .

وهو نفس الغرض فى قوله تعالى عن حديث الافك مصورا غضبه على من خاض فى عرض أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وسبق رحمته عذابه « ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم .. النور ١٤ » فقد كان غضب الله عظيما على

---

(١٩) انظر منتخب قرة العيون النواظر ١٩٢ .
(٢٠) شرح الكافية ٢/٣٠٤ .

المفترين ، ولولا سبق رحمته وفضله لأنزل عليهم عذابه وهم يخوضون فيه ، ولأخذهم وألسنتهم لا تزال تلعق افكهم •

ولعل هذه النكتة ذاتها يمكن أن نلمحها فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى •• البقرة ١٧٨ » حيث تدعو الظرفية الى تعجيل القصاص وعدم التباطؤ فيه ، حتى لا يكون التأخر سببا فى دفع أهل القتيل الى الثأر والانتقام ، ويضيع الغرض من حكمة مشروعية القصاص ، وكأنه يهيب بهم أن يدفنوا القاتل فى جسد القتيل قبل أن يواروه التراب ، مع الاشارة الى أن القتل الأول أبشع وأفظع ، لأنه قتل ظلما ، والثانى قتل عدلا ، لذلك كان الأول ظرفا يحتوى الثانى ويشـــتمله •

وفى ذلك تسفيه لهؤلاء الذين يرتدون مسوح الرحمة ، ويتهمون الاسلام بالقسوة فى تنفيذ عقوبة القتل قصاصا ، وهى رحمة عوراء ترى القاتل فتشفق عليه ، وتتعامى عن القتيل وتتجاهله ، وحسب النـــاس مغالطة أن يسموا القصاص اعداما ، بعد أن سماه الله حياة •

وهذا يغنينا فى الكشف عن بلاغة القرآن عن الحذف والتقدير الذى قد يفيد فى بيان المعنى ولا يكشف عن أسرار الذكر الحكيم يقول الفخر الرازى : (وأما قوله « فى القتلى » أى بسبب قتل القتلى ، لأن كلمة (فى) قد تستعمل للسببية) (٢١) •

وقال أبو حيان : (« وفى القتلى » يظهر أنها للسبب ، كهى فى دخلت امرأة النار فى هرة ، أى بسبب القتلى ، وبسبب هرة) (٢٢) •

وهذا الحديث الذى جعل عنوانا لدلالة (فى) على السببية ، انما

---

(٢١) التفسير الكبير ٥/٥٢ •

(٢٢) النهر الماد من البحر ٢/٨ •

هو تجوز بالظرفية ، تصويرا لبشاعة التعذيب ، وتهويلا من اثم مرتكبه ، حتى ولو كان ذلك فى الحيوانات الصغيرة التى لا شأن لها فى نظر الناس، فما بالك به اذا وقع على الانسان ، كما يحدث فى عصور الاستبداد والقمع ، وحسبك أن الهرة الصغيرة تتسع وتكبر بكبر الاثم الذى اقترفته هذه المرأة ، حتى تستوعب قاتلها ، وتحمله فى جوفها الى حيث تلقيه فى نار جهنم . والقول بأن معناه : دخلت امرأة النار بسبب هرة كشف للمعنى ، لا بيان لجمال الصورة وما أشاعه حرف الظرفية فيها .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى « ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم .. النحل ٢٧ » فقد جعل بعض المفسرين (فى) دالة على السببية ولا ضرورة اليه ، اذ أن المشاقة هنا كما فسرها أبو عبيدة (٢٣) هى المحاربة ، وعليه فان حرف الظرفية يوحى بأن المشركين فى مدافعتهم عن آلهتهم كانوا يعتقدون حمايتها لهم ، فهى تمدهم بعونها ، وتحوطهم برعايتها ، وتصنع حولهم سياجا من قوتها .

فأين هم الآن وأين الحماية والمنعة التى كانوا يتلمسونها فيهم ؟

* * *

فى وحرف الانتهاء

تقع (فى) أحيانا مواقع من النظم يظهر لأول وهلة أنها مواقع الى فاذا تدبرتها وأعملت الفكر فى أهداف النظم ومراميه ، استبان لك أن حرف الوعاء وحده هو القادر على الوفاء بها .

من ذلك قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .. طه ٥٣ » لا شك أنك واجد لحرف الظرفية ظلالا ، لاتجدها

(٢٣) انظر مجا القرآن ٣٥٩/١ .

لحرف الانتهاء،من الدلالة على أن القبور هى مقر الانسان الذى ستطول فيه اقامته ، والذى يجب أن يعمره ويعمل من أجله ، فما هو فى الدنيا الا عابر سبيل ، وما يقضيه على ظهرها بالقياس الى ما يقضيه فى باطنها جد قصير • تلك الظلال التى نشرتها (فى) هى التى أوثرت من أجلها فى موضعها • وهذا ما كشف عنه الآلوسى : (وايثار كلمة (فى) على كلمة (الى) للدلالة على الاستقرار المديد فيها) (٢٤) •

وقد كثر تعدية فعل العودة فى القرآن الكريم بحرف الوعاء ، ولم يأت معدا بحرف الانتهاء ، وفى كل مرة يتعدى فيها بفى يلمح الى مثل هذا الغرض الذى أشار اليه فى روح المعانى •

ففى سورة الأعراف : ورد ثلاث مرات فى آيتين من خلال حوار دار بين شعيب وقومه : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله •• الأعراف ٨٨ ــ ٨٩ » •

قوم شعيب لا يكتفون بعودة شعيب والمؤمنين به الى ملتهم ، لأن هذا لا يعنى ثبوتهم عليها وتمكنهم فيها • وذلك ما يفهم لو عدى الفعل بالى • أما تعديته بحرف الظرفية فقد كشف عن رغبتهم فى استقراره ومن معه فى دينهم ، وتمكنهم فيه تمكنا يضمنون معه عدم الخروج منه ، لذا قالوا « أو لتعودن فى ملتنا » • وكان الظاهر فى جواب شعيب ورفضه العودة الى دينهم أن يقول « ان عدنا الى ملتكم » مبالغة فى نفى مجرد العودة ، ولكنه جاء بفى مجاراة لهم فى أسلوبهم ، ومشاكلة له ، على حد قول المرسلين « ان نحن الا بشر مثلكم •• ابراهيم ١١ »

---

(٢٤) روح المعانى ٢٠٨/١٦ •

مؤكدين كلامهم مشاكلة لقول الكافرين : « ان أنتم الا بشر مثلنا ... .. ابراهيم ١٠ » مع أن المخاطبين غير منكرين ذلك .

ومثل ذلك ما جاء فى قصة أهل الكهف : « انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم .. الكهف ٢٠ » مصورا خوف المؤمن من بطش الكافرين وما ينتظر الفتية من أحد مصيرين ، اما الرجم واما العودة فى دين قومهم عودة ثابتة متمكنة لا خروج منها . فكان لحـرف الوعاء أثره فى الكشف عن فزع المؤمنين من الاسـتقرار فى دين باطل ينتهى بهم الى عذاب الله .

أما قوله تعالى : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » فذلك ما لا سبيل الى حرف الانتهاء فيه ، لأنهم لم يخرجوا من النار ولم يفارقوها حتى يعادوا اليها ، وانما هم فيها ، يحاولون الخروج ويسـعون له ، ويتركون استدراجا لهم ، حتى اذا شـارفوه أعيدوا فى نفس المكان من وسط جهنم أو مقرها ، وفى ذلك مـا فيه من الدلالة على شدة العذاب وتمكنه منهم ، واحاطته بهم . يقول الألوسى : (« أعيدوا فيها » أى فى قعرها ، بأن ردوا من أعاليها الى أسافلها ، من غير أن يخرجوا منها ، اذ لا خروج لهم ، كما هو المشهور من حالهم ، واستدل له بقوله تعالى « وما هم بخارجين » وفى اختيار فيها دون اليها اشعار بذلك) (٢٥) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : « الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قـالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها .. النساء ٩٧ » .

---

(٢٥) روح المعانى ١٣٥/١٧ .

وهو ما قيل فيه ان (فى) بمعنى (الى) (٢٦) • وهذا صحيح لو أنهم كانوا خارج أرض الله ، فيطالبون حينئذ بالهجرة اليها • أما وأنهم فى هذه الأرض ، فان النعى عليهم ولومهم ، لأنهم لم يضربوا فى أعماق الأرض بحثا عن مكان آخر يأمنون فيه على دينهم،ويمارسون فيه شعائر عقيدتهم • و (فى) توحى بالابعاد فى الأرض فرارا من الايذاء ، وهروبا من فتنة الكافرين ، ولو جىء بدلا منه بحرف الانتهاء ، لأشعر بمجرد الوصول الى أرض أخرى والانتهاء الى طرف منها ، مما يجعلهم عرضة للوقوع فى يد عدوهم المتعقب لهم •

ومنه قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه •• الاسراء ٩٠ ــ ٩٣ »•

تعدية « ترقى » الى السماء بفى غير معهودة ، مما حدا ببعض المفسرين الى القول بنيابتها عن (الى) أو الى تقدير مضاف قبل السماء قال الفراء : (وقوله (أو ترقى فى السماء) : المعنى الى السماء ، غير أن جوازه أنهم قالوا : أو نضع سلما فترقى عليه الى السماء فذهبت (فى) الى السلم)(٢٧) •

والمتأمل فى النص القرآنى يرى موقفا من التحدى وقفه المشركون ، لا يكشف عنه ويبرز أهدافه غير الحرف الذى آثره القرآن • ذلك أنه لو قال:أو ترقى الى السماء ، لما عبر عن مرادهم باختراق السماء والتغلغل فيها حتى يصل الى عرش ربه ويأتيهم بكتاب من عنده ، وهم يشاهدون

---

(٢٦) انظر منتخب قرة العيون النواظر ١٩١ وكتاب معانى الحروف للزجاجى ٨٤ •

(٢٧) معانى القرآن ٢/١٣١ •

رقيه ويرقبون عودته والكتاب فى يده « ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » وليس مجرد الانتهـاء الى السـماء ، وفى ذلك مبالغة فى رفضهم الايمان به ، وتصديقه فيما جاء به .

وقد كشف الرازى عن مثل هذا الغرض فى قوله تعالى : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها .. سـبأ ٢ » .

فقال : (قال « وما يعرج فيها » ولم يقل وما يعرج اليها ، اشارة الى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية ، وهذا لأن كلمة الى للغاية ، فلو قال : وما يعرج اليها لفهم الوقوف عند السموات ، فقال : « وما يعرج فيها » ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ، ولهذا قال فى الكلم الطيب «اليه يصعد الكلم الطيب » لأن الله هو المنتهى ، ولا مرتبة فوق الوصول اليه ، وأما السماء فهى دنيا) (٢٨) .

وفى قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها .. البقرة ١٤٤ » .

أظهر حرف الظرفية شدة اغراق الرسول عليه السلام فى الدعاء ، وانصرافه الى ربه بالكلية ، مقبلا عليه متقربا منه ، ملحا عليه فى الرجاء ، وكأنه فارق عوالم الأرض ، واستوطن بفكره السماء ، منشغلا عن دنياه ، متفرغا لسؤال ربه أن يحقق له رغبته فى التوجه الى بيته . هذا مايشيعه حرف الظرفية بعيـدا عن تأول حذف مضـاف (وتصرف نظرك فى جهة السماء) (٢٩) أو القول بأنها بمعنى الى (٣٠) ، أو أنها بمعنى نحو (٣١)

---

(٢٨) التفسير الكبير ٢٥/٢٤٠ .

(٢٩) روح المعانى ٢/٨ .

(٣٠) انظر البحر المحيط ١/٤٢٨ .

(٣١) انظر كتاب حروف المعانى للزجاجى ٨٤ .

وغير ذلك من التخريجات التى لا تستبطن أسرار الظرفية وما تلمح به فى مواقعها •

ومن قبيل ذلك فى الدلالة على استغراق الفكر والقلب ، والانشغال بالمنظور فيه انشغالا يحيط به ويشتمله ، قوله تعالى متحدثا عن ابراهيم عليه السلام « فنظر نظرة فى النجوم •• الصافات ٨٨ » وذلك جار على سبيل التجوز والاتساع فى حرف الظرفية ، ايماء الى شدة التأمل والاستغراق • يقول الرمانى كاشفا عن حقيقة (فى) وتصرفها على سبيل المجاز والاتساع (ومعناها الوعاء ، تقول من ذلك : المال فى الكيس ، واللص فى السجن ، أى اشتمل الكيس على المال ، والسجن على اللص ، وقد يتسع فيها فيجرى مجرى المثل ، وذلك نحو قولك : فلان ينظر فى العلم ، كأن العلم قد اشتمل عليه) (٣٢) •

وهذا فرق ما بين تعدى النظر بالى ، وتعديه بفى • فالأول يقصد به مجرد المشاهدة ، ومد الطرف نحو المنظور اليه ، والثانى يدل على تقليب النظر والاستغراق فى المنظور ، واعمال البصر والبصيرة ، فالأول نظر بالعين ، والثانى نظر بالقلب • يقول ابن جزرى الكلبى : (نظر له معنيان ، من النظر ومن الانتظار ، فاذا كان من الانتظار تعدى بغير حرف ، ومن نظر العين يتعدى بالى ، ومن نظر القلب يتعدى بفى) (٣٣) •

وقال الراغب : (نظرت الى كذا ، اذا مددت طرفك اليه ، رأيته أو لم تره ، ونظرت فيه ، اذا رأيته وتدبرته ، قال : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » • نظرت فى كذا : تأملته ، قال : « فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم » ، وقوله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » فذلك حث على تأمل حكمته فى خلقها) (٣٤) •

---

(٣٢) معانى الحروف ٩٦ •

(٣٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٧/١ •

(٣٤) المفردات ٤٩٧ـ ٤٩٨ •

وقد تتبعت ما جاء من النظر متعديا بفى ، فلم أجد سوى الآيتين اللتين ذكرهما الراغب ، على حين جاء متعديا بالى فى خمسة عشر موضعا وكلها تشهد على أن التعدى بفى يومىء الى الاستغراق فى المنظور ، وشدة التأمل فيه ، وانشغال الفكر والقلب به ، حتى لكأن المنظور يحتوى الناظر ويشتمله • كما فى قوله تعـالى « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء •• الأعراف ١٨٥ » وهو دعوة الى التفكير والتدبر وصولا من عظمة المخلوق الى تعظيم الخالق والايمان به ، وليس مجرد النظر والمشاهدة بالعين ، كيف وهم فى ملكوت الله وأعينهم تقع كل لحظة عليه ؟

على حين نجد المراد بالنظر المشاهدة والرؤية بالعين فيما تعدى بالى ، كقوله تعالى فى وصف المنافقين : « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت •• الأحزاب ١٩ » فهى نظرة قلقة وجلة ، لا يكاد يستقر الطرف فيها على محياه عليه السلام ، لا نظرة المتأمل الفاحص • ومثله قوله تعالى : «ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت •• محمد ٢٠ » •

ومما هو واضح جلى فى الدلالة على مجرد المشاهدة ونظر العين ، قوله تعالى حكاية عن موسى : « قال رب أرنى أنظر اليك قال لن ترانى ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى •• الأعراف ١٤٣ » حيث كانت رغبة موسى جامحة فى مشاهدة ربه والنظر اليه بعينى رأسه ، ليرى ببصره ما يعيش فيه ببصيرته وفكره • لذا تعدى النظر بالى ، وجاء أمر الله له بالنظر الى الجبل ، ليشاهد ما يحل به حين يتجلى ربه له ، فلم تكد تقع عيناه على الجبل حتى جعله الله دكا وخر موسى صعقا •

وربما يعترض على ما قلناه بمثل قوله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج •• ق ٦ » وقوله

جل شـأنه : « فانظر الى آثـار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعـد موتها .. الروم ٥٠ » .

اذ من الواضح أنه ليس المراد مجرد النظر ورؤية العين ، بل التأمل واعمال الفكر ، ونقول : ان القرآن عمد الى الاشارة بأن هذه الأشياء التى وجه نظر عباده اليهـا ظاهرة واضـحة ، لا تحتاج الى طول تأمل واعمال للفكر ، وصولا الى نتائج مسلم بها ، فالسماء فوقهم وما تتصف به من عظم البناء وما تتحلى به من نجوم تملأ أعينهم وتغمر أرضـهم بضوئها . والمطر الذى يسوقه الله الى الأرض الميتة ليحييها بما ينبت فيها من زروع وثمار ، أمور ظاهرة جلية ، ليست بحاجة الى انعام النظر فيها، وشغل القلب لادراكها . بخلاف قوله « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » حيث الدعوة الى البحث فى أعماق الكون وما خلق الله فيه ، من أمور ظاهرة تدركها الأعين ، وخفايا لا تدرك بالبصر وانما يتوصل اليها باعمال البصيرة .

ومن بديع النظم الحكيم فى ايثار حرف الظرفية قوله تعالى : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنـا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم .. المائدة ٤١ » .

نقل المرحوم رشيد رضا عن الأستاذ محمد عبده : (المسارعة فى الكفر ، هى المسارعة فى نصرته ، والاهتمام بشئونه،والايجاب فى مقاومة المؤمنين ، وما كل يسارع فى الكفر ، فان من الكافرين القاعد الذى لا يتحرك لنصرة كفره ، ولا لمقاومة المخالف له فيه ، والمسارعون المعنيون هنا هم أولئك النفر من المشركين ، كأبى سفيان ومن كان معه من صناديد قريش .

وذهب بعض المفسرين الى أن المراد بهم المنـافقون ، ورووا فى ذلك

روايات فى سبب النزول ، وانما يأتى هذا لو قال : يسارعون الى الكفر) (٣٥) ٠

وظاهر الآية ناطق بأنها تتحدث عن المنافقين ، بدليل قوله : « من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » مما لا يحتاج الى روايات فى أسباب النزول ، وصناديد المشركين لم يؤمنوا بأفواههم ٠ وهؤلاء المنافقون هم فى رحاب الكفر لم يخرجوا عنه ، لذلك جاءت « فى » معبرة على أنهم يهوون فى أعماقه ، وينغمسون فى ظلماته،ويتخبطون فى مجاليه، ولو أنه قال : يسارعون الى الكفر ، لأوهم أنهم آمنوا ثم تحولوا الى الكفر ٠ كيف والآية مواساة لرسوله ، وتسلية له بأنهم لم يكونوا مؤمنين قط ، فلا داعى للحزن عليهم والحسرة على ترديهم فى مهاوى الكفر ٠

انغماسهم فى الكفر وتمكنهم فيه وتخبطهم فى ظلماته ٠ ذلك ما يوحى به حرف الوعاء،والقول بالتضمين الذى ذهب اليه بعض المفسرين يطفىء اشعاعات هذا الحرف ٠ قال الألوسى : (ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بفى دون الى الشائع تعديتها بها ، كما فى « سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة » وغيره ، وأوثر ذلك قيل للاشعار باستقرارهم فى الكفر ودوام ملابستهم له فى مبدأ المسارعة ومنتهاها ، كما فى قوله سبحانه : « يسارعون فى الخيرات » فى حق المؤمنين ، وأما ايثار كلمة (الى) فى آيتها ، فلأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها) (٣٦) ٠

وقد أجاد الألوسى فى الكشف عن سر العدول الى حرف الظرفية فى الآية وايثار الى ما فى موضعها من قوله « وسارعوا الى مغفرة من ربكم» بما لا مزيد عليه ، لولا أنه جمع بين تضمين الفعل ، والتجوز فى الحرف ٠

---

(٣٥) تفسير القرآن الحكيم ٢٤٧/٤ ـ ٢٤٨ ٠

(٣٦) روح المعانى ١٣٢/٤ ٠

ومثل تلك الاجادة ما قاله فى قوله تعالى وقد نهى عن موالاة اليهود والنصارى : « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ... المائدة ٥٢ » قال الألوسى : (قيل «فيهم» مبالغة فى بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها ، وايثار كلمة (فى) على كلمة (الى) للدلالة على أنهم مستقرون فى الموالاة ، وانما مسارعتهم من بعض مراتبها الى بعض آخر منهـا) (٣٧) .

وأضيف الى ذلك أن (فى) تشعر بما ينتاب المنافق من ذعر وهلع ، نتيجة خلو قلبه من الايمان الذى يضفى على صاحبه السكينة ، ويربط على قلبه ، فهو ينزع الى أوليائه من اليهود والنصـارى ، يحتمى بهم ويندس فيهم ، أملا فى احاطتهم له بحمايتهم ، والالتحاف بقوتهم ، وهذا ما ينطق به قولهم : « نخشى أن تصـيبنا دائرة » فهم المغطـاء الذى يسترهم والدرع الذى يحميهم ، والحصن الذى يأويهم .

وقد كثرت الآراء وتباينت الأقوال فى الكشف عن سر حرف الوعاء فى قوله تعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به .. ابراهيم ٩ » .

فمن قائل انها بمعنى الى ، ومن قائل انها على سبيل التجوز مع الاختلاف فى نوع المجاز ، ومن قائل انها على حقيقتها محاولا تفسير الآية بما يدل على حرف الظرفية ، ووسط هذا كله لا ترى لحرف الظرفية اشعاعا يدل عليه . قال الزمخشرى : (« فردوا أيديهم فى أفواههم غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل ، كقوله « عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » أو ضحكا واستهزاء ، كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه ، أو أشاروا

---

(٣٧) السابق ١٥٧/٦ .

بأيديهم الى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم «انا كفرنا بما أرسلتم به» أى هذا هو جوابنا لكم ليس عندنا غيره ، اقناطا لهم من التصديق ، ألا ترى الى قوله « فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به » وهذا قول قوى) (٣٨) •

ويعلق ابن المنير على ذلك بقوله : (وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذى نبه المصنف على اختصاصه بالقوة ، وانما كان كذلك لأن اقناطهم للرسل من الايمان قولا وفعلا بوضع اليد فى الفم هو المناسب لحدهم فى الكفر ، وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب واعادة ذلك مبالغة فى التأكيد) (٣٩) •

وبرغم وجاهة هذا القول الذى رجحه الزمخشرى وأبان ابن المنير عن سر قوته فان العدول الى حرف الظرفية يظل سرا محجبا ، لأن الاشارة الى أفواههم بأيديهم اقناطا لهم ، يعبر عنه حرف الانتهاء بأفضل مما يعبر عنه حرف الوعاء •

وذهب المالقى الى أنها بمعنى الى ، وحققه بما يعود الى معنى الظرفية فقال : فمن ذلك مجيئها بمعنى الى ، كقولك : رددت يدى فى فى قال الله تعـالى : « فردوا أيديهم فى أفواههم » أى الى أفواههم ، لأن (رد) يتعدى بالى ، كقوله تعالى : « انا رادوه اليك » لكن اذا تحققت هـذا فالمعنى أنهم اذا ردوا أيديهـم الى أفواههـم فقـد أدخلوها فيهـا) (٤٠) •

ولا أظن أن رد اليد الى الفم يستلزم ادخالها فيه • وهو مما لا يكشف كذلك عن سر اختصاص حرف الظرفية •

---

(٣٨) الكشاف ٢/٣٦٨ •
(٣٩) الانتصاف ٢/٣٦٨ •
(٤٠) رصف المبانى ٤٥١ •

وذهب الأستاذ عباس حسن الى أن (فى) (تكون بمعنى (الى) الغائية ، نحو : دعوت الأحمق للسداد فرد يده فى أذنيه ، أى الى أذنيه، كى لا يسمع النصح ، ومنه قوله تعالى : « فردوا أيديهم فى أفواههم » كناية عن عدم الرد ، وعن ترك الكلام ، وقوله تعالى : « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ») (٤١) .

ونسأل : هل قولك : رد يده فى أذنيه ، ورد يده الى أذنيه سواء ؟

أليس فى العبارة الأولى مبالغة فى عدم الاستماع ، والاصرار على عدم تسرب الكلام الى سمعه حتى ليكاد يدخل يده فى أذنيه ؟

مثل هذا يقال فى الفرق بين « ردوا أيديهم فى أفواههم » وردوا أيديهم الى أفواههم ، اذ أن « الى » تدل على مجرد انهاء أيديهم الى أفواههم بالاشارة من خارجها ، اما حرف الوعاء فانه يدل على المبالغة فى عدم الرد عليهم ، وكأنهم من فرط الاصرار على انهاء الحوار معهم أدخلوا أيديهم فى أفواههم ، لتعطل جهاز النطق ، وتمنع اللسان عن الحركة ، حتى ولو كانت أصواتا مكتومة أو حركة محبوسة داخل الفم ، وهو ما يؤكد اقناط الرسل من اجابتهم والاسترسال فى الحوار معهم ، احساسا منهم بأنهم لا يستطيعون مجاراتهم فى الحجاج ولا غلبتهم فى الاقناع .

أما قوله تعالى : « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا .. الفرقان ٥١ » فليست (فى) بمعنى الى كما ذهب اليه الدكتور عباس حسن وغيره . ذلك أن بعث وأرسل يتعديان بعلى ، وفى ، والى ، واللام، ولكل منهما دلالة مع الحرف المتعدى به غير دلالته مع الحرف الآخر فاذا أريد بالارسال والبعث معنى الضرر والاهلاك كان (على) هو الحرف

---

(٤١) البحر الوافى ٢/٣٨٨ .

المناسب ، واذا أريد من الارسال والبعث خير المرسل اليهم ونفعهم ، جاءت اللام بما تحمل من معنى الأختصاص محققة هذا الغرض ، كما في قوله تعالى : « ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا .. البقرة ٤٧ » اجابة لرغبة بنى اسرائيل فى قولهم « ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ونقيض ذلك قوله تعالى : « فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا .. الاسراء ٥ » وقوله « وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم .. الذاريات ٤١ » حيث تلوح (على) بمعنى الاهلاك والابادة فيهما . واذا أريد الابلاغ وانهاء الرسالة الى المرسل اليهم ، جاءت (الى) دالة على معنى الانهاء والقصد كقوله تعالى : « انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا .. المزمل ١٥ » حيث الرسول شاهد بأنه بلغ ما أنزل اليه من ربه ، وأدى الأمانة الى أهلها . ومثله قوله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه بآياتنا .. يونس ٧٥ » .

أما اذا أريد النعى على عقول من كفروا بالمرسلين والتسجيل عليهم ، والمناداة على جحدهم للحق مع ظهور أدلته ، ويقينهم بصدق من أرسل اليهم ، لأنه يعيش بينهم ويتقلب بين اظهرهم ، تجىء « فى » مشعرة بذلك ، وبأن المبعوث واحد من أوساطهم وذوى المكانة فيهم وليس مجهولا لهم نائيا عنهم ، كما فى قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين .. الجمعة ٢ » وقوله « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة .. البقرة ١٥١ » .

وقد أشار الزمخشرى الى الفرق بين تعدية فعل الارسال أو البعث

بالى وتعديتهما بفى ، وان لم يبين سر اختصاص كل منهما بموضعه . (فان قلت : حق أرسل أن يعدى بالى كأخواته التى هى وجه وأنفذ وبعث ، فما باله عدى فى القرآن بالى تارة ، وبفى أخرى ، كقوله : « كذلك أرسلناك فى أمة » «وما أرسلنا فى قرية من نذير» «فأرسلنا فيهم رسولا » أى فى عاد . وفى موضع آخر « والى عاد أخاهم هودا » ؟ قلت : لم يعد بفى كما عدى بالى ولم يجعل صلة مثله ، ولكن الأمة أو القرية جعلت موضعا للارسال ، كما قال رؤبة :

● وأرسلت فيها مصعبا ذا اقحام ●

وقد جاءت بعث على ذلك فى قوله : « ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ») (٤٢) .

وجاء فى تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات ايضاحا لقول الزمخشرى : (انما جعل القرية موضع الارسال ،ليدل على أنه لم يأتهم من مكان غير مكانهم ،وانما أوحى اليه من بين أظهرهم)(٤٣) .

* * *

فى وحرف الابتداء

من بليغ ما جاء فى نظم القرآن الكريم ايثارا لحرف الظرفية فيما ظاهره أنه موقع حرف الابتداء ، قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا .. النساء ٥ » على حين خولف هذا النظم فى قوله من نفس السورة : « واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه .. النساء ٨ » .

---

(٤٢) الكشاف ٣١/٣ .

(٤٣) تنزيل الآيات على الشواهد الملحق بالكشاف ٥٣٣/٤ .

فلما كانت الآية الأخيرة تدعو الى سد حاجات ذوى القربى واليتامى والمساكين ببعض الأموال من الميراث جاءت «من» دالة على اعطائهم منها ما يستوجبه البر بالأرحام •

أما الآية الأولى فهى دعوة الى المحافظة على أموال اليتامى وحسن التصرف فيها ، والحرص على تنميتها ، وهو ما يتطلب العمل فيها بالتجارة والانفاق عليهم من أرباحها حتى لا تأكلها النفقة • وهو ما أبان عنه بجلاء جار الله الزمخشرى : « وارزقوهم فيهـا » واجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتتربحوا ، حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال ، فلا يأكلها الانفاق) (٤٤) •

وقال أبو حيان : (وقال : فيها ، ولم يقل : منها • تنبيها على ما قاله عليه السلام : « ابتغوا فى أموال اليتامى التجارة ، لا تأكلها الزكاة» والمستحب أن يكون الانفاق عليهم من فضلاتها المكتسبة • وقيل فى بمعنى من ، أى منها) (٤٥) •

ولا شك أن الرأى الأول هو الأليق ببلاغة النظم ، والأهدى الى كشف أسراره •

ومما شكل علىّ أمره ، وتوقفت أمامه طويلا ، آيتان من مشتبه النظم الكريم ، وقعتا تذييلا لقصة واحدة ، هى قصة اهلاك قوم لوط ، وفى سياق يشبه أن يكون واحدا ، وجاءت احداهما بمن ، والأخرى بفى ، مما دفع المفسرين الى القول بأن فى بمعنى من • وهما قوله تعالى بعد الاخبار عن هلاك قوم لوط : « ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون •• العنكبوت ٣٥ » وقوله فى نهاية نفس القصة من سورة الذاريات « وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم •• الذاريات٣٧»

---

(٤٤) الكشاف ١/ ٥٠٠ •

(٤٥) البحر المحيط ٣/ ١٧٠ •

فذهب الفراء الى أن المعنى فى الآيتين (وتركناها آية) على زيادة من ، وفى ، على حد قولك : السماء فيها آية ، وأنت تريد السماء آية(٤٦). فاذا كان الحرفان زائدين فلم اختصت احداهما بمن والأخرى بفى ؟

وبعد طول تأمل فى أعطاف النظم وتسمع لهمس السياق فى الموضعين وقع لى ان القصة فى العنكبوت سيقت لبيان فضل الله فى انجاء أوليائه ، حين يصدقون الله فيما يبتليهم به ، وهو ما افتتحت به السورة « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » ثم حكى الله قصة نوح مع قومه ، وذيلها بقوله « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين .. العنكبوت ١٥ » ثم أردفها بقصة ابراهيم ، وأنهاها بقوله : « فأنجاه الله من النار ان فى ذلك الآيات لقوم يؤمنون .. العنكبوت ٢٤ » ثم أعقبها بقصة قوم لوط ، وكان ختامها قوله : « انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هـذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ... .. العنكبوت ٣٣ ــ ٣٥ » .

فناسب « من » هذا السياق لأمرين ، أولهما : أن سياق القصـة يدعو الى أخذ العظـة والعبرة من انجاء الله أولياءه ، واهلاكه أعداءه ، وذلك يستدعى « من » ويتطلبه . وثانيهما أن الآية هنا مستنبطة بالتعقل والتأمل ، وليست بالنظر والمشاهدة ، وهو ما يصل اليه العقل بالاستنتاج والربط بين الأحداث والنتائج ، ومنها يأخذ العظة والعبرة . وذلك ما دل عليه قوله « لقوم يعقلون » .

أما فى سورة الذاريات فالقصة مسوقة للارهاب والتخويف بمصائر الأمم السابقة مما أبادها الله تعالى لكفرها وفسقها ، وذلك لا يتحقق

---

(٤٦) انظر معانى القرآن ٨٧/٣ .

على أكمل وجه الا بمشاهدة آثارها الناطقة بأليم العقاب وسوء المصير ، وهو سر ايثار (فى) دالة على بقاء آثار هذه القرية ، ليشاهد الناظر فيها ما حل بها من سوء العذاب •

ويدل لذلك أمران : أولهما أن الحديث عن انجاء الله لوطا ومن معه يتوارى خلف نذر العذاب ، ووطأة الانتقام ، حتى ان لوطا لم يذكر صريحا فى هذا الموضع ، مما يدل على أن القصة مسوقة للتخويف والتهديد وثانيهما قوله « للذين يخافون العذاب الأليم » وهو صريح فى الكشف عن الغرض من ذكر القصة ، وهو التخويف من عذاب الله ، وذلك يتحقق بالوقوف على آثار هذه القرية والنظر فيما بقى شاهدا على ما أنزله الله بها من عقاب •

هذا بالاضافة الى مشاكلة نسق الآية لما قبلها وما بعدها ، فقد سبقها قوله « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون وفى السماء رزقكم وما توعدون» وتبعها قوله : « وفى موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين » « وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » « وفى ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين » فكانت مشاكلة (فى) لأخواتها لمنا من جمال اللفظ وحسن النسق • وهو ما لانجده فى نسق آية العنكبوت •

ومما اشتبه نظمه وخولف فيه بين حرف الوعاء وحرف الابتداء ، قوله تعالى من سورة النحل : « ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون •• النحل ٨٤ » وقوله فى نفس السورة : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء •• النحل ٨٩ » •

فذهب البعض الى أن (في) بمعنى من (٤٧) وهذا يجعل قوله « من أنفسهم » تكرارا له • وذهب أبو حيان الى أن (في) على أصلها ، وأنها محذوفة من الآية الأولى كما حذف « من أنفسهم » فيها أيضا)(٤٨)

وهذا الحذف ــ فيما أرى ــ لا دليل عليه ، لأن الآية الأولى تصور موقفا غير ما تصوره الآية الثانية وفي الثانية ما استدعى مزيدا من الاطناب والتأكيد •

ذلك أن الآية الأولى اخبار منه تعالى أنه يجمع الشهداء من الأمم في موقف قصد منه اعلام الكافرين بجمع الأدلة ضدهم ، واحضار من يكذبونهم اذا ما ادعوا عدم تبليغ الرسل لهم ، لكنه ليس موقف محاجة ومساءلة بدليل قوله تعالى : « ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون » لذا لم يحتج الى المبالغة بكون الشهيد فيهم ، كما لم يحتج الى التأكيد بأنه من أنفسهم ، ولا بأنه شهيد عليهم ، متى ما انتفى السؤال والمحاجة •

أما الآية الثانية فهي تصور موقف المحاجة والخصومة وتبادل الاتهامات والقاء القول بعد أن أذن الله لهم بذلك كمايفصح عنه قولهقبل هذه الآية « واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون وألقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون » فلم يكن القاء السلم وذهاب افترائهم الا دليلا على أنهم ووجهوا بشهادة من أرسلوا فيهم وشهدوا عليهم ، ومن ثم صرح في هذه الآية بأن الشهيد مبعوث فيهم بما يدل على أنه عاش بينهم واستبطن أحوالهم وذلك بجعل الشهادة عليهم أمكن وأوثق ، ومن ثم جاء من أنفسهم تأكيدا له •

---

(٤٧) انظر الاتقان ١٦٧/١ •

(٤٨) انظر البحر المحيط ٥٢٧/٤ •

ويرى ابن الزبير الغرناطى أن الآية الأولى تمهيد للآية الثانية التى صرح فيها بذكر شهادة الرسول على أمته ، واتبعت بما يدل على البشارة للمؤمنين مع الزجر والتعنيف لمن لم يؤمن (ولما كان قوله تعالى : « وجئنا بك شهيدا على هؤلاء » حاصلا من تعيينه عليه السلام وتحقيق كونه الشهيد على أمته ، وكونه من أنفسها ، ورد ما قبله محرزا فيه ذلك الغرض من تحقيق ذلك الحكم ، من أن كل نبى قبله انما كان من أنفس القوم المرسل اليهم ذلك الرسول ، لا من غيرهم وهو الشهيد عليهم • وحقق ذلك فى الثانية بما يحرزه حرف الوعاء الذى هو (فى) ويقتضيه فى استحكام الاخبار بكون الشهيد من نفس الأمة ، لأن قوله « من كل أمة » يحتمل أن يراد به أن يكون منهم فى مذهب ، أو جامع بينهم وبينه ، من غير أن يكون من أنفسهم • أما قوله «فى كل أمة» فأنص فى الاتصال واللزوق لا سيما بما أتبع به من قوله « من أنفسهم » فطوبق بين المتقابلين من قوله : « ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء »)(٤٩) •

وفى قوله تعالى : « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون •• النمل ٢٥ » •

يقول الفراء : (يقال هو الماء الذى ينزل من السماء ، والنبت من الأرض ، وهى فى قراءة عبد الله (يخرج الخبء من السموات) وصلحت (فى) مكان (من) لأنك تقول : لأستخرجن العلم الذى فيكم منكم ، ثم تحذف أيهما شئت ، أعنى من ، وفى ، فيكون المعنى قائما على حاله)(٥٠) •

وفى عبارة الفراء الباس ، حيث انه يستفاد منها أنه من باب الحذف

---

(٤٩) ملاك التأويل ٦١٩/١ ـ ٦٢٢ بتصرف •

(٥٠) معانى القرآن ٢٧٦/٢ •

كما يستفاد منها أنه من باب نيابة أحد الحرفين عن الآخر ، وهو ما فهمه عنه كثير ممن قالوا ان (فى) نابت فى هذا الموضع عن (من).

على أننى أجد فى القراءة المشهورة بحرف الظرفية دلالة أعمق على قدرة الله تعالى من استخراج المخبوء المغيب فى أطواء السموات والأرض مما لا يقف عند حد انزال المطر أو انبات الأرض وهو ما لا يستطيع الانسان استخراجه الا بهدى من الله والهام منه وذلك ما يستوجب السجود لله شكرا على ما هداه اليه .

وهو ما عبر عنه الألوسى فى أحد وجهين قال : (أى يظهر الشىء المخبوء فيهما كائنا ما كان)(٥١) .

* * *

فى وكالة المصاحبة

ذهب كثير من المفسرين جريا وراء رأى الكوفيين الى أن (فى) تدل على معنى المصاحبة ، كما تدل عليه (مع) فى كثير من آيات الذكر الحكيم . قال الهروى وهو يعدد معانى الظرفية : (وتكون بمعنى (مع) قال الله جل ثناؤه : (فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) معناه : مع عبادى ، وقال « وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » أى مع عبادك فى الجنة)(٥٢) .

وسنعرض لبعض هذه الآيات لنرى كيف أشاع حرف الوعاء فيها روحا من البيان لا يمكن أن تشيعها الكلمة الموضوعة للدلالة على المصاحبة .

من ذلك قوله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك

---

(٥١) روح المعانى ١٩/١٩٢ .

(٥٢) الأزهية فى علم الحروف ٢٦٧ .

راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى .. الفجر ٢٧ ـ ٣٠ » .

الآيات مسوقة لبيان تكريم الله تعالى لهـذه النفس التى اطمأنت بايمانها وما قدمته من خير العمل . وحسبها أن يستقبلها الله راضـيا عنها راضية عنه ، فاذا جاء أمر الله تعالى بالدخول فى عباده المكرمين ، كان غاية التكريم أن تكون هـذه النفس فى الصـدر من هؤلاء العباد ، يحيطون بها ويحتفون بوفادتها ، وليست فى الحاشـية من هؤلاء العباد كما تدل عليه كلمة المصاحبة ، الموحية باتباعهم لهم والحاقهم بهم . ولعل فى تقديم دخولهم فى هؤلاء العبـاد على دخولهم الجنة ما يؤكد هـذا التكريم بما يدل على أنهم لم يسبقوا بدخول الجنة ، وكأن السابقين من عباد الله الصالحين فى انتظارهم قبل دخولها .

ومثله قوله تعالى على لسان سـليمان عليه السلام : « وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .. النمل ١٩ » فان منزلة سليمان عليه السلام ومقام الرجاء يجعلانه فى الصدر من عباده الصالحين وليس مصاحبا لهم ملحقا بهم .

ولنفس الغرض جاء حرف الظرفية فى قوله تعالى : «فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار .. الأعراف ٣٧ ـ ٣٨ » .

هذا موقف القهر وادلال القدرة ، وتحقير شأن الكافرين ، والسخرية منهم وممن أشركوهم مع الله آلهة ، ولا أدل على ذلك من حرف الظرفية الموحى بأن المخاطبين يتوارون فى غمـار الأمم التى كفرت بربها وألقى الله تعالى بهم فى نار جهنم ، وهو غنى عنهم وعن عبادتهم .

وهــذا سر عدم الاكتفــاء بالأمر بدخولهم النار ، حيث لم يقل : ادخلوا فى النار ، كما لم يكتف بقوله « ادخلوا فى أمم » حتى بينهبقوله « من الجن والانس » .

الدلالة على كثرة الكافرين وحقــارة شأن الداخلين فيهم هو سر الظرفية وايثارها على كلمة المصــاحبة . وقد جعل الرازى « فى » من مجاز الظرفية ولكنه لم يكشف عن سر التجوز قال : (التقدير : ادخلوا فى النار مع أمم ، وعلى هذا القول ففى الآية اضمار ومجاز ، أما الاضمار فلأنا أضمرنا فيها قولنا : فى النار ، وأما المجاز فلأنا حملنا كلمة (فى) على (مع) لأنا قلنا معنى قوله « فى أمم » أى مع أمم)(٥٣) .

ومنه قوله تعالى فى خطاب موسى عليه السـلام : « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات الى فرعون..النمل١٢»
(فى) من قوله « فى تسع آيات » تربط على قلب موسى عليه السلام وهو ذاهب للقاء فرعون تحدوه قوة الله تعالى ويحيطه تسع من آياته ، تصنع حوله سـياجا من جند الله تعالى ، وتغمره بما يوفر له الحمـاية والأمان فى مواجهة عدو الله،وفرق بين أن يكون معه من الأسلحة مايدافع به ، وأن يكون محاطا بما يدفع عنه . ألست معى بعد ذلك فى أن القول بأنها بمعنى مع يضيق عن استيعاب أسرار الذكر الحكيم ؟

وفى وصف المتخلفين عن القتال من المنافقين يقول تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيـل اقعـدوا مع القاعدين لو خرجوا فيـكم مازادوكم الاخبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة .. التوبة ٤٦ ــ ٤٧ » .

قال أبو حيـان : (« وفيكم » أى فى جيشـكم ، أو فى جملتكم ،

---

(٥٣) التفسير الكبير ١٤/٧٣ .

وقيل فى بمعنى مع)(٥٤) •

فالظرفية فى نظره لا تصح الا على تقدير مضـــاف محذوف ، والا كانت (فى) بمعنى مع • وليس هناك دليـــل على الحذف ، ســـوى كون المخاطبين لا يصلحون ظرفا ، فوجب تقدير ما يصـــح معه دخول حرف الظرفية • ولسنا نقول ان الظرفية هنا حقيقة ، ولكننا نقول انها تجوز واتساع ، وحينئذ يجب علينا أن نبحث عن سر التجوز بدلا من اللجوء الى الحذف والتقدير ، أو القول بنيابة الحرف عن كلمة المصاحبة •

ووجه البـــلاغة فيما عليه النظم أن المنافقين لا يريدون للمسلمين نصرا ، ولا تكثيرا لعددهم ، وانما يبحثـــون عن هزيمتهم ، ويتمنـــون انتصار شركائهم فى العقيدة ، والكفر كله ملة واحدة ، ولو أنهم خرجوا مع المسلمين لصاروا عيونا عليهم ، واندسوا بينهم ينقلون أخبارهم الى اخوانهم من الكفار ، ولأثاروا الفتنة فى جيوش المسلمين كمـــا ينطق به قوله : « ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة » •

فالظرفية هنا تومىء الى أن خروجهم فى صفوف المسلمين سيكون مرضا يسرى فى أوصالهم ، وعيـــونا لأعدائهم تندس فيهم ، وتتوارى فى جيوشهم • ألا ترى كيف غير النظم فى قول المنـــافقين لاخوانهم تعبيرا عن حماسهم فى مناصرتهم وتكثير عددهم ، والقتال معهم « لئن أخرجتـــم لنخرجن معكم ولا نطيـــع فيكم أحدا أبدا •• الحشر ١١ » فالخـــروج معهم تجســـيد لرغبتهم فى تكثـــير عددهم والانضـــمام الى جيوشهم ، والخروج فى المؤمنين حرب عليهم وسلاح يفت فى عضـــدهم ، فدل على الأول بالمصاحبة ، وعلى الثانى بالظرفية •

---

(٥٤) البحر المحيط ٥/٤٩ •

وقد أدار الزمخشرى حوارا حول حرف الظرفية شارك فيه كثير من أرباب البيان فى قوله تعالى : «أوكصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين .. البقرة ١٩ » .

قال الزمخشرى : (فان قلت : كيف يكون المطر مكانا للبرق والرعد ، وانما مكانهما السحاب ، قلت : اذا كانا فى أعلاه ومصبه ، ومتلبسين فى الجملة به فهما فيه . ألا تراك تقول : فلان فى البلد ، وما هو منه الا فى حيز يشغله جرمه)(٥٥) .

ويتدخل السيد الشريف فى حاشيته على الكشاف ليوضح نوع التجوز وعلاقته فيقول : (يعنى أن ظرفية السحاب للرعد والبرق ظاهرة دون ظرفية المطر لهما ، أجاب بأنهما لما كانا فى محل يتصل به هو أعلاه ومصبه ، أعنى السحاب جعلا كأنهما فيه ، بناء على استعارة كلمة (فى) للملابسة الشبيهة بملابسة الظرفية ، كما شبهت بها ملابسة الشخص للبلد ، فاستعمل فيها كلمتها)(٥٦) .

وهذا القول بالتجوز فى استعارة معنى الظرفية للمجاورة أو المصاحبة يلجأ اليه أهل البيان فرارا من القول بنيابة حرف الظرفية عن كلمة المصاحبة ، كما رأيناه عند الرازى حين جعلها فى قوله « ادخلوا فى أمم » مجازا عن (مع) . لكن سر التجوز يبقى بعد ذلك غائما محتجبا .

ويبدو لى ــ والله أعلم ــ أن الله تعالى أراد أن يجسد فى المطر كل مصادر الرعب والفزع ، باعتباره بلاء أرسله الله على هؤلاء المنافقين ، ومن ثم جعله مستودعا للظلمات هكذا بالجمع حتى تتوارى ظلمة الليل فى ظلماته الكثيفة ، وجعل البرق والرعد المصاحبين له ينطلقان منه

---

(٥٥) الكشاف ١/٢١٥ .

(٥٦) حاشية السيد على الكشاف ١/٢١٥ .

وينبعان من أعماقه ، تهويلا من شأنه ، وتعبيرا عن كثرة ما يختزن فيه من صواعق متتابعة . هذه المبالغة فى تضخيم الصيب ، وتكثير ما ينطلق منه ويتوالى من الظلمات ، والرعود ، والبروق ، هى سر ايثار حرف الظرفية على كلمة المصاحبة .

★ ★ ★

فى ودورها فى بلاغة التجريد

من ألطف مواقع (فى) وأكثرها امتلاء بالدلالات ما تأتى فيه أداة للتجريد . والتجريد أحد الفنون التى استقرت فى مكانها من علم البديع وهو كما عرفه الخطيب القزوينى : (أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فيه)(٥٧) .

وأروع أقسامه ما جاء منه بحرف من حروف التجريد الثلاثة ، من والباء وفى ، وله نكتة عامة هى المبالغة فى كمال الصفة الجارية على المجرد منه . ومن أشهر أمثلة التجريد بفى قوله تعالى : « ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد .. فصلت ٢٨ » .

يقول الخطيب : (فان جهنم أعاذنا الله منها هى دار الخلد ، لكن انتزع منها مثلها ، وجعل معدا فيها للكفار ، تهويلا لأمرها)(٥٨) وهذه نكتة لطيفة منشؤها أن الظرف أعظم من المظروف ، بحكم أنه يحتويه ويشتمله ، فاذا جعلت النار ظرفا لدار الخلد ، فذلك دلالة على عظمها والتهويل من شأنها .

ومن أمثلة التجريد بحرف الوعاء قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ..

---

(٥٧) الايضاح ضمن بغية الايضاح ٤/٤٤ .
(٥٨) السابق ٤/٤٥ .

الأحزاب ٢١ » فرسول الله هو ذاته الأسوة الحسنة لمن أراد أن يتأسى به ، ولكنه جعل محلا لها تعظيما لشأنه عليه السلام ، وايماء الى أنه المنبع الفياض بكل صفات الخير ، وتنبيها للمسلمين ألا يطلبوها فى سواه ، فانه وحده الذى تكتمل فيه أوصاف الخير ، ومن طلب الأسوة فى غيره ضل وغوى • ولو جاء النظم هكذا : لقد كان لكم رسول الله أسوة حسنة لما أغلق الباب على طلب الأسوة فى غيره ، والمسلم لا يقتدى بغير رسول الله أو بمن جعل رسول الله أسوته •

ومن القرآن اغترف ، وعلى نهج أسلوبه درج من قال :

أراقت بنو مروان ظلما دماءنا وفى الله ان لم يعدلوا حكم عدل

جاعلا ذات الله نبعا لكل حكم عادل ، مضمنا كلامه أن كل حكم يتسم بالعدالة فالله وشرعه ومصدره ومنهله ، وفى المقابل فان كل حكم لا يستمد من الله وشرعه فهو الظلم البين والضلال المبين •

ومنه قوله تعالى : « لقد كان لكم فى يوسف واخوته آيات السائلين •• يوسف ٧ » •

فقد عمد القرآن الى الاحتفاء بهذه القصة وتعظيم شأنها ، لما حفلت به من أحداث تكشف عن طبائع البشر ، بما لا يكشف عنها وقوعها فى غير بيت النبوة ، وفى كل فصل من فصولها وحدث من أحداثها عبرة وعظة « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن » فجاء أسلوب التجريد ليجعل من يوسف واخوته محلا ونبعا للآيات ، اشارة الى غنى هذه القصة بالأحداث وما يستمد منها من عبر وعظات ، حثا على تدبرها والغوص فى أعماق نفوس أبطالها ، بحثا عن دوافع الخير فيهم أو نزعات الشر فى طباع الانسان •

كثرة الآيات والدعوة الى استبطان الأحداث ، والغوص فى أعماق النفوس هو ما يشى به حرف الظرفية ويدل عليه . ووضـــوح الآية فى عيسى وعدم تشابك الأحداث فى قصته هو الذى جعل النظم الحكيم يعدل عن التجريد فى قوله تعـــالى : « ولنجعله آية للنـــاس .. مريم ٢١ » ، وقوله « وجعلنا ابن مريم وأمه آية .. المؤمنون ٥٠ » .

وأى خفاء يحتاج الى استبطان وكل ما جرى له ولأمه اعجاز الهى وآيات بينات ، ثم لا كشف عن طبائع بشرية مما جبل الله عليه الانســان كما هو فى سورة يوسف بحيث يحتاج الى اعمال الفكر بحثا عنها انما هو دلالة على بسط يد الله فى خلقه ، وقهره لما أجراه فيهم من نواميس .

وللمبالغة مذاقها فى جعل الريح محلا للبرودة الشديدة ، ونبعـــا لها ، تهويلا لشأن الريح ، وتفظيعـــا لآثارها المدمرة . فى قوله تعـــالى : « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته .. آل عمـــران ١١٧ » لذلك استحسن ابن المنير المبالغة بالتجريد عن المبالغة بالوصف فيمـــا عدده الزمخشرى من أوجه تفسيرا لهذه الظرفية قال الزمخشرى : (فان قلت : فما معنى قوله (كمثل ريح فيهـــا صر) ؟ قلت : فيـــه أوجه ، أحدها أن الصر فى صفة الريح بمعنى البـــاردة ، فوصف بها القرة ، بمعنى فيهـــا قرة صر ، كما تقول برد بارد على المبالغة ، والثانى أن يكون الصر مصدرا فى الأصـــل بمعنى البرد ، فجىء به على أصله ، والثالث أن يكون من قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ومن قولك : ان ضيعنى فلان ففى الله كاف وكافل ، وفى الرحمن للضعفاء كاف)(٥٩) .

---

(٥٩) الكشاف ١/٤٥٩ — ٤٦٠ .

علق ابن المنير على هذا بقوله : (كلها أوجه وجيهة ، وهذا الأخير أحسنها وأوجهها لكن لم يبين الزمخشري وجه الظرفية فى الأمثلة المذكورة ، ونحن نبينها فنقول : اذا قلت : مثلا : ان ضيعنى زيد ففى عمرو بعد الله كاف ، فقولك كاف ، أتيت به منكرا مجردا من القيود المشخصة المخصصة ، ثم جعلت المعين الذى هو عمرو محلا ، فشخصت ذلك المطلق المجرد بهذا المعين ، فهى ظرفية صحيحة ، اذ كل مقيد ظرف لمطلقه ، اذ المطلق بعض المقيد ، فتنبه لهذه النكتة فانها لطيفة)(٦٠) .

(٦٠) الانتصاف (حاشية على الكشاف) ٤٥٩/١ .

الفصـل الرابع

من أسرار حرف الالصـاق

حقيقة الباء ومجازها

الباء هي كذلك من الحروف التي اتسع فيها العرب اتساعا جعل بعض النحاة يصلون بمعانيها الى أربعة عشر معنى ، مما هو دليل على كثرة تصرفها وقدرتها على الوفاء بأغراض المتكلم وأحوال المخاطبين ، سواء أكانت هذه المعاني تؤدى بها على سبيل الحقيقة ، أم التجوز ، أو النيابة عن أخواتها من حروف الجر على اختلاف مذاهب العلماء ، وهو ما لا يستوقفنا الا بالقدر الذي يكشف عن أسرار هذا الحرف ، ويستجلي دلالاته التي يشيعها في نظم القرآن الكريم ، بما يتمشى مع منهج هذه الدراسة وأهدافها •

وقبل الغوص في أعماق الشواهد القرآنية ، يحسن بنا أن نقرر أن المعنى الذي تدور حوله الباء ولا يكاد يفارقها هو الالصاق والاختلاط ، كما أكده امام النحاة سيبويه ، سواء تجلت عنه في ثوب من الحقيقة أو توارى في دثار من التجوز ، وهو ما نحاول التصنت اليه ، ونكشف عن أسراره التي يخفيها في اطوائه •

يقول ابن هشام وهو ممن استحسن قول الكوفيين بتناوب حروف الجر : (الباء المفردة حرف لأربعة عشر معنى أولها الالصاق ، قيل وهو معنى لا يفارقها ، فلهذا اقتصر عليه سيبويه ، ثم الالصاق حقيقي كأمسكت بزيد اذا قبضت على شيء من جسمه ، أو على ما يحبسه من يد أو ثوب ونحوه ، ولو قلت : أمسكته ، احتمل ذلك ، وأن تكون منعته من التصرف ، ومجازي نحو : مررت بزيد ، أي ألصقت مروري بمكان يقرب من زيد)(١) •

---

(١) مغنى اللبيب ١/٩٥ •

هذا كلام دقيق لو انصرفت الهمم الى تتبعه فى النصـــوص التى لا تظهر فيها حقيقة الالصاق ، واستيحائه فيما اشتبه بمعـــانى أخواته من الحروف ، لكان أمامنا ثروة هائلة من أسرار التجوز فى الحـــروف ، بدلا من القول بتعدد معانيها ونيابتها عن غيرها •

وقد كانت للعز بن عبد السلام محاولات طيبة فى بيان التجوز فى الحروف ، لولا أن أكثر جهده استنفده فى بيان نوع المجـــاز وعلاقاته ، وقليلا ما ظهرت أسرار التجوز فيه • وهذا طرف من حديثه عن الباء : (قال سيبويه : هى للالصاق والالصـــاق أضرب ، أحدها حقيقى ، وهو الصـــاق جرم بجـــرم ، كقولك : ألصقت القوس بالغـــراء ، والخشبة بالجدار ، الثانى الصاق المعنى بالجرم ، كقـــولك : لطفت بزيد ورأفت به كأنك ألصقت اللطف به والرأفة به لتعلقهما به ، وكقـــولهم : مررت بزيد ، لا بد فيه من حذف تقـــديره : مررت بمكان زيد ، أو بمحل زيد ، وهو من مجاز التشبيه ، كأنك ألصقت المرور بالمكان ، الثالث : الصـــاق المعنى بالمعنى ، كقـــــوله : (النفس بالنفس والعـــين بالعـــين) أى النفس مقتولة بقتل النفس ، والعين مفقوءة بفقو العين ، أتى بالبـــاء ليكون المسبب وهو القصـــاص منســـوبا الى الجناية نسبة السببية ، فأشبه لذلك الالصاق الحقيقى وهو جار فى جميع الأسباب)(٢) •

فما قيل من معنى السببية فى الباء أرجعه بذلك العز الى الالصاق المجازى ، وهو ما يمكن أن يقال فى غيره من المعانى التى قيل ان البـــاء تؤديها بعيـــدا عن معنى الالصاق ويبقى الســـؤال : ما الذى يوحى به الالصاق فى الآية الكريمة ؟

أقول : ان القرآن قصد الى التخويف وشدة الزجر بغيـــة منـــع

---

(٢) الاشارة الى الايجاز ٢٥ •

الناس من الاقدام على القتل منذرا بسرعة العقوبة ، وتعجيل القصاص قبل أن تجف الدماء ، وكأن نفس القاتل مرهونة مقيدة بنفس القتيل ، واقدامه على قتل غريمه بمثابة اقدامه على قتل نفسه ، وهذا معنى الصاق نفس القاتل بنفس من قتله ، ومثله القصاص فى الجوارح ، حتى لا يقدم من تعز عليه عينه على فقء عين ملتصقة بعينه التصاقا يلحق بها نفس الأذى الذى يلحقه بعين أخيه .

وهذه آية أخرى قيل فيها ان الباء للسببية أو الاستعانة ، واذا تأملنا وجدنا معنى الالصاق فيها يلوح من بعيد مشيرا الى بلاغة النظم الحكيم . وهى قوله تعالى : « واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون .. البقرة ٥٠ » .

قال الزمخشرى : (فان قلت : ما معنى بكم ؟ قلت فيه أوجه ، أن يراد أنهم يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم . فكأنما فرق بهم ، كما يفرق بين الشيئين بما يوسط بينهما ، وأن يراد فرقناه بسببكم وبسبب انجائكم ، وأن يكون فى موضع الحال بمعنى فرقناه متلبسا بكم)(٣) .

وأرى أن للباء بما فيها من معنى الالصاق ايحاء بعظيم قدرة الله تعالى ، وبالغ فضله على بنى اسرائيل حيث فرق بهم البحر وهم ملاصقون له متلبسون بمصدر الهلاك الذى أودى بعدوهم ، فأنجاهم وأغرق عدوهم ، وهم منه جد قريب ، كما يعبر عنه قوله « وأنتم تنظرون » وذلك معنى الملابسة الذى فسره الأستاذ طاهر بن عاشور بقوله : (والباء فى بكم اما للملابسة ، كما فى طارت به العنقاء وعدا به الفرس ، أى كان فرق البحر ملابسا لكم ، والمراد من الملابسة أنه يفرق وهم يدخلونه ، فكان الفرق حاصلا بجانبهم)(٤) .

---

(٣) الكشاف ١/٢٨٠ .

(٤) التحرير والتنوير ١/٤٧٢ .

الباء ومعنى التعدية

جعل النحاة التعدية معنى من معـانى الباء ، وقالوا انهـا ترادف الهمزة ، ومثلوا لها بقوله تعالى : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضـاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون •• البقـرة ١٧ » قال أبو حيان : (والباء فى (بنورهم) للتعـدية ، وهى احدى المعانى الأربعة عشر التى تقدم أن الباء تجىء لهـا ، وهى عند جمهـور النحويين ترادف الهمزة ، فاذا قلت : خرجت بزيد ، فمعنـاه أخرجت زيدا ، ولا يلزم أن تكون أنت خرجت • وذهب أبو العباس الى أنك اذا قلت : أقمت زيدا ، لم يلزم أنك قمت ، ففرق بين الباء والهمزة فى التعدية ، والى نحو من مذهب أبى العباس ذهب السهيلى • قال : تدخل الباء ــ يعنى المعدية ــ حيث تكون من الفـاعل بعض مشـاركة للمفعول فى ذلك الفعل ، نحو أقعدته وقعدت به ، وأدخلته الدار ودخلت به ، ولا يصح هذا فى مثل أمرضته وأسقمته ، فلا بد اذن من مشـاركة ولو باليد ، اذا قلت قعدت به ودخلت به ، ورد على أبى العباس بهـذه الآية ونحـوها ، ألا ترى أن المعنى أذهب الله نورهم ، ألا ترى أن الله لا يوصف بالذهاب مع النور)(٥) •

وأرى أن ما ذهب اليه المبرد والسهيلى هو غاية الدقة والاحكام ، وبه يظهر سر ايثار النظم الكريم للتعدية بالباء ، والوقوف عنـد ظاهر ما يوجبه الاستصحاب مما لا يليق بذاته تعالى مدفوع بأمرين ، أولهما أن ذهاب الله تعالى بنورهم من قبيل « وجاء ربك » • وثانيهما أنه مجاز عن شدة الأخذ ، لأن الذاهب به هو القوى العزيز ، وبهما أجيب على الاعتراض الموجه الى المبرد والسهيلى • قال الألوسى : (وعدى بالباء دون الهمزة لما فى المثل السائر أن ذهب بالشىء يفهم منه أنه استصحبه

---

(٥) البحر المحيط ١/٧٩ •

وأمسكه عن الرجوع الى الدلالة الأولى ، ولا كذلك أذهبه ، فالباء والهمزة ان اشتركا فى معنى التعدية فلا يبعد أن ينظر صاحب المعانى الى معنى الهمزة والباء الأصليين ، أعنى الازالة والمصاحبة والالصاق ففى الآية لطف لا ينكر ، كيف والفاعل هو الله تعالى القوى العزيز ، الذى لا راد لما أخذه ، ولا مرسل لما أمسكه • وذكر أبو العباس أن ذهبت بزيد ، يقتضى ذهاب المتكلم مع زيد دون أذهبته ، ولعله يقول : ان ما فى الآية مجاز عن شدة الأخذ بحيث لا يرد ، أو يجوز أن يكون الله تعالى وصف نفسه بالذهاب على معنى يليق به ، كما وصف نفسه سبحانه بالمجىء فى ظاهر قوله تعالى : « وجاء ربك »(٦) •

ولصاحب تفسير المنار رأى بديع فى ايثار الباء على الهمزة ، وهو ليس ببعيد عما ذكره الزمخشرى وابن الاثير • قال : (وانما قال « ذهب الله بنورهم » ولم يقل ذهب نورهم ، أو أذهب الله نورهم للاشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت،وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التى فطر الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التى دعا الناس اليها ، وبأنه تخلى عنهم عندما نكبوا عن تلك السبيل وعافوا ذلك المورد السلسبيل)(٧) •

وبتتبع مادة الذهاب فى القرآن الكريم نجد أنها وردت متعدية بالباء فى أربعة عشر موضعا ، بصورة الماضى والمضارع والأمر والمصدر ، وكلها لا تخلو من معنى الاستصحاب ، سواء كان على سبيل الحقيقة أو المجاز •

---

(٦) روح المعانى ١/١٦٥ •

(٧) تفسير القرآن الحكيم ١/١٧١ •

فمما هو على سبيل الحقيقة قوله تعالى : « فلما ذهبـوا به .. يوسف ١٥ » وقوله « اذهبوا بقميصى هـذا .. يوسف ٩٣ » وقوله : « اذهب بكتابى هذا .. النمل ٢٨ » .

ومما جاء على سبيل التجوز الأخذ أو الاهلاك أو الامساك قولهتعالى: « ذهب الله بنورهم » وقوله : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير .. البقرة ٢٠ » وقوله « فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون .. الزخرف ٤١ » وقوله « وانا على ذهاب به لقادرون .. المؤمنـون ١٨ » وقوله : « يكاد سـنا برقه يذهب بالأبصـار .. النور ٤٣ » .

ومعنى اللصوق والمصاحبة فى هذا كله واضح ، ولو رحت تستبدل الهمزة بالباء فيها ، لذهب معها سر البلاغة الذى قصد اليه النظـم ، أو فسد المعنى . وانظر أثر ذلك فى قوله تعالى : « فاما نذهبن بك » خطابا لرسوله ، وكيف أدت الباء بما فيها من معنى المصاحبة دورها فى ابراز لطف الله وتكريمه لرسـوله بمعية ربه ، وكيف يضيع ذلك وينقلب الى معنى الانتقام والأخذ لو قلت : فاما نذهبنك بما يدل عليه من التخلى عنه واضاعته . وهو ما لا يليق بمقام الرسول عند ربه . وقل مثل ذلك فى قوله تعـالى : « ولا تعضـلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتمـوهن .. النساء ١٩ » حيث دلت البـاء على حرصهم على المال وشـغفهم به ، وحبهم لامتلاكه ، ولو أدى ذلك الى عضل أزواجهم ، فلو استبدلت بها الهمزة وقلت : لتذهبوا ما آتيتموهن ، لدل على أنهم يريدون اضـاعة المال وازالته من بين أيديهن ، تشفيا وانتقاما ، وهو ما لا ينسجم مع سـياق الآيات .

وذلك ما أوضحه الزمخشرى بقوله : (والفرق بين أذهبه وذهب به ، أن معنى أذهبه ازاله وجعله ذاهبا ، ويقال : ذهب به اذا استصحبه ومضى به معه ، وذهب السلطان بما له أخذه ، فلما ذهبوا به ـ اذا لذهب

كل اله بما خلق — ومنه ذهبت به الخيلاء ، والمعنى : أخذ الله نورهم وأمسكه ، وما يمسك الله فلا مرسل له ، فهو أبلغ فى الاذهاب)(٨) •

وبين السيد الشريف وجه أبلغية الباء بقوله : (لما فيه من الأخذ والامساك ، فان الباء وان كانت للتعدية كالهمزة الا أن فيها معنى المصاحبة واللصوق)(٩) •

أما تعدية الذهاب بالهمزة فقد ورد فى القرآن خمس مرات فى صورتى الماضى والمضارع ، وكلها تدل على ازالة مكروه أو اضاعة مرغوب ، وهى قوله تعالى : « وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن •• فاطر ٣٤ » وقوله « ويذهب عنكم رجز الشيطان •• الأنفال ١١ » وقوله «ليذهب عنكم الرجس أهل البيت •• الأحزاب ٣٣» وقوله « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمعتم بها الأحقاف ٢٠ » وفى الآيات الأربع الأول ، دلت الهمزة على الازالة دون استصحاب الله لفعل الذهاب ، لأن المذهوب به شرور لا يليق بذات الله تعالى استصحابها ، أما قوله فى الآية الأخيرة « أذهبتم طيباتكم » فقد دلت الهمزة فيها على أن الكافرين أضاعوا نعيم الآخرة حين أضاعوا طيبات الحياة استمتاعا بها ، وافراغا لشهواتهم فيها ، دون أن يستثمروها لآخرتهم فكانت تجارة بائرة ، أورثتهم دار البوار •

فالقول بأنه لا فرق بين الباء وهمزة التعدية مما لا يلتفت الى دقائق المعانى

ومما هو دليل واضح على أن للباء نشرا دلاليا خاصا بها أنها تجامع همزة التعدية مع مخالفة ذلك لما عليه جمهور النحاة • وقد جاء ذلك فى قوله تعالى : « واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف

---

(٨) الكشاف ١/٢٠٠ •

(٩) حاشية السيد الشريف ١/٢٠١ •

أذاعوا به .. النساء ٨٣ » مما جعل اللغويين والنحاة يفسرونه بما يجعل الباء زائدة . قال أبو عبيدة : (أذاعوا به : أفشوه ، معناها : أذاعوه) (١٠) .

وقال الزمخشرى : يقال : أذاع السر وأذاع به . قال :

أذاع به فى الناس حتى كأنه   بعلياء نار أوقدت بثقوب

ويجوز أن يكون المعنى : فعلوا به الاذاعة ، وهو أبلغ من أذاعوه)(١١).

وليس الوجه الثانى الذى ذكره الزمخشرى الا محاولة للخروج من مجامعة الباء للهمزة كما أشار اليه ابن المنير : (وفى اجتماع الهمزة والباء على التعدية نظر ، لأنهما متعاقبتان ، وهو الذى اقتضى عند الزمخشرى قوله فى الوجه الثانى (فعلوا به الاذاعة) ليخرجها عن الباء المعاقبة للهمزة) (١٢) .

والا فما وجه البلاغة فيما ذكره صاحب الكشاف ؟

ونرى أن الآية تصور دور المنافقين فى نشر الشائعات واثارة الفتنة بين المسلمين ، وهذه الباء تبرز حرصهم البالغ على استصحاب الأخبار المثيرة ، وتوليهم بأنفسهم ايصالها الى جموع المسلمين ، وتبنيهم لها وتعهدها بالمتابعة حتى تحقق أهدافها ، من البلبلة والتشكيك ، وذلك هو معنى اللصوق الذى بثته الباء فى ثنايا النظم ، ولو قال : أذاعوه ، لاقتصر دورهم على نشر الخبر بين جماعة المسلمين ، دون أن يكون فيه تلك المبالغة من حرصهم ومتابعتهم بأنفسهم له .

اعتبار الباء بمعنى همزة التعدية هو الذى جعل المفسرين والنحاة

---

(١٠) مجاز القرآن ١/١٣٣ .
(١١) الكشاف ١/٥٤٨ .
(١٢) الانتصاف ١/٥٤٧ .

يسرعون الى القول بزيادة الباء كلما عنّ لهم موضع اجتمع فيه هذان الحرفان . واذا سألت عن سر زيادتها فأحسنهم رأيا من يقول انها للتأكيد حتى ولو كان الموقف لا يقتضيه ، ودونهم من يقول ان دخولها كخروجها ، وهو القول الذى يجب أن ننزه الكتاب المعجز عن التسلل اليه .

واليك طرفا من هذه النماذج التى قيل فيها ان الباء للتعدية أو زائدة لنقف من خلالها على أسرار هذه الزيادة وأغراض التعدية وأعنى بالزيادة هنا ما يعنيه البلاغيون فيما أسموه بالاطناب ، أى أنها زيادة فى المبنى يقابلها زيادة فى المعنى .

قال تعالى يصف ما أصاب أم موسى من هلع شديد بعد أن ألقت ابنها فى اليم ، وضلت عنها أخباره : (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين .. القصص ١٠ » .

قال أبو حيان تفسيرا للباء فى قوله « لتبدى به » : (والابداء اظهار الشىء ، والظاهر أن الضمير فى (به) عائد على موسى عليه السلام ، فقيل : الباء زائدة ، أى لتظهره ، وقيل مفعول تبدى محذوف أى لتبدى القول به ، أى بسببه ، وأنه ولدها) (١٣) .

ولا أحسب أن أيا من القولين يظهر وجه البلاغة فى دخول الباء على المفعول به ، لأن القول بزيادة الباء دون الكشف عن سر زيادتها يجعل دخول الباء كخروجها ، والقول الثانى ما هو الا محاولة للخروج من اجتماع حرفى التعدية .

وأجد للباء ظلالا لا يخطئها الحس فما فى الباء من معنى اللصوق يدلك على شدة الارتباط الروحى ، وتعلق القلب به ، وكأنه لا يزال فى

---

(١٣) البحر المحيط ١٠٧/٧ .

أحشائها ، أن أصابه سوء فقد أصابها ، وان نزل به مكروه نزل قبله عليها ، وهي حين اشتد بها الهلع وأوشكت على اظهار أمره ، شانها بنفسها تبدى ، وبمصيرها المرتبط بمصيره تغامر . فاللصوق والمصاحبة فى الباء يخلعان على النظم الكريم من معانى الارتباط الوثيق والمصير الواحد والخطر المشترك مالا يؤدى بغير الباء .

أضف الى ذلك ما تضيفه الباء الى زمن النطق بالجملة من بطء نتيجة زيادتها ليواكب الحركة النفسية ، وما يعتمل فيها من تردد بين الاقدام والاحجام ، مما يكشف لك عن أعماق أم تتصارع بداخلها عوامل الخوف ، وتتجاذبها هو اجس متباينة ، بين مصير ابنها المجهول فى البحر ، ومصيره المحتوم على يد فرعون .

وقال تعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن .. النساء ٢٣ » .

لقد أعانت الباء على تحقيق الكناية عن الجماع فى « دخلتم بهن » بما لا يمكن أن تنهض به الحقيقة كما قدرها الزمخشرى بقوله (يعنى أدخلتموهن الستر)(١٤) . مما يدل على قدرة هذه اللغة على الوفاء بآداب الاسلام ، وما يوجبه من الترفع عن التصريح بما يستحسن الكناية عنه ، الى جانب ما جسدته بما فيها من معنى اللصوق من الدلالة على شدة الارتباط والقرب الروحى ، والمخالطة النفسية بين الزوجين ،

---

(١٤) الكشاف ٣/٢١٢ .

بما يحقق الغاية من قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ••• الروم ٢١ » •

وهذا هو الذى جعل القرآن يؤثر البـــاء فى علاقة المؤمنين بالحور العين فى الجنة فيقول : (وزوجناهم بحـــور عين) ولم يأت فى القرآن أبدا : وزوجناهم حورا ، مع صحته • وذلك للاشعار بالملازمة وشـــدة القرب والالتصـــاق • قال الراغب : (« زوجنـــاهم بحور عين » أى قرناهم بهن ، ولم يجىء فى القرآن وزوجنـــاهم حـــورا ، كما يقـــال : زوجته امرأة)(١٥) •

وفى قوله تعالى : « وهزى اليك بجذع النخلة تســـاقط عليك رطبا جنيا •• مريم ٢٥ » • قال الأخفش : (وقال:«هزى اليك بجذع النخلة» لأن الباء تزاد فى كثير من الكلام)(١٦) •

واذا كان الأخفش لم يذكر الغرض من زيادتها فان الزمخشرى قال انها صلة للتأكيد(١٧) وهو الغرض الذى يذكره اللغويون والمفسرون لكل زيادة ، ولو لم يكن هناك ما يستدعى هذا التأكيد •

وأرى ـــ والله أعلم ـــ أن زيادة الباء فيها ارشاد لمريم عليها السلام أن تباشر الهز بنفسها ، ممسكة بالجذع ، ملتصـــقة به دون ما يمكن أن يتبادر من رميه بحجر أو غيره ، مما يتخذه الناس وسائل لاسقاط الرطب وذلك يحقق لها أمرين : أولهما أن تســـتند الى الجذع أثناء هزه ، وهو

---

(١٥) المفردات ٢١٦ •

(١٦) معانى القرآن ٤٠٢/٢ •

(١٧) انظر الكشاف ٢١٢/٣ •

أعون لامرأة تعانى من الضعف والارهاق اثر ولادتها • وثانيها أن الهز المباشر للجذع يساعد على كثرة سقوط الرطب منه • وهذا ملتفت الى ما قاله ابن جنى : (فأما الالصاق فنحو قولك أمسكت زيدا ، يمكن أن تكون باشرته نفسه ، وقد يمكن أن تكون منعته من التصرف من غير مباشرة له ، فاذا قلت : أمسكت بزيد ، فقد أعلمت أنك باشرته وألصقت محل قدرك ، أو ما اتصل بمحل قدرك به ، فقد صح اذن معنى الالصاق)(١٨).

ومما هو جلى واضح فى الفرق بين همزة التعدية والباء ، ما تجده من فرق بين قوله تعالى « انا أنزلناه فى ليلة القدر •• القدر ١ » وقوله: « نزل به الروح الأمين •• الشعراء ١٩٣ » فالأولى حكاية عن انزال الله تعالى القرآن فى هذه الليلة دون أن يذكر معه ما يدل على استصحاب الواسطة له ، والثانية تدل على استصحاب جبريل عليه السلام لما نزل به وفى ذلك دلالة على التكريم والاحتفاء بالمنزل ، ومن أنزل عليه ويدلك على ذلك ما وصف به جبريل عليه السلام من قوله « الروح الأمين » وتعظيم الرسول اجلال لقدر المرسل اليه •

وانظر الى الباء فى قوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون •• الأنعام ١٥٣ » •

وكيف نشرت على سياقها من معانى الالصاق والمصاحبة ، ما لايمكن أن تؤديه تعدية الفعل (تفرق) بنفسه • اذ لو قيل : تفرقكم السبل ، لكان المعنى أن هذه السبل تضل السالكين وتبعدهم عن سبيل الله ، وليس فيه كما هو مع الباء أن السبل فى ذاتها متفرقة ضالة ، لا تلتقى على وجه من الحق ، والسالك لها سيظل حائرا تتنازعه الأهواء ، وتلعب به رياح الضلال ، كل يحاول أن يشده اليه ويمسك به ويستذله ويستعبده

---

(١٨) سر صناعة الاعراب ١/١٣٨ •

وهو منزوع الارادة ، عاجز عن قيادة نفسه • والى هذه النكتة ألمح الألوسي فقال : (والباء للتعدية ، أى فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبا ، فهو كما ترى أبلغ من : تفرقكم كما قيل من أن ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من أذهبه)(١٩) •

ومثله قوله تعالى : « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب •• البقرة ١٦٦ » • لو قيل قطعتهم الأسباب ، لدل على بقاء هذه الأسباب قوية ، وأن المتبوعين لم يلحق بهم سوء ، وأن التابعين وحدهم هم الذين نزل بهم العذاب ، وهذا غير ما قصد اليه النظم من أنهم حين اتخذوا من دون الله أندادا تعلقوا بحبال واهية ، وأسباب ضعيفة ، لم تلبث أن تقطعت بأيديهم حين حاولوا الاستمساك بها ، ظانين أنها تغنى عنهم من الله شيئا ، فاذا التابع والمتبوع فى نار جهنم ، واذا القوة لله جميعا •

وفى قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين •• المؤمنون ٢٠ » قال أبو عبيدة : (« تنبت بالدهن » : مجازه تنبت الدهن ، والباء من حروف الزوائد)(٢٠) •

وهذا لا يلتفت الى الفرق بين تنبت الدهن ، وتنبت بالدهن ، والأول يفهم أنها تنبت ما يصير دهنا ، وليس بلازم أن تكون فترة الانبات مصحوبة بالدهن ، على حين يدل الثانى على أن الدهن يصاحبها منذ الانبات ، وهذا أدل على كمال النعمة وكمال القدرة ، حيث يخرج الله تعالى نباتها ومعه ما ينفع الانسان وييسر حاجاته • واليه ألمح الفخر الرازى حين قال : (أى تنبت والدهن فيها)(٢١) •

---

(١٩) روح المعانى ٥٧/٨ •
(٢٠) مجاز القرآن ٥٦/٢ •
(٢١) التفسير الكبير ٢٠١/٢١ •

وتأمل جلال المصاحبة وما تنطق به الباء من معية الله تعالى ، وقربه من رسوله عليه السلام ، وهو يطوى له الأرض وتسرى به قدرته فى قوله تعالى « هو الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله .. الاسراء ١ » وماذا يفقد النظم بفقد الباء التى يقال انها لا تجامع الهمزة ؟

* * *

الباء ومعنى الاستعلاء

ان المتأمل لأسرار الذكر الحكيم يقف مأخوذا وهو يرى ايثاره للباء تارة ولعلى تارة أخرى فيما يشبه أن يكون موضعا واحدا .

فهذا قوله تعالى خطابا لنوح عليه السلام : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا .. هود ٣٧ » تجد فى الالصاق والمصاحبة بالباء ، مايؤذن بمعية الله تعالى وقربه ، وكأنها تربت على كتف نوح عليه السلام ، وتعلمه بأنه فى حفظ الله ورعايته ، وهو نفس ما قصد اليه النظم فى قوله « وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا .. القمر ١٣ — ١٤ » .

أما قوله تعالى خطابا لموسى عليه السلام : « ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدوٌ لى وعدوٌ له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى .. طه ٢٧ — ٢٩ » فهو سياق آخر مشحونا بالتحدى والادلال بكمال القدرة ، حيث قضت حكمته تعالى أن يربى موسى على يد عدو يتربص به ، ويقتل من أجله جيلا من الأطفال ، ولم يشأ سبحانه أن ينشأ موسى فى الخفاء بعيدا عن فرعون ، امعانا فى التحدى ، واذلالا لفرعون بتسخيره لما أراده العلى القدير ، وحسب من يدعى الألوهية أن يربى بيده من يكون على يديه ذهاب ملكه ، وليس غير (على) يصلح لهذا الموضع بما فيها من معنى الاستعلاء الذى يدل على ظهور موسى وعدم خفائه ، وهو الذى تترصده أعين الملأ من قوم فرعون . وهذا من

دقيق ما كشف عنه السهيلي فيما نقله ابن القيم فرقا بين الموضعين : (ومن فوائد هذه المسألة أن يسأل عن المعنى الذى لأجله قال تعالى : « ولتصنع على عينى » بحرف (على) ، وقال تعالى « تجرى بأعيننا » بالباء « واصنع الفلك بأعيننا » . وما الفرق ؟ فالفرق أن الآية الاولى وردت فى اظهار أمر كان خفيا ، وابداء ما كان مكتوما ، فان الأطفال اذ ذاك كانوا يُغَذَّون ويصنعون سرا ، فلما أراد أن يصنع موسى ويغذى ويربى على حال أمن وظهور ، لا تحت خوف واستسرار دخلت على فى اللفظ تنبيها على المعنى ، لأنها تعطى الاستعلاء ، والاستعلاء ظهور وابداء ، فكأنه يقول سبحانه وتعالى : ولتصنع على أمن لا تحت خوف ، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة . وأما قوله تعالى « تجرى بأعيننا » « واصنع الفلك بأعيننا » فانه يريد برعاية منا وحفظ ولا يريد ابداء شىء ولا اظهاره بعد كتم ، فلم يحتج فى الكلام الى معنى على)(٢٢) .

ومما التبس فيه موضع الباء بعلى قوله تعالى : « ومنهم من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دامت عليه قائما .. آل عمران ٧٥ » .

قال الطبرى : (والباء فى قوله « بدينار » وعلى يتعاقبان فى هذا الموضع ، كما يقال مررت به ومررت عليه)(٢٣) .

والى مثل ذلك ذهب الأخفش وأبو حيان والآمدى وغيرهم(٢٤) من

---

(٢٢) بدائع الفوائد ٢/٥ ــ ٦ .

(٢٣) تفسير الطبرى ٣/٣١٧ .

(٢٤) انظر معانى القرآن ١/٢٠٨ ، والبحر المحيط ٢/٥٠٠ والاحكام فى أصول الأحكام ١/٥٥ .

المفسرين والنحاة ، ذاهبين الى أن فعل الأمن يتعدى بالباء ويتعدى بعلى وأن هذا هو موضع (على) •

وقد بين الفخر الرازى وجه صحة التعدية بالحرفين فقال : (يقال أمنته بكذا ، وعلى كذا ، كما يقال : مررت به وعليه ، فمعنى الباء الصاق الأمانة ، ومعنى (على) اســتعلاء الأمانة ، فمن أؤتمن على شيء فقــد صار ذلك الشيء فى معنى الملتصــق به لقربه منه ، واتصــاله بحفظــه وحياطته ، وأيضا صار المودع كالمستعلى على تلك الأمانة ، والمستولى عليها ، فلهذا حسن التعبير عن هذا المعنى بكلتا العبارتين • وقيل : ان معنى قولك : أمنتك بدينار ، أى وثقته بك فيه ، وقولك : أمنتك عليه ، أى جعلتك أمينا عليه وحافظا له)(٢٥) •

وهذا يتطلب البحث عن سر ايثار كل منهما فى موضــعه • وحين ننعم النظر فيمــا جاء معدى بعلى نجد المؤتمن عليه فى الآيتين اللتين وردتا بعلى فى القــرآن الكريم انســانا عاقلا ، يملك حــرية الارادة والتصرف ، والأمانة عليه تعنى الاشراف والحفاظ عليه من أن تمتد اليه يد بسوء ، أو تعدو عليه عادية مما لا يستطيع دفعه عن نفسه ، و (على) بحكم معناها ترمز الى استعلاء المؤتمن بقوته واستحكام أمره على من أؤتمن عليه • وهذا ما نطق به السياق فى الموضعين •

الأول : قوله تعالى : « قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصــحون •• يوسف ١١ » والاســتعلاء فيه يرمز الى الاشراف والمراقبة والحفاظ على من اؤتمنوا عليه ، كما يرمز الى قوتهم ورجاحة عقولهم بحكم أنهم أكبر منه سنا •

والموضع الثانى : جواب الأب لهؤلاء الذين أدلوا بقدرتهم وحسن

---

(٢٥) التفسير الكبير ١٠٧/٨ •

باشرافهم بعد أن أضاعوا يوسف وجاءوا يطلبون الأب بارسال شـقيقه معهم الى مصر ، وفى طياته اتهام لهم بالتفريط والتقصير ، وأنهم ليسوا أهلا للحفاظ عليه « قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيـه من قبل .. يوسف ٦٤ » .

أما التعدية بالباء فى قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك » فقد جاءت فى سـياق لا يخشى فيه على المؤتمن من عدوان خارجى يتطلب اشراف المؤتمن ، وحفاظه عليه منه ، واستعلاءه بقوته وفكره دفاعا عما اؤتمن عليه ، وانما هو موضع يخشى فيه على الأمانة من ذات المؤتمن ، وقربه من الأمانة والتصاقه بها ، وتمكنه من حيازتها لنفسه ، هو الذى يكشف عن نزاهته أو خيانته ، الأمر الذى امتـدح الله من أجله فريقا من أهل الكتاب لم تغرهم كثرة المـال الذى بين أيديهم بالسـطو عليه ومنعه صاحبه ، وذم الله فريقا آخر لم تمنعهم قلة ما وضع بأيديهم مؤتمنين عليه من حيازته لأنفسـهم ، والامتناع عن رده الى صـاحبه ، الا اذا أجبروا على ذلك .

وهذا موقف لا يصلح فيه غير الباء التى تدل على الصاق المؤتمن بالأمانة وملابسته لها ، ليمتاز الأمين عن الخائن .

وقد ذهب النحاة الى أن فعل المرور يتعدى بالباء كثيرا ، ويتعدى بعلى قليلا ، ولذلك حملوا تعديته بحرف الاستعلاء على أنها تجوز حينا ، وعلى أنها نيابة عن باء الجر حينا آخر ، على أن منهم من رأى تعـديته بالباء مجازا كذلك .

قال فى المفصل : (والباء معناها الالصـاق ، كقولك به داء ، أى التصق به وخامره ، ومررت به وارد على الاتساع ، والمعنى : التصـق

مروری بموضع یقرب منه)(٢٦) •

ولعله يقصد بذلك أنه مجاز مرسل علاقته المجاورة • وقال سيبويه: (وأما مررت على فلان فجرى هذا كالمثل ، وعلينا امير كذلك ، وعليه مال ايضا ، وهذا لأنه شيء اعتلاه ، ويكون مررت عليه أن يريد مروره على مكانه ، ولكنه اتسع)(٢٧) •

وكلام سيبويه فى التجوز بعلى يعطى احتمالين ، أن يكون مجــازا بالاســتعارة مثل قولك (عليه مال) وأن يكون مجازا مرســلا علاقته المجــاورة •

ومع تسليم ابن هشام بأن كلا من الالصاق والاستعلاء فى تعدية فعل المرور بالباء وعلى وارد على ســبيل التجــوز ، فانه ذهب الى أن التعــدية بالباء أكثر اســتعمالا ، وهى أولى أن تكون أصــلا ، وحرف الاســتعلاء نائب عنها : (ان كلا من الالصــاق والاستعلاء انما يكون حقيقيا اذا أفضى الى نفس المجرور ، كأمسكت بزيد ، وصــعدت على السطح • فان أفضى الى ما يقرب منه فمجاز ، كمررت بزيد ، فى تأويل الجماعة ، وكقوله :

● وبات على النار الندى والمحلق ●

فاذا استوى التقديران فى المجازية فالأكثر استعمالا أولى بالتخريج عليه ، كمررت بزيد ومررت عليه ، وان كان قد جاء فى «لتمرون عليهم» « يمرون عليها » :

● ولقد أمر على اللئيم يســبنى ●

---

(٢٦) المفصل ٢٨٥ •

(٢٧) الكتاب ٤/٢٣٠ ط • هيئة الكتاب •

الا أن مررت به أكثر ، فكان أولى بتقديره أصلا)(٢٨) •

ولا أدرى علام بنى حكمه بكثرة تعدية هذا الفعل بالباء • وقد جاء المرور معـــدى بعلى فى القرآن أربع مرات ، على حين جاء معدى بالباء ثلاثا فقط ؟ ومع ذلك فلم يقل لنا أحـــد منهم ما سر ايثار أحد الحرفين على الآخر فى موضعه ، سواء أكان مستعملا على سبيل الحقيقة أم واردا على الاتساع •

وباستعراض الأمثلة التى تعدى فيها بعلى تجدها جميعا تدل على مجاوزة المرور عليه بالسير دون تلبث ، وللاستعلاء فيها دلالة على أن المـــار شامخ بأنفه ، لا يلقى لمـــا مر به بالا ولا يعيره اهتماما ، كما هو واضح فى قوله تعالى : « وكأين من آية فى الســـموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضـــون •• يوسف ١٠٦ » وقوله تعـــالى عقب ذكر قصص الغابرين « وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون •• الصافات ١٣٧ ــ ١٣٨ » نعيا على المخـــاطبين وتوبيخـــا لهم على عدم اكتراثهم بما حدث لأمم قبلهم كانت أشد منهم قوة وأكثر بأسا •

وحرف الاستعلاء فى قوله تعالى « ويصـــنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه •• هود ٣٨ » يجسد نظرة التعالى والاستهانة بما يصنع نوح والسخرية منه •

أما قوله تعالى : « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها •• البقرة ٢٥٩ » فربما يتوهم أن المار متلبث يعالج فكرا ، ويدقق نظرا ، وليس مجاوزا للمكان مستعليا عليه ، وهو موضع الباء لا موضع على ، فاذا فتشت وجـــدت أن المـــار هنا لم يدقق نظـــرا ويعمل فكرا ، بل هى خاطرة عابرة ألقـــاها على لســـانه وهو يغذ السير ، ويلهب ظهر حماره ليجاوز القرية التى ألقت فى روعه

أنه الموت الذى لا تعقبه حياة ، ولو كان متأملا متدبرا لاهتدى الى عكس ما تفوه به .

فاذا جئنا الى ما هو معدى بالباء ، كقوله تعالى : « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون ، واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين .. المطففين ٢٩ — ٣١ » .

سمعت للباء همسا مؤداه أن هؤلاء المجرمين كانوا يتعمدون الذهاب الى المؤمنين ، والتحرش بهم ، وايذاءهم بالحركة والكلمة ، فهو ليس مرور العابر ، وانما هو مرور فيه تلبث واحتكاك وقرب وملاصقة . ولعل قوله تعالى : « واذا انقلبوا الى أهلهم » يشعرك بأنهم ذهبوا قاصدين اليهم ، متوقفين عندهم ، ولم يكن مرورهم عابرا فرضته الطريق عليهم . وقد يقال ان هناك ما ظاهره ينقض ذلك ، وهو قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما .. الفرقان ٧٢ » اذ الأليق بمقام عباد الرحمن اذا وجدوا لغوا أن يبتعدوا عنه ، ويستعلوا عليه ويجاوزوه دون توقف ، وهذا موضع على . فما للنظم الكريم عدل عنها الى الباء ؟

أقول — والله أعلم بمراده — ان الآية قصدت الى وصفهم بالثبات وقوة اليقين ورزانة الأحلام ، بحيث يستطيعون المحافظة على نزاهة ألسنتهم وأسماعهم وقلوبهم من اللغو مهما التصق بهم اللاغون ، واقترب منهم العابثون ، وذلك أدخل فى المدح وأبلغ فى الثناء ، وليس بمنجاة من مخالطة السفهاء واللاهين ، والحياة معترك قد يفرض على الانسان ما لا يهواه ، وكمال الايمان فى أن يظل المسلم طاهرا ، ولو أحاطت به النجاسات ، أما الاعراض عن اللغو فذلك ديدن المسلم حين يجد مندوحة عنه كما يصوره قوله « واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » وذلك وصف آخر بابتعادهم عن مواطنه .

وقوله فى الآية الثالثة والأخيرة من تعدى المرور بالباء « فلماتغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به .. الأعراف ١٨٩ » لا يصلح فيه سـوى الباء ، لأن المرور به محمـول فى بطن ، ولا يمكن اسـتعلاؤه عليه ، والمعنى : (فمضت به الى وقت ميلاده من غير اخداج ولا اذلاق)(٢٩).

يقول الدكتور / محمد حسن عواد : (ان الفعل (مر) تعدى بالباء تارة ، وتعدى بعلى تارة أخرى ، وأدى الفعل (مر) مع كل حرف من الحرفين معنى مختلفا عن المعنى الذى يؤديه مع الحرف الآخر : (فمر على) هو مرور مصحوب بالاستعلاء ، ومر بالمكان هو مرور مع ملاصقة ولو كان معنى الحرفين واحـدا لاقتصر على حرف واحد . والغريب أن الذين أجازوا وقوع بعض الحـروف موقع بعضـها الآخر ذهبوا الى افتراض بعيد لا يقوم على أساس ، وهو أن الفعل « مر » الأصـل أن يتعدى بعلى ، وأن الباء واقعة موقع على ، وذهبوا تارة أخرى الى أن الأصل أن يتعدى هذا الفعل بالباء ، وأن على وقعت موقع الباء)(٣٠).

وذهب بض المفسرين الى أن الباء بمعنى على (٣١) فى قوله تعالى: « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا .. الأعراف ٨٦ » .

والباء فيه توحى بالتربص وطول المكث والتلبث بالطرقات ، انتظارا للمارين واصرارا على صدهم عن سبيل الله ، وكأنهم أقاموا بكل صراط اقامة دائمة ، فهم ملازمون للصراط ملتصقون به وفى ذلك من المبالغة فى

---

(٢٩) الكشاف ١٣٦/٢ .

(٣٠) تناوب حروف الجر فى لغة القرآن ١٧ .

(٣١) انظر تفسير البيان للطوسى ٤٤٦/٤ ومجمع البيان للطبرسى ٤٥٥/٤ .

حرصهم على منع الهدى عن الناس ما لا يخفى ، وليس بمثله يوحى حرف الاستعلاء .

وفى قوله تعالى مصورا نهاية معركة أحد وما نزل بالمسلمين نتيجة مخالفتهم لرسول الله : « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم .. آل عمران ١٥٣ » .

قال الطبرى : (وأما قوله « فأثابكم غما بغم » فانه قيل : غما بغم معناه : غما على غم كما قيل : ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، وانما جاز ذلك ، لأن معنى قول القائل : أثابك الله غما على غم ، جزاك الله غما بعد غم يقدمه ، فكان كذلك معنى : فأثابكم غما بغم ، لأن معناه : فجزاكم الله غما بعقب غم يتقدمه وهو نظير قول القائل : نزلت ببنى فلان، ونزلت على بنى فلان ، وضربته بالسيف وعلى السيف(٣٢) .

مفهوم هذا الكلام أن الباء وعلى يؤدى كل منهما ما يؤديه الآخر وعليه فسيان قولك فأثابكم غما على غم ، وقوله : (فأثابكم غما بغم) مع أنه سبق للطبرى أن رفض مثل ذلك القول وما يؤدى اليه من تناوب الحروف (لأن لكل حرف من حروف المعانى وجها هو أولى به من غيره ، فلا يصلح تحويل ذلك عنه الى غيره ، الا بحجة يجب التسليم لها)(٣٣) وهو الرأى الذى ينشرح له الصدر ويليق بلغة القرآن الكريم ، لذلك أرانى أميل الى أن الباء على أصلها من معنى الالصاق والاختلاط ، وهى تشير الى أن الغم الثانى كان موصولا بالأول ، وملتصقا به ، زيادة فى ابتلاء الله تعالى لهم على ما خالفوا فيه رسولهم ، وجزاء ما ألهتهم الدنيا بغنائمها عن واجب الطاعة لنبيهم ، اذ أن توالى الغم واعقابه لغم سبق أشد على المبتلى من تفريقه . وهذا ما يشير اليه رأى

---

(٣٢) جامع البيان ٤/٨٨ .

(٣٣) جامع البيان ١/١٣١ .

نقله الخازن (وقيل الباء على بابها ، والمعنى : غما متصلا بغم) •

وذهب الزجاجى(٣٤) الى أن البـاء بمعنى على فى قوله تعـالى « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسـوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا •• النسـاء ٤٢ » على أن المعنى : لو تسـوى عليهم الأرض •

لكن المبالغة التى تؤديها الباء تضيع حينئذ ، ويضيع معها ما يهدف اليه النظم من أن ما يراه الكافرون يوم القيـامة من أهوال وما يتكشف لهم من سوء العذاب يجعلهم يتمنون أن يكونوا ترابا يتداخل مع تراب الأرض ، ويختلط به ، حتى لا يكون لهم أثر يدل عليهم ، وهذا هو معنى الالصاق والاختلاط الذى يشرق من البـاء • وهو ينسـجم تماما مع ما صرح به القرآن فى آية أخرى « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا •• النبأ ٤٠ » •

أما حرف الاسـتعلاء فى (تسـوى عليهم) فانه لا يزيد عن كون الأرض صارت قبورا لهم ، وهو دون الباء مبالغة فى تصوير ما أصابهم من الحسرة والفزع من العذاب •

* * *

الباء ومعنى الظرفية

يرد كثيرا على ألسنة النحاة والمفسرين وشراح النصوص الأدبية قولهم ان الباء بمعنى فى ، ذاهبين الى أنها تخلع معنى الالصاق وتفارقه لتدل على الظرفية • من مثل ما قاله الأخفش فى قوله تعالى : « وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار •• الزمر ٥٥ » •

---

(٣٤) انظر كتاب حروف المعانى ٨٦ •

(يريد فى الابكار ، وقد تقول : بالدار زيد ، تريد زيد فى الدار)(٣٥) .

وما قاله الألوسى فى قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك .. الاسراء ٧٩ » قال : (والباء للظرفية ، أى فتهجد فى ذلك البعض)(٣٦) وما قاله العكبرى فى قوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار .. الأنعام ٦٠ » .

قال : (قوله تعالى : « بالليل » الباء هنا بمعنى فى ، وجاء ذلك لأن الباء للالصاق ، والملاصق للزمان والمكان حاصل فيهما)(٣٧) .

وما قاله التبريزى فى شرح المفضليات تفسيرا لبيت المرقش :

ومنزل ضنك لا أريد مبيته   كأنى به من شدة الروع آنس

قال : (أى كأنى فيه من شدة الروع آنس مكروها)(٣٨) .

واذا كان أبو البقاء قد علل سر مجىء الباء بمعنى الظرفية باعتبار ملاصقة الحدث للزمان والمكان ، فان ذلك لا يفسر اختصاص الباء بما هو موضع (فى) .

ويبدو لى — اتكاء على المدلول اللغوى لكل من حرفى الوعاء والالصاق ، وانبعاثا مما يشيعه الحرفان من دلالات ثانوية — أن حرف الظرفية يتلاءم مع كل ما يراد به الدلالة على التمكن والاستقرار ،

---

(٣٥) معانى القرآن للأخفش ٤٦٣/٢ .

(٣٦) روح المعانى ١٣٨/١٥ .

(٣٧) املاء ما من به الرحمن ٢٤٥/١ .

(٣٨) شرح المفضليات ٨٢١/٢ .

والضرب فى أعماق الشىء والتغلغل فى أطوائه ، اســتمدادا من احاطة الظرف بمظروفه واحتوائه له ، واشتماله عليه ، فى حين يستجيب حرف الالصــاق لكل غرض يراد منه مطلق التلبس والمصــاحبة لأى جزء من أجزاء الملتصق به ، دون الدلالة على الدخول فى أعماقه ، والاختفاء فيه .

وباستعراض الأمثلة التى أوردتها نماذج لــا قيل ان الباء فيهــا دالة على الظرفية نجد هذه الدقائق واضحة ، تنادى بجلال هذه اللغة ، وتشهد باعجاز ما نزل بلسانها .

فبيت المرقش السابق تجد الشاعر فيه يعانى من ضــيق بمنزله ، واحساس يغمره بالخوف والرعب ، أفقده ما يجب أن يشيعه البيت فى نفس آهله من الطمأنينة والأمان ، فخلع علينا من نفســه بهذه البــاء ما يجسد أمامنا معاناته ، وينقل الينا رؤيته فى كونه لا يحس فى بيته طعم الأمن ، ولا يشعر بأنه يوفر له الحماية ، وهو ما لا يمكن أن يؤدى بحرف الوعاء الذى يشيع فى النفس دلالة التمكن والاستقرار .

وما جاء من الــكتاب العزيز عدولا عن حرف الظرفيــة الى حرف الالصاق ، فى قوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار .. » قصد منه الدلالة على وقوع الوفاة بأى جزء من أجزاء الليل وليس خصوص أعماقه ووسطه كما يوحى به حرف الظرفية ، ايماء الى استغراق الزمن كله ، ومثله العــلم بما كسبت أيدى الناس بالنهار كل النهار لا خصوص وقت هو أدخل فيه وأكثر تمكنا . يدل لذلك أن القرآن حين أراد الكشف عن نفاذ علمه تعالى واحاطته بالخفى من أسرار خلقه عدل الى حرف الظرفية فى قوله تعالى : « وله ما سكن فى الليل والنهار .. الأنعام ١٣ » اذ أن العلم الذى يدرك الساكن فى أعماق الليل ، حيث يكون الظلام على أشده ، والعالم أشبه بالموتى يلفهم السكون من كل جانب ، ويدرك المتحــرك فى وسط النهــار ، حيث تشــتد حركة الناس

لا يعجزه أن يدرك الساكن والمتحرك فى أطرافهما وحواشيهما لذلك ذيله بقوله « وهو السميع العليم » •

ومن ثم فقد جاءت آيات القرآن مؤثرة حرف المصاحبة والالصاق فى كل ما قصد به استغراق الزمن كله ووقوع الحدث فى أى جزء من أجزائه ، دون القصد الى أعماقه او الدلالة على التمكن فيه ، وهو الذى دأب المفسرون على تفسيره بالظرفية ، مثل قوله تعالى : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم •• البقرة ٢٧٤ » وقوله « والمستغفرين بالأسحار •• آل عمران ١٧ » وقوله « وسبح بالعشى والابكار •• آل عمران ٤١ » وقوله « ومن آياته منامكم بالليل والنهار •• الروم ٢٣ » وقوله : « قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن •• الأنبياء ٤٢ » وقوله : « يسبحون له بالليل والنهار •• فصلت ٣٦ » وهو قليل من كثير جاء فيها حرف الالصاق دالا على ملابسة هذه الأحداث للزمن كله ووقوعها فى أى جزء من أجزائه وحاول استبدال حرف الظرفية بالباء لترى أى جناية على النص ترتكب باسم تناوب الحروف •

وقل مثل ذلك حين تدخل الباء على المكان فانها تدل على وقوع الحدث به دون قصد الى احتواء المكان له ، وتمكنه فيه ، بل مجرد الملابسة له والالتصاق بأى جزء من أجزائه • والمثل على ذلك قوله تعالى:«ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم•• ابراهيم ٣٧ » فقد دلت الباء على عدم تمكنهم فى هذا المكان واستقرارهم فيه ، حيث لا تتوافر فيه عوامل بناء الحضارات من زروع وثمار ، وموارد تفرض على المقيمين التمسك بالمكان ، ولا الحماية والأمن الذى يجعلهم مطمئنين فى ربوعه • حياة التنقل اذن وعدم الاستقرار لا يلائمها حرف الظرفية ولا يتناغم معها غير حرف الملابسة •

ومثله قوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة •• آل عمران ١٢٣ » فلم تكن بدر حصنا يحتمى به المسلمون ، ولا صياصى

يعتصمون فيها ، ، وانما هى أرض مكشـوفة وساحة قتال ومكان للكر والفر ، وظهور المسلمين على عدوهم فى هـذا المكان ليس راجعـا الى طبيعة خاصة فيه ، وانما هو فضل الله وعونه ، ولو جاءت (فى) لأشعرت بأن للمكان طبيعة خاصـة حماهم الله فيها من عدوهم ، وذلك يتنافى مع الغرض الذى يهدف اليه السياق من ارجاع الفضـل فى النصر الى الله وحده ، كما يدل عليه نسبة فعل النصر الى الله ، والجملة الحالية « وأنتم أذلة » .

وأوضح من ذلك دلالة على عدم التمكن والاستقرار والايحاء بمجرد الملابسـة ، وقوع عين الرائى على السراب الخادع الذى لا يلبث أن يفارق المكان كلما تقترب منه فى قوله تعـالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا .. النور ٣٩ » وهو ما لا يصلح فى التعبير عنه غير حرف الملابسة . دالا على أن هـذا السراب ليس غائرا فى القيعـة ولا متمكنا فيهـا . بل هو مجرد وهم خادع .

وهذا معنى الالصاق بما يحمله من دلالة على عدم التمكن استطاع أن يبرز حالة القلق وما ينتاب المنـافقين من هلع حين تهـاجم بيوتهم فيسرعون الى تركها ، فى قوله تعالى : « ويسـتأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا .. الأحزاب ١٣ ــ ١٤ » فهل يتلاءم مع هذا أن يقال وما تلبثوا فيها ؟ وهم الذين يوشكون على الفرار مع أول داخل عليهم ؟

وهذه لطيفة من لطائف النظم الحكيم هى أظهر دليل على أن للباء طعما يختلف فى مذاقه ورائحته عن حرف الوعاء ، مهما بدا أنهما سواء . ذلكم هو قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشـاء بيدك الخير انك على كل

شىء قدير .. آل عمران ٢٦ » فأنت تلمس فى الآية غطاء الرحمة يجلل سيف القوة والجبروت ، كما يدل عليه المنـــح قبل المنع ، والاعزاز قبل الاذلال ، ثم تغطى فيوضـــات الرحمة منفـــردة بالخير فى قوله « بيدك الخير » وتجىء الباء مشـــيرة الى الفيض والعطـــاء ، لا الى الحرمان والامساك ، ولو جئت بدلا منها بحرف الظرفية الدالة على احاطة اليد بالخير ، واحتوائها له ، لوشى ذلك بالمنع والامساك ، وهو عكس ماأوحت به الباء ، وذلك الذى استدعى حرف الالصاق هنا هو الذى استدعاه فى قوله تعالى : « وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم .. الحديد ٢٩ » ألا ترى الى قوله « والله واسع عليم » بما يدل على تدفق فضله وعطائه .

وحين قصد القرآن الى التمكن وشدة الامساك والاحاطة بالممسك به جاءت فى دالة على هذا الغرض فى قوله تعـــالى : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى .. الأنفـــال ٧٠ » لمـــا أن المســـلمين كانوا متمكنين من أسراهم يحيطون بهم احاطة السوار بالمعصم ،وهو موضع (فى) لا موضع الباء .

ويروعك جلال النظم الحكيم حين تقـــارن بين تعدى المشى بالباء وتعديه بحرف الوعاء فى قوله تعالى : « يكاد البرق يخطف أبصـــارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه .. البقرة ٢٠ » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برســـوله يؤتكم كفلين من رحمتـــه ويجعل لكم نورا تمشون به .. الحديد ٢٨ » .

فالمنافقون فى الآية الأولى لم يتخذوا القرآن نورا وهداية ، كما اهتدى به غيرهم ، فاذا به يضىء من حولهم ، ولا يضىء لهم ، وينتفع به سواهم وهم لا ينتفعون ، لذلك هم يتخبطون فى الضـــوء ويتعثرون فيه ولا تستطيع أبصارهم أن تتعدى مواطن أقدامهم .

والمؤمنون كما تصورهم الآية الثانية يهتدون بالقرآن ، وتصحبهم هدايته ، يضيء لهم السبيل ، ويبلغهم الأماني وهو معهم لا يفارقهم . أرأيت كيف يضع القرآن كل حرف موضعه الأمكن فيه .

وهاتان آيتان أخريان ناطقتان باعجاز الكتاب العزيز ، هما قوله تعالى موصيا الأبناء بآبائهم : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا .. العنكبوت ٨ » وقوله فى ايصاء الآباء بأبنائهم « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين .. النساء ١١ » فغاية ما يطلب من الأبناء هو احسان صحبة آبائهم كبارا ، والصاق الاحسان بهم ، ومثله أمر فطرى فى الآباء لا يحتاج الى وصية ، بل ان الخوف عليهم من الافراط فى الحب والعطف لأبنائهم أكثر من الخوف على جفاء الأبناء لوالديهم . ومن ثم تعدى القرآن مرحلة الاحسان بالأبناء الى الوصية فيهم بتوزيع الميراث بينهم بالعدل الذى ارتضاه الله شرعا لخلقه ، لما له من أبلغ الأثر فى نفوس الأبناء ، وكأن القرآن يقول للآباء : انكم حين تقسمون التركات بين أبنائكم انما تتعدون ظواهرهم ، وتغرسون فى قلوبهم المودة ، أو تملأونها حقدا وكراهية ، واعلموا أن مجاوزة العدل الذى شرعه الله بمثابة الطعنة النافذة فى قلوب أبنائكم ، لذا عدى فعل الايصاء احسانا بالوالدين بحرف الالصاق ، وعدى فعل الايصاء بفى الظرفية حين كان الموصى هم الآباء والموصى به هو العدل بينهم . والموصى فيه هو قلوب الأبناء .

أما قوله تعالى : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر .. القمر ٣٦ » فان الباء فيه تحمل معنى الاستخفاف والاستهزاء من قوم لوط بنبيهم دلالة على عدم اكتراثهم والقاء بال لما أنذرهم به ، ولم تكن النذر محل جدال ونقاش بينهم ، اذ أن الجميع لهم رأى واحد فيها ، وانما تناقلوها بينهم تناقل المستهزىء بها ، الساخر منها ، لذلك لم يتعد

فعل المراء بحرف الوعاء ولم يقل : تماروا فى النذر ، حتى لا يتبادر الى الأذهان أنهم شغلوا أنفسهم بها ، وجعلوها محلا للجدل ، وتبادل الفكر فيها ، ولا داعى الى التضمين الذى لجأ اليه المفسرون تصحيحا لتعدية المراء بالباء ذاهبين الى أنه مضمن معنى التكذيب ، ولولاه لتعدى بفى(٣٩) .

* * *

الباء ومعنى التبعيض

قليلا ما التبس معنى الباء بمعنى التبعيض فى حرف الابتداء ، والمواضع التى استشهد بها من القرآن لدلالة الباء فيها على التبعيض تقل عن عدد أصابع اليد الواحدة مما لا يجعلنا نتوقف طويلا عند هذا المعنى للباء .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين .. المائدة ٦ » .

كان لتعدى فعل الغسل الى الوجوه والأيدى والأرجل بنفسه ، وتعدى فعل المسح الى الرأس بالباء أثره فيما دار من خلاف حول الغرض من مغايرة النظم ، وأذكى هذا الخلاف تدخل الفقهاء فيه بما يجمع بين المعنى اللغوى للباء ، وما ثبت لهم من فعل الرسول عليه السلام ومسحه ببعض رأسه . فتمسك اللغويون بأصل الباء من الدلالة على الالصاق ، وأيدهم من الفقهاء من يرون وجوب مسح جميع الرأس ، وتمسك الشافعى بدلالة التبعيض فيها : (ومذهب ابن جنى أنها زائدة فى قوله تعالى « وامسحوا برءوسكم » لأن الفعل يتعدى الى مجرورها

---

(٣٩) انظر روح المعانى ٢٧/٩٠ .

بنفسه ، وعند غيره من الأئمة ـ منهم الشافعى ـ أنها تبعيضـة ، أى بعض رءوسكم .

قال ابن جنى : أهل اللغة لا يوردون هـذا المعنى ، وانما يورده الفقهـاء)(٤٠) .

وقد ذهب الآمدى الى أن دلالة الباء على التبعيض لا تنافى دلالتها على الالصـاق . فقال مفسرا وجهـة القائلين بمسـح جميع الرأس ، والقائلين بمسح بعضه : (منهم من قال انه بحكم وضع اللغة ظاهر فى مسح جميع الرأس وهو مذهب مالك ، والقاضى عبد الجبار ، وابن جنى ، مصيرا منهم الى أن (الباء) فى اللغة أصل فى الالصاق كما سبق تعريفه وقد دخلت على المسح وقرنته بالرأس ، واسـم الرأس حقيقة فى كله لا بعضه ، ولهذا لا يقال لبعض الرأس رأس ، فكان ذلك مقتضيا لمسح جميعه لغة ، وهذا وان كان هو الحق بالنظر الى أصل وضع اللغة . غير أن عرف استعمال أهل اللغة الطارىء على الوضع الأصلى حاكم عليه ، والعرف من أهل اللغة فى اطراد الاعتياد جار باقتضـاء الصاق المسـح بالرأس فقط مع قطع النظر عن الكل والبعض ، ولهذا فانه اذا قال القائل لغيره « امسح يدك بالمنديل » لا يفهم منه أحد من أهل اللغـة أنه أوجب عليه الصاق يده بجميع المنديل ، بل بالمنديل ، ان شاء بكله ، وان شـاء ببعضـه)(٤١) .

فالتبعيض المفهوم ليس حقيقـة ، وانما هو مجاز مرسـل من باب اطلاق الكل وارادة الجزء ، وليس من حقيقة البـاء ، وهذا ما أوضحه المـالقى بقوله : (والصحيح أن الباء فى ذلك كله للالصاق ، كما تقـدم فى المعنى الثالث ، وانمـا التبعيض الذى يمكن فى التمثيـل فى الآية على

---

(٤٠) حروف المعانى تأليف : عبد الحى حسن ٤١ .

(٤١) الاحكام فى أصول الأحكام للآمدى ١٤/٣ .

المجاز ، لا أصل للباء فيه ، فهو مثــل قولك : ضربت زيدا ، وأنت تريد بعضه ،باطلاق اللفظ مجازا)(٤٢) •

أما سر العدول الى تعدية الفعل بالباء مغايرا بينه وبين تعدية فعل الغسل بنفسه فذلك لأن المسح لا بد فيه من الصــاق اليد بالممســوح ومباشرته ، بخلاف الغسل الذى يتحقــق بصب المــاء على العضــو ، ولو لم يباشره العضو الغاسل ،وأوضح دليل على ذلك أن الوجه واليدين عدى اليهما فعل الغسل بنفسه فى الوضوء ، وعدى اليهما فعل المســح بالبــاء فى التيمم ، لمــا كانا من الممســوحات • قال تعالى :« فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه •• المــائدة ٦ » فالباء اذن جىء بها للدلالة على مباشرة المســح باليد للرأس والصــاقه بها • وليس التبعيض من دلالتها •

ومما قيل فيــه ان الباء بمعنى من ، قوله تعــالى : « ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا •• الانسان ٥ ــ ٦ » •

قال ابن قتيبة : (تقول العرب : شربت بمــاء كذا وكذا ، اى من ماء كذا ، قال الله تعالى : « عينا يشرب بها المقربون » و « عينا يشرب بها عباد الله » ويكون بمعنى : يشربها عباد الله ويشرب منها)(٤٣) •

وللزمخشرى وجه لطيف فى جعل الباء على أصلها • قال : (فان قلت لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولا (يقصد : يشربون من كأس) وبحرف الالصاق آخرا ؟ قلت : لأن الكأس مبدأ شربهم ، وأول غايته ، وأما العين فبهــا يمزجون شرابهم ، فكأن المعنى : يشرب عباد الله بهــا

---

(٤٢) رصف المبانى ٢٢٤ •
(٤٣) تأويل مشكل القرآن ٥٧٥ •

الخمر ، كما تقول : شربت المـاء بالعسل)(٤٤) •

وأجد فى الباء هنا دلالة تهمس بأن العين هى مستراحهم ، والمكان الذى يجدون فيه متعة العين ، وسعادة النفس ، فالكأس بأيديهم وهم على حافة العين يشربون ، كلما فرغت الكأس ملأوها منها ، ولذة الشرب ممزوجة بلذة العين ، فجاءت الباء دالة على التصـاقهم بالعين وقربهم منها • يؤيده وصف القرآن للجنات « تجرى من تحتها الأنهار » وليس جريان الأنهار تحت المؤمنين الا امتاعا لأنظارهم ، واسعادا لأنفسهم وليس لمجرد الشرب دنت منهم الأنهار •

* * *

الباء ومعنى الانتهاء

تعدى فعل الاحسان فى القرآن بالى وتعدى بالباء ، فحمل بعض النحاة والمفسرين تعديته بالباء على تعديته بالى ، ذاهبين الى أن الأصل فى تعدى هذا الفعل هو حرف الغاية ، ومن ثم قالوا بأن الباء بمعنى الى ومن لم يرقله القول بنيابة حرف الالصـاق عن حرف الغاية لجـأ الى تضمين فعل الاحسان معنى اللطف لتصح تعديته بالباء •

ولا أدرى سببا لجعل حرف الغاية هو الأصل فى تعدية هذا الفعل به ، مع أنه لم يرد فى القرآن معـدى بالى الا مرة واحـدة ، هى قوله حديثا عن قارون فى خطاب قومه له : « وأحسن كما أحسن الله اليك •• القصص ٧٧ » وورد خمس مرات معدى بالباء • مثل قوله تعـالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا •• النساء ٣٦ » كما ورد معدى باللام مرتين ، كقوله تعالى : « قد أحسن الله له رزقا •• الطلاق ١١ » •

والقول بأصالة تعدى الفعل بحرف لكثرة وروده ، ونيـابته عن

---

(٤٤) الكشاف ٤/١٩٦ •

الآخر لقلة التعدى به ، لا يمكن التسليم به الا فى ضـــوء دراسة لتاريخ الألفاظ ونشأتها وتطورها ، واحصـــاء دقيق لاســـتعمالاتها فى عصـــور الاستشهاد ، وهو ما لم يتيسر بعد لهذه اللغة • ومن ثم فاننى أميل الى ما قاله أحد الباحثين : (فلا يجوز أن نصف فعـــلا بالتعدى الا اذا كان متعديا فى جميع أحواله فى عصور الاحتجاج ، وكذا الفعل اللازم لانصفه باللزوم الا اذا كان فى جميع استعمالاته لازما ، وكذا الفعل الذى يشيع تعديه بحرف ، ثم نجده يتعدى بحرف آخر ، لا يجوز أن نصفه بأنه متعد بهذا الحرف دون ذاك ، لأن هذه الأحوال صـــح ثبوتها فى الكلام الذى يحتج به)(٤٥) •

وأرى ـــ طبقا لتتبع ما جاء فى الذكر الحكيم ـــ أن فعل الاحسان يتعدى بالباء واللام والى ، ولكل تعدية موضعها وغرضها •

فقوله تعالى : « ان أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها ••الاسراء٧» قصـــد به بيان غنى الله تعالى عن احســـان خلقه ، فهو لا ينتفع بطاعة كما لا تضره معصية ، فاحســـان المرء لا يجنى ثمرته غيره ، ولا ينتفع بنتائجه ســـواه • ومن ثم جاءت الام دالة على اختصـــاص المحســـن باحسانه ، ولم يقصد به ايقاع الاحسان بأنفسهم ، لا الصـــاقه بهم • ولا ايصاله اليهم ، حتى تجىء الباء أو الى •

وقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : « وقد أحسن بى اذ أخرجنى من الســـجن •• يوسف ١٠٠ » لم يقصـــد به مجرد ايصـــال الاحسان اليه وانهائه ، بل قصد من احسان الله تعالى أنه صحبه فى رحلة حياته كلها ، ولم يفارقه لحظة من لحظاته ، وهذا هو معنى الباء بما فيها من الالصاق والمصاحبة ، والقول بتساوى المعنى فى تعدى الفعل بالحرفين

---

(٤٥) تناوب حروف الجر فى لغة القرآن ٧١ •

لصحة وروده بهما ، تضيع معه أغراض النظم ، وان قال به أكثر المفسرين استلهاما لبلاغة الذكر الحكيم كما جاء فى الكشاف : (يقال : أحسن اليه ، وبه ، كذلك أساء اليه ، وبه ، وقال :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة)(٤٦)

وهو واضح فى أنه لا فرق فى المعنى بين التعديتين . كما أن القول بتضمين الفعل معنى لطف(٤٧) هو من قبيل البحث عن فعل يتعدى بالباء ولذلك اختلفوا فى تقدير هذا الفعل المضمن .

وخير من كشف عن بلاغة تعدى الفعل بالباء هنا هو الزركشى حين قال : (فانه قال : أحسن بى والى وهى مختلفة المعانى ، وأليقها بيوسف عليه السلام « بى » لأنه احسان درج فيه ، دون أن يقصد الغاية التى صار اليها)(٤٨) .

يؤيد ما قاله الزركشى تعديد يوسف عليه السلام لمواطن الاحسان الذى درج فيه «اذ أخرجنى من السجن واذ جاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى » وما بين السجن والمجىء بهم من البدو كثير مما طوى من احسان الله ، انجاء من فتنة امرأة العزيز ، وتوليته ملك مصر ، وايواء أخيه اليه ، وغير ذلك مما لا يحصى .

وقد أعجبنى ما ذكره المرحوم رشيد رضا فى تفسيره عند قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » قال : (يقال : أحسن به وأحسن له ، وأحسن اليه ، وقيل اذا تعدى الاحسان بالباء يكون متضمنا لمعنى العطف ، وعندى أن التعدية بالباء أبلغ ،

---

(٤٦) الكشاف ٣٤٤/٢ .

(٤٧) انظر البحر المحيط ٣٤٨/٥ .

(٤٨) البرهان فى علوم القرآن ١٧٦/٤ .

لاشعارها بالصاق الاحسان بمن يوجه اليه ، من غير اشعار بالفرق بينه وبين المحسن ، والتعدية بالى تشعر بطرفين متباعدين يصل الاحسان من أحدهما الى الآخر)(٤٩) •

وهو معنى دقيق يلمح الى قرب المحسن من المحسن اليه، وحبه له، ومصاحبته باحسانه دون اشعاره بذلك الاحسان • وهو ما استوجب الباء فى احسان الله بيوسف ، واحسان الأبناء بوالديهم ، واشعارهم بأنه رد جميل لهم، لا مجرد تفضل وتعطف عليهم ، واستوجب حرف الغاية فى قوله تعالى : « وأحسن كما أحسن الله اليك » الماحا الى بعد قارون عن ربه ، وأن احسان الله تعالى اليه ، ليس مصحوبا بمعية الله تعالى وحبه • وانما هو من قبيل الاستدراج لا من قبيل الاكرام •

وقال ابن الجوزى فى قوله تعالى خطابا لقوم لوط : « أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين •• الأعراف ٨٠ » ان الباء فى بها بمعنى الى ، ومعناه ما سبقكم اليها (٥٠) •

والمتتبع لآيات الكتاب العزيز يجد أن مادة السبق عديت بأربعة حروف ، هى الباء ، واللام ، وعلى ، والى • وقد خلع كل حرف على سياقه من معناه ما يحقق أغراضه ويعبر عن مقاصده •

فحيث يكون التنافس والاسراع للوصول الى غاية يتطلع المرء اليها ، تأتى (الى) كما فى قوله تعالى على لسان الكافرين ، ادلالا بقوتهم ، وقدرتهم على الوصول الى ما يرونه خيرا ، دون أن يسبقهم اليه أحد : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه •• الأحقاف ١١ » •

---

(٤٩) تفسير القرآن الحكيم ٥/٨٤ •

(٥٠) انظر منتخب قرة العيون النواظر ٨٢ •

وقوله تعالى : « سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض .. الحديد ٢٠ » حيث دعوة الخلق الى مائدة الخالق وما تحفل به من فيوضات الرحمة والمغفرة ، وهو ما يدعو الى الاسراع فى الوصول اليها .

وحيث يكون الضرر ، وما يقع على المجرور من نقم الله وعذابه ، تأتى « على » مشعرة بوطأة ما وقع عليه من سبق القضاء ، كما فى قوله تعالى : « وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول .. هود ٤٠ » .

ومن سبق عليه القول هو من قضى الله عليه بالهلاك مع الهالكين .

وحين يكون المسبوق اليه هدفا يخلص المرء نفسه له ، ويجردها للسعى من أجله ، وينشغل به عما سواه ، أملا فى الحصول على ما فيه من النفع ، تجىء اللام بما فيها من معنى الاختصاص دالة على ذلك كله كما فى قوله تعالى : « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون .. المؤمنون ٦١ » .

ولعلك تحس جمال التناسق ، بين حرف الوعاء بما يدل عليه على من اغراق أنفسهم فى الخيرات وتمكنهم فيها ، وبين اللام التى تشعر باختصاص سعيهم لها ، وعملهم الدائب من أجلها .

ولكون اللام دالة على النفع جاء قوله تعالى : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون .. الأنبياء ١٠١ » بايثار اللام اشعارا بعظيم نعمته حين خصهم بالجنة ، وأبعدهم عن النار ، ولمثل ذلك جاءت اللام فى قوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون .. الصافات ١٧١ — ١٧٢ » لما فى النصر من خير قضاه الله لهم . ومنفعة اختصهم بها .

أما تعدية فعل السبق بالى فقوله تعالى : « ماسبقكم بها أحد من العالمين » فهى توحى بأنهم استصحبوا هذا الفعل الفاحش ، وذهبوا به دون أن يشاركهم فيه أحد من خلق الله بما يدل على أنهم اقترفوا هـذا الاثم ، واخترعوا تلك الفاحشة بما لم يسبقوا به ، وذلك مستوى من التدنى والحقارة عافته نفوس البشرية ، على كثرة اقترافها للآثام •

* * *

الباء ومعنى المجاوزة

المجاوزة أحد المعانى التى أثبتها النحاة للباء ، وتنازعتها أقوالهم حين تعدى السؤال بها (قال بعضهم : يختص هذا المعنى بالسؤال ، وقيل لا يختص ، بدليل قوله تعالى : « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » « ويوم تشقق السماء بالغمام » وأنكر البصريون مجىء الباء للمجاوزة ، وحملوها مع السؤال على السببية ، ورد بأن الكلام حينئذ لا يفيد أن المجرور هو المسئول عنه ، مع أنه المقصود)(٥١) •

واختلفت آراء المفسرين حول الآيات التى قيل فيها بأداء الباء لمعنى عن كقوله تعالى : « الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا •• الفرقان ٥٩ » •

قال القرطبى : (قال الزجاج : المعنى فاسأل عنه • وقد حكى جماعة من أهل اللغة أن الباء تكون بمعنى (عن) كما قال تعالى : «سأل سائل بعذاب واقع » وقال الشاعر :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ٭ ان كنت جاهلة بما لم تعلمى

وقال علقمة بن عبدة :

فان تسألونى بالنساء فاننى ٭ خبير بأدواء النساء طبيب

---

(٥١) حاشية الصبان على الأشمونى ٢/٢٢٨ •

أى عن النساء ، وعما لم تعلمى •

وأنكر على بن سليمان ، وقال : أهل النظر ينكرون أن تكون الباء بمعنى عن ، لأن فى هذا فسادا لمعانى قول العرب : لو لقيت فلانا للقيك به الأسد ، أى للقى بلقائك اياه الأسد ، المعنى : فاسأل بسؤالك اياه خبيرا)(٥٢) •

وما ذهب اليه على بن سليمان ماض على أن الباء فى الآية هى باء التجريد ، وهو أحد الآراء التى ذكرها الزمخشرى ورجحها صاحب الكشف فيما نقله الألوسى عنه : (وجوز أن يكون الكلام من باب التجريد ، نحو رأيته به أسدا ، أى رأيت برؤيته أسدا ، فكأنه قيل هنا : فاسأل بسؤاله خبيرا ، والمعنى : ان سألته وجدته خبيرا ، والباء عليه ليست صلة ، فانها باء التجريد ، وهى على ما ذهب اليه الزمخشرى سببية ، والخبير عليه هو الله تعالى أيضا ، وقد ذكر هذا الوجه السجاوندى ، واختاره صاحب الكشف • قال : وهو أوجه ليكون كالتتميم لقوله تعالى : « الذى خلق •• » الخ • فانه لاثبات القدرة مدمجا فيه العلم)(٥٣) •

ومع وجاهة القول بالتجريد ، وبعده عن تكلف القول بتضمين السؤال معنى الاعتناء ، أو تداخل معانى الحروف ، وظهور وجه البلاغة فيه ، بدلالته على كمال الصفة فى ذاته تعالى ، وتناسقها مع كمال قدرته فى خلق السموات والأرض الا أن جعل الباء معه للسببية لا يتفق وهذا الوجه ، والأولى ابقاء الباء على أصل معناها من الدلالة على المصاحبة الذى هو لازم الالصاق • والمصاحبة فى الباء غيرها فى (مع) كما أوضحه

---

(٥٢) تفسير القرطبى ٦٣/١٣ •

(٥٣) روح المعانى ٣٩/١٩ •

العينى فى قوله : (والفرق بين الباء ومع أن مع لاثبات المصاحبة ابتداء، والباء لاستدامتها)(٥٤) ٠

وقد ذكر هذا المعنى لباء التجريد الأستاذ عبد المتعال الصعيدى حين علق على قول الخطيب القزوينى : (ومنها نحو قولهم : لئن سألت فلانا لتسألن به البحر) قال : (نحوه كل ما تكون باء التجريد فيه داخلة على المنتزع منه ، وتفيد فيه معنى المصاحبة)(٥٥) ٠

فالباء فى الآية بدلالتها على المصاحبة توحى بأن السائل عن ذات الله تعالى وصفاته يجب أن يستصحب الله تعالى فى طلبه المعرفة عنه ، ويسترشد بوحيه للعلم به ، فانه لا يدل على ذاته وصفاته مثله ، وهو أعلم بما يخبر به عن نفسه ، فمن طلب معرفة الله تعالى غير مستصحب هديه ضل وغوى ٠

ونفس الاختلاف دار حول قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج ٠٠ المعارج ١ ــ ٣ » ٠

فمن قائل ان الباء بمعنى عن(٥٦) ومن قائل بتضمين (سأل) معنى دعا(٥٧) ، أو معنى اهتم واعتنى(٥٨) ٠

وأرى ــ والله أعلم بمراده ــ انطلاقا مما قرره الأعلام من أن (عن) تدل على مجاوزة ما تضاف اليه ، أن السؤال حين يتعدى بها ، يدل على أن المسئول عنه مغيب عن السائل بعيد عنه ، سواء أكان ذلك البعد

---

(٥٤) وسائل الفئة فى شرح العوامل المائة ورقة ٦٨ ٠

(٥٥) بغية الايضاح ٤/٤٤ ٠

(٥٦) انظر رصف المبانى ٢٢٢ ٠

(٥٧) انظر الكشاف ٤/١٥٦ ٠

(٥٨) انظر روح المعانى ٢٩/٥٥ ٠

حسيا أم معنويا ، حقيقة أم تجوزا ، كما فى قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها .. النازعات ٤٢ » حيث أمر الساعة مغيب عن السائل ، وهو يستبعد وقوعها ، ولذلك كان جوابه « فيم أنت من ذكراها » مشيرا الى غاية قربها .

وحين يعدى السؤال بالباء يدل على أن المسئول عنه ملاصق للسائل متلبس به ، قريب منه ، وهذا ما قصد اليه القرآن فى آية المعارج ، مبالغة فى تحقيق وقوع العذاب بالكافرين ، وتأكيد لحوقه بهم ، فكأن السائل يسأل عما هو واقع به مصاحب له .

وفى هذا ما فيه من النداء على كمال غفلته ، وخفة عقله ، وغيبة وعيه وادراكه ، فهو لا يشعر بما حوله ، ولا يتنبه لخطر محدق به ، وهلاك هو منه جد قريب .

وفى قوله تعالى : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا .. الفرقان ٢٥ » .

يقول القرطبى : (« بالغمام » أى عن الغمام ، والباء وعن يتعاقبان كما تقول : رميت بالقوس وعن القوس)(٥٩) .

والمتأمل لأسرار لغة القرآن لا بد واجد فرقا بين استعمال (عن) واستعمال الباء فى موضعهما من النظم الكريم ، ولا يمكن أن يتحد الغرض فى هذه الآية ، وفى قوله تعالى : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير .. ق ٤٤ » .

فالآية الأولى تكشف عن هول يوم القيامة ، بما يجريه الله تعالى من تغيير فى صورة الكون ادلالا على كمال قدرته ، حيث يبدل الأرض

---

(٥٩) تفسير القرطبى ١٣/٢٣ .

غير الأرض والسموات ، فاذا السماء ، هذا الخلق العظيم الذى أخبر عنه بقوله « وما لها من فروج » يرسل عليها الغمام متدافعا متدفقا غزيرا فيشققها ويفتحها ، تمهيدا لازالة صورتها وتغيير خلقها ، تحقيقا لقوله تعالى « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .. ابراهيم٤٨» وباء الملابسة والمصاحبة هى التى تحقق الغرض من شدة الغمام وكثرته وقدرة الله على أن يشقق به أعظم الأجرام الكونية .

أما الآية الثانية فالغرض فيها هو الكشف عن قدرة الله تعالى على بعث خلقه واعادة الحياة اليهم ، وحين يأذن بذلك فان الأرض تنشق عما فى باطنها ، ليجد الخلق أنفسهم فوق سطحها سراعا الى موقف الحساب والجزاء .

فكمال القدرة على بعث الموتى ومجاوزتهم لقبورهم ، وسرعة حشرهم ، لا يصوره الا حرف المجاوزة ، بما يدل عليه من سرعة انفصالهم عن الأرض ، ومجاوزتها لما فى جوفها ، ليتلقوا مصيرهم . ألا ترى الى قوله « ذلك حشر علينا يسير » .

والى ذلك أشار الزمخشرى : (فان قلت : أى فرق بين قولك : انشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عن النبات ؟ قلت معنى انشقت به ، أن الله شقها بطلوعه فانشقت به ، ومعنى انشقت عنه : أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه . والمعنى : أن السماء تتفتح بغمام يخرج منها)(٦٠).

ومثله قوله تعالى : « فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به كان وعده مفعولا . المزمل ١٧ — ١٨ » تهويلا من شأن يوم القيامة وكشفا عن شدته على الكافرين ، فما يشقق السماء ويصدعها ماذا هو صانع بالكافرين ، وهم أضعف خلقه وأهونهم على ربهم !!

---

(٦٠) الكشاف ٣/٨٩ .

وقد أحسن الألوسى رحمه الله الكشف عن سر الباء فى هذه الآية ، فقال : (والباء للآلة ، مثلها فى قولك : فطرت العود بالقدوم فانفطر به، يعنى أن السماء على عظمها واحكامها ، تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله ، كما ينفطر الشيء بما يفطر ، فما ظنك بغيرها من الخلائق)(٦١) .

وباء الآلة ليست الا باء المصاحبة ، لأن الفعل يقع بمصاحبتها والصاقه بمجرورها .

وفى قوله تعالى : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .. الأنعام ١ » .
قال الخازن : (وقال النضر بن شميل : البـاء فى قوله (بربهم) بمعنى عن ، أى عن ربهم يعـدلون وينحـرفون ، من العـدول الى الشيء)(٦٢) .

فاذا كان العدل يتعدى بعن دالا على الانحراف عن الشيء وتجاوزه ويتعدى بالى دالا على الميل اليه والاتجاه نحوه ، فهو كذلك يتعدى بالباء دالا على معنى التسـوية ، كما جاء فى لسـان العرب : (وعدلت الشيء بالشيء أعدله عدولا ، اذ ساويته به)(٦٣) .

وتسوية المشركين بين الخالق والمخلوق ، بين من خلق السـموات والأرض وجعل منهـا الظلمـات والنور وبين من لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، هو كمال النعى على هذه العقول وغاية التسفيه لأحلامهم .

فلماذا القول بنيابة حرف عن حرف آخـر وكلاهما مما يتعدى به الفعل ، ولكل دلالته التى يضفيها على التراكيب التى ينسجم معها ؟

---

(٦١) روح المعانى ١٠٩/٢٩ .
(٦٢) تفسير الخازن ١١٧/٢ .
(٦٣) لسان العرب ٢٨٤٠/٥ .

قال صاحب المنار : (« ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » هذه الجملة معطوفة على جملة (الحمد لله) أو على جملة (خلق السموات والأرض) وقد عطفت بثم الدالة على بعد ما بين مدلولى المعطوف والمعطوف عليه ، لافادة استبعاد ما فعله الكافرون ، وكونه ضد ما كان يجب عليهم للاله الحقيق بجميع المحامد ، لكونه هو الخالق لجميع الكون العلوى والسفلى ، وما فيه من الظلمات الحسية والمعنوية ، والهادى لما فيه النور الذى يهتدى به الموفقون فى كل ظلمة منها ، كأنه قال : وهم مع ذلك يعدلون به غيره ، أى يجعلونه عِدْلاً له أى عديلا مساويا له فى كونه يعبد ، ويدعى لكشف الضر وجلب النفع ، فهو بمعنى يشركون به)(٦٤) .

وقد أعانت الباء على التجوز بالحذف ، مما يدل على أن المحذوف وهو المفعول به أحقر وأتفه من أن يصرح بذكره فى حضرة هذا الخالق العظيم ، أو الدلالة على أنه ليس لله عِدْل حتى يذكر ويسوى بالخالق .

★ ★ ★

البــاء ومعنى اللام

كثرت تعدية الايمان بالباء فى القرآن الحكيم ، كما عدى باللام فى أكثر من موضــع ، مما حــدا بالبعض الى القول بأن مدلول الفعــل وما يؤديه التركيبان لا يختلف معهما على حد ما جا فى البحر المحيط : (وقيل : آمنت به ، وآمنت له واحد)(٦٥) .

ومنهم من ذهب الى أن التعدية باللام فى ضــمنها تعدية بالباء ، وهو قول ابن عطية : (« يؤمنون » معناه يصدقون ، ويتعدى بالباء ، وقد يتعدى باللام ، كما قال تعالى : « ولا تؤمنوا الا لمن » . وكما قال:

---

(٦٤) تفسير القرآن الحكيم ٢٥٩/٧ .
(٦٥) البحر المحيط ٣٦٥/٤ .

« فما آمن لموسى » وبين التعديتين بون ، وذلك أن التعـدية باللام فى ضمنها تعد بالباء ، يفهم من المعنى)(٦٦) ٠

وكأنى به يرى أن الذى يؤمن بالله لا بد أن يستجيب له وينقاد له بخلاف من نؤمن له ، فانك تسمع له وتصـدقه دون أن يصحب ذلك عمل بما يقتضيه قوله ٠

ومنهم من يضمن فعل الايمان المعدى باللام معنى الانقيـاد(٦٧) أو معنى الاستجابة(٦٨) ، أو معنى الاتباع والخضوع أو معنى الميـل والائتمان والجنوح ، وهذان نصان مما جاء فى تفسير واحد فى تضمين الفعل ، قال صاحب المنار فى تفسـير قوله : « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ٠٠ طه ٧١ » (تعدية الايمان باللام تضـمين يفيد معنى الاتبـاع والخضوع)(٦٩)،وقال فى تفسير قوله تعالى:«يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين٠٠ التوبة ٦١ » (نكتة تعـدية الايمان بالباء فى الله تعـالى ، وباللام فى المؤمنين أن الأول على الأصل فى آمن به ، ضد كفر به ، وصدق به ، ضد كذب به ، وأما الثـانى فقد ضـمن معنى الميـل والائتمـان والجنوح للمؤمنين)(٧٠) ٠

ورأى أبو حيان أن الايمان اذا عدى بنفسه دل على التصديق وهو الأصل فى التعدية ، واذا تعدى بالباء أو اللام كان الفعل مضـمنا معه معنى الاعتراف أو الوثوق(٧١) ٠

---

(٦٦) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ١/١٤٤ ٠
(٦٧) انظر روح المعانى ١٦/٢٣١ ٠
(٦٨) انظر السابق ١/٢٩٨ ٠
(٦٩) تفسير القرآن الحكيم ٩/٧١ ٠
(٧٠) تفسير القرآن الحكيم ١٠/٥١٩ ٠
(٧١) انظر البحر المحيط ١/٣٨ ٠

فى حين يرى آخرون أن تعديته بالباء جارية على الأصل كتعدية الفعل بنفسه ، وأن تعديته باللام على غير الأصل ، من باب تضمين الفعل • (« لن نؤمن لك » لن نصدق لك بأن ما نسمعه كلام الله ••• أه كرخى • وأورد عليه أن الايمان انما يعدى بنفسه ، أو بالباء ، لا باللام ، وأجيب بأن اللام للتعليل ، لا للتعدية ، أى لن نؤمن لأجل قولك ، أو بأن (نؤمن) ضمن معنى نقر)(٧٢) •

وحين نتجه الى المعاجم لا نجدها تفرق فى الدلالة بين الايمان متعديا بالباء ، وبينه متعديا باللام ، فالايمان معناه التصديق ، وآمن بالشىء صدقه ، « وما أنت بمؤمن لنا » معناه ما أنت بمصدق لنا(٧٣) ، و (الايمان : الثقة واظهار الخضوع وقبول الشريعة)(٧٤) كما جاء فى القاموس المحيط •

فاذا كان للايمان هذه الدلالة اللغوية التى ذكرها الفيروزبادى فلا غرو أن يتعدى بالباء دالا على الثقة والقبول بشرع الله ، وباللام دالا على معنى الخضوع والانقياد ، وليس فى ذلك تضمين •

والغريب أن يضمن الايمان معنى الاعتراف والوثوق الى جانب دلالته على التصديق لمجرد تصحيح تعديته بالباء فى مثل قوله تعالى « يؤمنون بالغيب » مع أن التصديق نفسه يتعدى بالباء ، كما فى قوله تعالى : « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين •• التحريم ١٤ » وقوله « والذين يصدقون بيوم الدين •• المعارج ٢٦ » •

ولا شك أن ثمة فرقا بين : صدقه ، وصدق به ، لأن الأول يعنى

---

(٧٢) الفتوحات الالهية ١/٥٤ •

(٧٣) انظر لسان العرب ١/١٤١ •

(٧٤) القاموس المطيط (ترتيب القاموس المحيط) ١/١٨٢ •

الاقرار بصدقه ، والثانى يقرن تصديقه بالعمل بمقتضى ما صدقه ، لما فى الباء من معنى المصاحبة والالصاق •

ومثله (آمن به) فهو يدل على الاقرار به وتصديقه ، والعمل بما يقتضيه المصدق به ، وكأنه يجد الأمن فى رحابه ، ويشعر بالأمان فى صحبته ، قال الراغب : (ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصادق والعمل الصالح ايمان •• قال تعالى « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » قيل معناه : بمصدق لنا • الا أن الايمان هو التصديق الذى معه أمن • وقوله تعالى : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » فذلك على سبيل الذم لهم ، وأنه قد حصل لهم الأمن بما لا يقع به الأمن)(٧٥) •

وبذلك يتضح الفرق بين تعدية الفعل بالباء ، وتعديته باللام بما ينبىء عن طبيعة الحرفين وحيهما الخاص بهما •

فالباء بما تدل عليه من الملابسة والمصاحبة والالصاق تخلع على فعل الايمان وجود الأمن فى ظلال من يؤمن به ويلتمس الحماية فى صحبته ، والطمأنينة فى ملابسته ، فيكون حريصا على رضاه ، عاملا بما يأمره به، ولذلك فان الايمان لا يتعدى بالباء الا فى الايمان بالله ورسله وكتبه ، لما أن الايمان بالرسول هو امتداد للايمان بالله ، وكذلك الايمان بالكتب ، لأن الكتب كلام الله •

أما اللام فان الفعل يكتسب معها معنى الاستجابة للمصدَّق فيما دعا اليه ، والانحياز له فى رأيه أو ما جاء به ، انطلاقا من طبيعة اللام الدالة على اختصاصه بهذه المزية ، واستحقاقه للتصديق ، وهو ما لايكون الا من بشر لمثله ، ولا يقال : آمن لله ولا لكتبه ، كما يقال : آمن بالله

---

(٧٥) المفردات ٣١/ ـ ٢٢ •

وبكتبه • وعليه جاء قوله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين •• يوسف ١٧ » وقوله : « أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون •• المؤمنون ٤٧ » وقوله : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون •• الشعراء ١١١» وقوله : « فما آمن لموسى الا ذرية من قومه •• يونس ٨٣ » •

وقد كان الزمخشرى أقرب المفسرين الى لمح هذا الفرق فقال : (فان قلت : لم عدى فعل الايمان بالباء الى الله تعالى ، والى المؤمنين باللام ؟ قلت : لأنه قصد التصديق بالله الذى هو نقيض الكفر به فعدى بالباء ، وقصد السماع من المؤمنين ، وأن يسلم لهم ما يقولونه ، ويصدقه لكونهم صادقين عنده ، فعدى باللام ، ألا ترى الى قوله « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » ما أنباه عن الباء)(٧٦) •

غير أن هناك ثلاثة مواضع من مشتبه النظم الحكيم ، وفى سياق يكاد يكون واحدا ، ومع ذلك فقد عدى اثنان منها باللام ، وواحد بالباء، مما يتطلب البحث عن سر هذه المغايرة فيما هو أشبه بالموضع الواحد ، وهى :

قوله تعالى : « وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون •• الأعراف ١٢٠ — ١٢٣ » •

وقوله : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر •• طه ٧٠ — ٧١ » •

وقوله تعالى : « فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين

---

(٧٦) الكشاف ٢/١٩٩ •

رب موسى وهارون قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر .. الشعراء ٤٦ ــ ٤٩ » .

وهو ما لا أجد له تعليلا خيرا مما ذكره الخطيب الاسكافى ، ذاهبا الى أن الضمير فى الآية الأولى عائد الى رب العالمين ، وفى الآيتين الأخريين عائد الى موسى ، بدليل أن تقريع فرعون للسحرة وانكاره منصب فى الموضعين الأخيرين على اتباعهم لموسى « انه لكبيركم الذى علمكم السحر » بخلاف الموضع الأول ، فقد جاء بعده ما يدل أن ايمانهم برب العالمين هو وسيلتهم للاستيلاء على المدينة وأهلها فكان أحرى بانكار هذا الايمان بربهم ، وهذا نص ما قاله : (والجواب عن السؤال الثانى وهو قوله : « آمنتم به » فى سورة الأعراف و « آمنتم له » فى السورتين الأخريين هو أن الهاء فى آمنتم به غير الهاء فى آمنتم له ، وكل واحدة تعود الى غير ما تعود اليه الأخرى . فالتى فى « آمنتم به » لرب العالمين ، لأنه تعالى حكى عنهم « قالوا آمنا برب العالمين » وهو الذى دعا اليه موسى عليه السلام . وأما الهاء فى « آمنتم له » فلموسى عليه السلام ، والدليل على ذلك أنها جاءت فى السورتين وبعدها فى كل واحدة منهما « انه لكبيركم الذى علمكم السحر » فالهاء فى « انه » هى التى فى « آمنتم له » ، ولا خلاف أن هذه لموسى عليه السلام ، والذى جاء بعد قوله « آمنتم به » قوله « ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة » أى اظهاركم ما أظهرتم من الايمان برب العالمين ، وقع على تواطؤ منكم اخفيتموه ، لتستولوا على العباد والبلاد)(٧٧) .

وذهب الغرناطى الى أن الباء واللام لهما مع الفعل دلالتان مختلفتان وأن الغرض محتاج لهما معا ، فجىء بهما فى مواضع مختلفة لاحراز المعنيين ، وبدأ بالباء لأنها أخص فى المقصود قال : (ان الباء فى قوله

---

(٧٧) درة التنزيل ١٧٦ ــ ١٧٧ .

« آمنتم به » واللام فى « آمنتم له » محتاج الى كل واحدة منهما ، من حيث ان التصديق والانقياد معنيان محتاج اليهما ، والباء تحرز التصديق واللام تحرز الانقياد والاذعان ، فبدأ بالباء المعطية معنى التصــديق ، وهى أخص بالمقصود من اللام ، فاقتضى الترتيب تقديمها ، ثم أعقب فى السورتين بعد اللام ، حتى كأنه قد قيل لهم : أصدقتموه منقادين له فى دعائه اياكم الى الايمان بما جاء به من عند الله ، فحصل المقصود على أكمل ما يمكن)(٧٨) •

وكلام الاسكافى أدق وأوجه •

وفى قوله تعالى : « وما خلقنا الســموات والأرض وما بينهما الا بالحق •• الحجر ٨٥ »

وقوله : « وما خلقنـــا الســموات والأرض وما بينهمـــا لاعبين ما خلقناهما الا بالحق •• الدخان ٣٨ ــ ٣٩ » •

رأى البعض أن الباء فيهما بمعنى اللام(٧٩) •

وجمهور المفسرين على ابقاء اللام دالة على أصـــل معنـــاها وهو الأليق ببلاغة الذكر الحكيم ، لأن خلقهما متلبسين بالحق مصاحبين له ، فى ضمنه أن يكون الحق غاية خلقهما ، وما خلق ممزوجا بالحق متلبسا به لا يكون غير الحق غاية له وهدفا ، وهو ما يتضـــح من قول أبى حيان : (« الا بالحق » أى خلقا ملتبســـا بالحق ، لم يخلق شىء من ذلك عبثا ولا هملا)(٨٠) •

---

(٧٨) ملاك التأويل ١/٤٤٥ ـ ٤٤٦ •

(٧٩) انظر تأويل مشــكل القرآن ٥٧٨ ، وكتاب حروف المعانى للزجاجى ٨٧ •

(٨٠) البحر المحيط ٥/٤٦٥ •

الفصل الخامس

من أسرار حرف الاختصاص

حقيقـــة اللام

يقول سيبويه : (ولام الاضافة ومعناها الملك واستحقاق الشيء ، ألا ترى أنك تقول : الغلام لك ، والعبد لك ، فيكون فى معنى هو عبدك ، وهو أخ له ، فيصـــير نحو هو أخوك ، فيكون مســـتحقا لهذا كما يكون مستحقا لمـــا يملك ، فمعنى هذه اللام معنى اضافة الاسم)(١) .

ولم يذكر سيبويه للام غير هذا المعنى ، لكن غيره ذكر لها معـــانى كثير من حروف الجر الأخرى . قال الهروى : (تكون مكان (الى) . قال الله تعالى : « الحمد لله الذى هدانا لهـــذا » أى الى هذا ، وقال : « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمـــان » أى الى الايمان ، وتكون مكان (على) وذلك قولك : (سقط الرجل لوجهه) أى على وجهه . قال الله تعالى : (يخرون للأذقان سجدا ») أى على الأذقان سجدا ، وقال : « فلمـــا أســـلما وتله للجبين » أى على الجبين . وقال الشـــاعر وهو الأشعث الكندى :

تناولت بالرمح الطويل ثيـــابه   فخر صريعا لليدين وللفم

أى على اليدين وعلى الفم .

وتكون مكان (من) وذلك قولهم : (سمعت لزيد صياحا) أى من زيد صـــياحا ، وتكون مكان (فى) قال الله تعالى : « ونضـــع الموازين القسط ليوم القيامة » أى فى يوم القيامة)(٢) .

وأرجع المرادى جميع المعانى التى ذكرت للام الى معناها الأصلى وهو الاختصـــاص ، فقال : (التحقيـــق أن معنى اللام فى الأصـــل هو الاختصاص ، وهو معنى لا يفارقهـــا ، وقد يصـــحبها معان أخر ، واذا

---

(١) الكتاب ٤/٢١٧ .

(٢) الأزهية فى علم الحروف ٢٨٧

تؤملت سائر المعانى المذكورة وجدت راجعة الى الاختصاص ، وأنواع الاختصاص متعددة • ألا ترى أن من معانيها المشـــهورة التعليل • قال بعضـــهم : وهو راجع الى معنى الاختصـــاص ، لأنه اذا قلت : جئتك للاكرام ، دلت اللام على أن مجيئك مختص بالاكرام ، اذ كان الاكرام سببه دون غيره فتأمل)(٣) •

وهذا الذى قاله المرادى هو الذى نراه أليق ببلاغة هذا اللسان ، ونبحث عنه فيما خفى من مواقعها ، والتبس بغيره من الحروف ، منقبين عن دقائق الفروق من خلال ما يهمس به السياق •

★ ★ ★

اللام وحرف الانتهـــاء

كثيرة هى تلك المواطن التى قيل فيها أن اللام تؤدى معنى انتهاء الغاية، وتحل محل الحرف الموضوع لها ذاهبين الى أنهما يتبادلان مواقعهما •

من ذلك قوله تعالى : « والشمس تجرى لمســـتقر لها ذلك تقدير العزيز العليم •• يس ٣٨ » •

قال ابن قتيبة : (« تجرى لمستقر لها » أى الى مستقر لها • كما تقول : هو يجرى لغايتهوالى غايته)(٤) •

وقال الألوسى : (« المستقر لها » لحد معين تنتهى اليه من فلكها فى آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر اذا قطع مسيره ، من حيث ان فى كل انتهاء الى محل معين ، وان كان للمسافر قرار دونها ، وروى هـــذا عن الكلبى ، واختاره ابن قتيبة ، والمستقر عليه اســـم مكان ، واللام بمعنى الى)(٥) •

---

(٣) الجنى الدانى ١٠٩.

(٤) تأويل مشكل القرآن ٣١٦ •

(٥) روح المعانى ٢٣/١١ •

وبتأمل سياق الآيات نجدها تتحدث عن آيات الله فى كونه وترسم صورة حية للحركة الدقيقة المنتظمة لليل والنهار والشمس والقمر ، دون أن يختل هذا النظام بعدوان أى منها على الآخــر ، وكأن الله أودع فى هذه الأجرام المتحركة من الالهام ما تدرك به غايتها ، وتسعى لتحقيق هدفها ، وهو ما تعبر عنه اللام خير تعبير ، وهذا هو الســياق : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون .. يس ٣٧ ــ ٤٠) .

واذا كان المفسرون القدامى قد اعتمدوا فى تفســير جرى الشمس على ما يشــاهدونه من الحركة اليوميــة لدوران الأرض حول محورها أمام الشمس ، مما ينتج عنه اختلاف الليل والنهار ، والحركة الســنوية لدوران الأرض حول الشمس وما ينتج عنها من اختلاف المشارق والمغارب ، فان العلم الحديث قد أثبت للشمس حركة حقيقيــة بسرعة مخصوصــة تقدر بنحو اثنى عشر ميلا فى الثانية ، فى اتجاه مخصوص فى فضاء الله هو الجهة التى فيها النجم المسمى (فيفا) ومستقرها لا يزال أمرا من أمور الغيب ، وذلك اعجاز علمى جاء به القرآن قبل أن يولد علم الفلك الحــديث(٦) .

وتعدية الفعل باللام تنبىء عن غرض خاص رسمه الله للشمس ، وهى تجرى باحثة عنه فى حركة منتظمــة لا تفتر ولا تمل ، ويتناغم مع هذه اللام أختها فى قوله (لهــا) ، حيث لم يقل : لمســتقرها ، تأكيــدا لخصوصية هذه الحركة وتفردها ، وايماء الى دأبها فى الســعى من أجله . وأين هذا من حرف الانتهــاء المنبىء عن توقف حركتها ببلوغها هــذا

---

(٦) انظر الاسلام فى عصر العلم ٢٦٦ ــ ٢٦٨ .

المستقر ، ان ذلك يلائم الحديث عن الآخرة ، حين يراد تصوير نهاية الكون ، وبدء عالم آخر يتغير فيه نظام هذا الخلق ، ولا يلائم الحديث عن تصوير حركة الحياة فى كون الله •

لذلك جاء الفعل « يجرى » تعبيرا عن حركة الشمس والقمر فى أربعة مواضع من مشتبه النظم سوى هذا الموضع ، عدى فى ثلاثة منها باللام ، وفى موضع واحد بالى •

والمواضع الثلاثة التى عدى فيها باللام هى مواطن الاستدلال على قدرة الله تعالى ، وتوجيه النظر والفكر الى آياته المشاهدة ، ومنها جريان الشمس والقمر لتحقيق غاية رسمها الله لكل منهما ، دون القصد الى انتهاء حركتهما ببلوغهما تلك الغاية • وهى :

قوله تعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى •• الرعد ٢» وقوله : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى •• فاطر ١٢ ــ ١٣ » •

وقوله : « خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى•• الزمر ٥ » •

أما الموضع الرابع الذى عدى بالى فقد جاء فى سياق الحديث عن الآخرة ، وما يقع فيها من بعث وحساب ، وهو ما يؤذن بتوقف حركة

هذه الكائنات بعد انتهائهـا الى الغـاية التى أرادها الله تعالى ، اعلانا ببدء حياة أخرى ونظام كونى آخر ، يكشف عنه قوله تعالى « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » لذلك ناسبت الى هذا الموضع ، وهو قوله تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى أجل مسمى •• لقمان ٢٨ ــ ٢٩ » وقد جاء بعد ذلك قوله « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور •• لقمان ٣٣ » •

واذا كان الزمخشرى قد نبـه الى الفرق بين المعنيين فى قوله : (ولكن المعنيين : أعنى الانتهاء والاختصاص ، كل واحد منهـا ملائم لصحة الغرض ، لأن قولك : يجرى الى أجل مسمى ، معنـاه : يبلغـه وينتهى اليه ، وقولك يجرى لأجل مسـمى ، تريد : يجرى لادراك أجل مسمى ، تجعل الجرى مختصا بادراك أجل مسمى)(٧) فانه لم يبين سر اختصاص كل بموضعه •

وهو ما كشف عنـه بدقة بالغـة الخطيب الاسـكافى حين قال : (ان معنى قوله « يجرى لأجـل مسمى » يجرى لبلوغ أجـل مسمى ، وقوله : « يجرى الى أجل » معنـاه لا يزال جاريا حتى ينتهى الى آخر وقت جريه ، وانما خص ما فى سورة لقمان بالى التى للانتهـاء واللام تؤدى معناها ، لأنهـا تدل على أن جريهـا لبلوغ الأجل المسمى ، لأن الآيات التى تكتنفها آيات منبهـة على النهاية والحشر والاعادة ، فقبلها « ما خلقكم ولابعثكم الا كنفس واحـدة » • وبعدها « ياأيها النـاس اتقوا ربكم واخشـوا يوما لا يجزى والد عن ولده » فـكان المعنى :

---

(٧) الكشاف ٣/ ٢٣٧ •

كل يجرى الى ذلك الوقت ، وهـو الوقت الذى تكور فيـه الشمس ، وتنكدر فيه النجوم ، كما أخبر الله تعالى • وسائر المواضع التى ذكرت فيها اللام انما هى فى الاخبـار عن ابتداء الخلق ، وهـو قوله : « خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفـار خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجهـا » فالآيات التى تكتنفها فى ذكر ابتداء خلق السموات والأرض ، وابتـداء جرى الكواكب ، وهى اذ ذاك تجرى لبلوغ الغاية ، وكذلك قوله فى سورة الملائكة ، انمـا هو فى ذكر النعم التى بدأ بها فى البر والبحر ، اذ يقول : « وما يسـتوى البحران » الى قوله : « ولعلكم تشكرون يولج الليـل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمـير » فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها ، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التى يقع الفعل من أجلها)(*) •

ومما قيل فيه بتداخل الحرفين وأدائهما لمعنى واحـد تعدى فعل الهداية بهما ، وقد ورد فى القرآن الكريم معدى بنفسه كقوله : « اهدنا الصراط المسـتقيم •• الفـاتحة ٦ » ومعدى بالى مثل « واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مسـتقيم •• الأنعام ٨٧ » فجعلهما ابن قتيبة من تداخل معـانى الحـرفين • وعاق البطليوسى على ذلك بقوله : (جاز وقوع اللام موقع الى ، ووقوع الى موقع اللام ، لمـا بين معنييهما من التداخل والتضـارع ، ألا ترى أن اللام لا تخلو من أن تكون بمعنى الملك أو الاستحقاق أو التخصيص ، أو العلة والسبب ، والى للانتهـاء والغاية • وكل مملوك فغـايته أن يلحق بمالكه ، وكل مستحق فغايتـه

(*) درة التنزيل ٣٧٤ ـ ٣٧٥ •

أن يلحق بمستدقه ، وكل مختص فغايته أن يلحق بمختصه ، وكل معلول فغايته أن يلحق بعاته ، فكأنها يوجد فيها معنى (الى) وموضوعها الذى وضعت له) (٨) .

ونقل ابن منظور : (يقال : هديت للحق وهديت الى الحق بمعنى واحـــد) (٩) .

وقال الزمخشرى مثـــله(١٠) فى قوله : « قل الله يهدى للحق أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع .. يونس ٣٥ » .

وسبق أن قلت : ان الأفعال المتعدية بأكثر من حرف تكتسب دلالات مختلفة يخلعها عليها الحرف الذى تعدى به . فالهداية طبقا لورودها فى القرآن الكريم ذكر لها الشوكانى أربعة معان (هى الارشاد أو التوفيق أو الالهام أو الدلالة) (١١) .

وهذه المعانى يكتسبها الفعل من اتصاله بحرف التعدية ، فهو حين يعدى بالى يدل على الارشاد وايصال المهدى الى الغـــاية المنشودة ، وحين يعدى باللام يدل على التوفيق وتهيئة القلب والنفس للسعى من أجل هذه الغاية ، انبثاقا من معنى الاختصاص فى اللام . وذلك ما صرح به ابن القيم ، فقال : (ففعل الهداية متى عدى بالى تضمن الايصـــال الى الغاية المطلوبة ، فأتى بحرف الغـــاية ، ومتى عـــدى باللام تضمن التخصيص بالشىء المطلوب ، فأتى بالـــلام الدالة على الاختصـــاص والتعيين ، فاذا قلت : هديتـــه لكذا ، فهم معنى ذكرته له وجعلته له ، وهيأته ونحو هذا) (١٢) .

---

(٨) الاقتضاب ٢/٢٨٦ ــ ٢٨٧ .
(٩) لسان العرب ٨/٤٦٣٩ .
(١٠) انظر الكشاف ٢/٢٣٦ .
(١١) فتح القدير ١/٢٣ .
(١٢) بدائع الفوائد ٢/٢١ .

فقوله تعالى : « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .. الأعراف ٤٣ » وقوله : « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمـــان .. الحجرات ١٧ » .

توحى اللام فيهما بتوفيق الله للمؤمنين ، وتهيئة نفوسهم وقلوبهم للايمان والعمل الصالح ، واختصاصهم بهذا الطريق دون سواه من سبل الشر والغواية .

أما قوله تعـــالى : « وأهديك الى ربك فتخشى .. النازعات ١٩ » وقوله : « وانك لتهدى الى صراط مستقيم .. الشورى ٥٢ » ففيهمـــا دلالة على ارشـــادهم الى طريق الحق والخير كمـــا يدل عليـــه حرف الانتهـــاء .

وقد أفاد ابن كثير ذلك حين قال بعـــد أن تحدث عن تعدية فعـــل الهداية بنفسه : (وقد تعدى بالى ، كقوله تعالى : « اجتباه وهداه الى صراط مستقيم » » فاهدوهم الى صراط الجحيم » وذلك بمعنى الارشاد والدلالة ، وكذلك قوله : « وانك لتهدى الى صراط مستقيم » . وقـــد تعدى باللام ، كقول أهل الجنة : « الحمد لله الذى هدانا لهـــذا » أى وفقنا لهذا وجعله أهلا)(١٣) .

وأحسب أن القرآن لفتنا الى هذه النكتة حين خالف بين التعديتين فى قوله تعالى : « قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق .. يونس ٣٥ » .

حيث عدى الهداية المنسوبة الى الشركاء بالى ، والهداية المنسوبة الى ذاته العليـــة باللام ، لأنه لا يملك توجيـــه القلوب وتهيئتهـــا للحق سواه .. وهو آية من آيات الاعجاز فى الذكر الحكيم .

---

(١٣) تفسير القرآن العظيم ١/٢٧ .

جاء فى كلام الفخر الرازى ما يشير الى خصوصية الحرفين عند قوله تعالى : « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا .. الأنعام ٧٩ » قال : (ففيه دقيقة ، وهى أنه لم يقل : وجهت وجهى الى الذى فطر السموات والأرض . بل ترك هذا اللفظ ، وذكر قوله : « وجهت وجهى للذى » ، والمعنى : أن توجيه وجه القلب ليس اليه ، لأنه متعال عن الحيز والجهة ، بل توجيه وجه القلب الى خدمته وطاعته لأجل عبوديته ، فترك كلمة (الى) هنا ، والاكتفاء بحرف اللام دليل ظاهر على كون المعبود متعاليا عن الحيز والجهة)(١٤) .

ومثل هذه الدقيقة كشف عنها الزمخشرى فى الفرق بين تعدية أسلم باللام فى قوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن .. البقرة ١١٢ » وبالى فى قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن .. لقمان ٢٢ » فقال : (فان قلت : ماله عدى بالى ، وقد عدى باللام فى قوله : « بلى من أسلم وجهه لله » ؟ قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله . أى خالصا له ، ومعناه مع الى أنه أسلم اليه نفسه كما يسلم المتاع الى الرجل اذا دفع اليه ، والمراد : التوكل عليه ، والتفويض اليه) (١٥) .

وهذه عادة جار الله فى الوقوف على دقائق الفروق بين الحروف ، غير أنه لم يكشف لنا عن سر ايثار كل حرف فى موضعه ، وما يستوجبه من دواعى السياق وأغراضه .

فآية البقرة جاءت بعد حديث عن النسخ ، وما أثير حوله من جدل استثمره الحاقدون من أهل الكتاب للتشكيك فى عقيدة المسلمين ، وزعزعة

---

(١٤) التفسير الكبير ١٣/٥٧ .

(١٥) الكشاف ٣/٢٣٥ .

الايمان فى قلوبهم « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخأ منهـا أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قـدير ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل •• البقرة ١٠٦ ــ ١٠٨ » فكان حريا أن يتعدى اسلام الوجه باللام المشعرة بالانقيـاد والاستسلام لأمر الله « بلى من أسلم وجهه لله وهـو محسن فله أجره عنـد ربه ولا خـوف عليهم ولا هم يحزنون » •

فالاسلام المراد هنـا مرحلة (فوق الايمان ، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ، ووفاء بالفعل ، واستسلام لله فى جميع ما قضى وقدر ، كما ذكر عن ابراهيم عليـه السلام فى قوله : « اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » (١٦) •

أما آية لقمان فقد سبقت بقوله تعالى : « ألم تروا أن الله سـخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة •• لقمـان ٢٠ » •

وسياق كهذا يتجلى فيـه الله بنعمه على خلقه ، ويسخر كل ما فى الكون لمنفعتهم انما يستوجب أن يفوض المنعم عليـه أمره الى المنعم ، ويتوكل عليه فى تدبير شئونه ، لأنه حينئذ مستمسك بحبل متين ، واضع أمره فى يد قوى أمين « ومن يسلم وجهـه الى الله وهو محسن فقـد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبـة الأمور » أرأيت كيف تعانقت (الى) فى مطلع الآية ، مع (الى) فى مقطعهـا ، وكيف يسلم العقلاء أمرهم الى من تصير اليه أمورهم •

---

(١٦) المفردات ٣٥١ •

وما قاله الزمخشرى فى الفرق بين أسلم له ، وأسلم اليه ، قال مثله فى تعدية الوسوسة باللام مرة ، وبالى مرة أخرى دون أن يشير كذلك الى سر اختصاص كل حرف بموضعه •

قال : (فان قلت : كيف عدى وسوس تارة باللام فى قوله : (فوسوس لهما الشيطان) وأخرى بالى ؟ قلت : وسوسة الشيطان كولولة الثكلى ، ووعوعة الذئب ، ووقوقة الدجاجة فى أنها حكايات للأصوات ، وحكمها حكم صوت أو جرس ، ومنه وسوس المبرسم ، وهو موسوس (بالكسر) ، والفتح لحن ، وأنشد ابن الأعرابى :

● وسوس يدعو مخلصا رب الفلق ●

فاذا قلت : وسوس له ، فمعناه لأجله ، كقوله : « أجرس لها ياابن أبى كباش ، ومعنى وسوس اليه ، أنهى اليه الوسوسة ، كقوله : حدث اليه ، وأسر اليه) (١٧) •

وبالرغم من أن الزمخشرى لم يبين لنا سر اختصاص الى بآية طه ، واللام بآية الأعراف ، كما أننى لم أجد عند غيره ممن قرأت لهم تعليلا لذلك ، فاننى أجد من دواعى السياق وأغراض النظم ما يتطلب كلا منهما فى موضعه ، واليك سياق الآيتين : ففى سورة الأعراف : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ١٩ — ٢١ » •

ففى هذا السياق لا نجد تحذيرا صريحا الى آدم من اغراء

---

(١٧) الكشاف ٥٥٦/٢ •

ابليس ، مما جعل الشيطان يتسلل الى أذن آدم مدعيا النصح له والحرص عليه ، وهو ما يستدعى اللام المشعرة باختصاصه بهذا النصح، وهو ما تأكد فى قسمه « انى لكما لمن الناصحين » •

أما آية طه فقد جاءت بعد أن حذر الله تعالى آدم تحذيرا صريحا بعدم الاستماع الى ابليس ، وكشف له عن عداوته له ولزوجه ، ولما ينتويه من اخراجهما من الجنة ، فلم يعد هناك مبرر لدخول ابليس على آدم فى صورة الناصح المخلص ، كما لم يعد هناك مبرر لاستماع آدم له ، ومن ثم فقد جاءت (الى) موحية بأن الشيطان قد احتال بوسائل خداعة لايصال وسوسته الى آدم ، ونجح فى الوصول الى هدفه • ولنستمع الى هذا السياق : « فقلنا ياآدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى فوسوس اليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى •• طه ١١٧ ـ ١٢٠ » •

ومما يؤيد ما قلته أن آية الأعراف جعلت الوسوسة لآدم وزوجه « فوسوس لهما » وآية طه قصرت الوسوسة على آدم ، « فوسوس اليه الشيطان » ولا مانع أن يكون ابليس قد وصل باغوائه الى آدم عن طريق زوجه ، ومن هنا لم يقل : وسوس له ، فكأن وسوسته كانت فى أذن حواء ، ثم انتهت الى آدم • وجمعهما فى سورة الأعراف من باب ما انتهت اليه محاولته من مشاركتهما فيما صارا اليه •

ومما قيل فيه بتداخل معنى الحرفين ما جاء من مادة السمع معدى باللام والى ، فذهب البعض الى أن الأصل تعدية السمع بالى وما جاء منها باللام فهو بمعنى حرف الانتهاء مثلما قال السيوطى فى قول المصلى: (سمع الله لمن حمده) معناه : استمع اليه (١٨) وما نقله الألوسى من

---

(١٨) انظر همع الهوامع ٢/٣٢ •

جواز أن تكون بمعنى الى (١٩) فى قوله تعالى : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له .. الأعراف ٢٠٤ » .

وبتتبع ما ورد من هذه المادة معدى باللام فى الذكر الحكيم وجدتها تدل على ايثار المسموع بالقبول ، واختصاصه بالاستجابة والانقياد له ، وهو ما تكتسبه من معنى الاختصاص فى اللام ، كما فى الآية السابقة ، وكما فى قوله تعالى خطابا لموسى عليه السلام : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى .. طه ١٣ » وقوله وصفا للمنافقين بالانقياد والتبعية « سماعون لقوم آخرين لم يأتوك .. المائدة ٤١ » وقوله فى وصف ضعاف الايمان الذين يستجيبون لفتنة المنافقين ويتأثرون بها : « وفيكم سماعون لهم .. التوبة ٤٧ » كما فسره قتادة وابن اسحاق وجماعة:(فيكم أناس من المسلمين يسمعون قولهم ويطيعونهم)(*)

أما قول المصلى سمع الله لمن حمده ، فان اللام فيه تدل على قبول الله حمده واجابته له . قال ابن الأنبارى : (وقولهم سمع الله لمن حمده . قال أبو بكر : معناه أجاب الله من حمده ، والله سامع على كل حال) (٢٠) .

وتتبعت كذلك ما تعدى من هذه المادة بالى فوجدت أنها تجىء فيما يدل على وصول المسموع الى الأذن ، وانتهاء الكلام اليها ، دون الاستجابة له وقبول العمل بمقتضاه ، وهو مالا يؤدى بغير حرف الانتهاء ، كقوله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا .. الأنعام ٢٥ » وقوله : ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون .. يونس ٤٢ »

---

(١٩) روح المعانى ١١٢/١٠ .
(*) روح المعانى ١١٢/١٠ .
(٢٠) الزاهر فى معانى كلمات الناس ١٥٤ .

وقوله : « ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا •• محمد ١٦ » وقوله : « اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى•• الاسراء ٤٧ » •

أما قوله تعالى : « لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب •• الصافات ٨ » فقد أخبر فيه القرآن بمنعهم عن الوصول الى السماء والتسمع الى خبرها ، بما رصده الله لهم من الشهب الحارقة تكريما لبعثته عليه السلام •

وهذا كل ماجاء معدى بالى فى الكتاب المجيد ، وجميعه يدل على انتهاء الكلام الى الآذان دون أن يتجاوزها الى القبول به والاستجابةله•

وقد جاء من متشابه النظم مغايرا فيه تعدية الفعل بين الحرفين ، قوله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات •• الأعراف ٥٧ » وقوله جل شأنه : « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها •• فاطر ٩ » فجعل المرادى تعدى فعل السقى باللام فى الآية الأولى من قبيل تعديه بالى ، على أن اللام تدل على انتهاء الغاية كما دلت عليه الى•

ولم أجد لأحد تفسيرا لهذه المغايرة وأثرها فى بلاغة النظم الحكيم غير ما قاله الغرناطى ذاهبا الى أنه من قبيل التناسق اللفظى ، حيث ان آية الأعراف جاء فيها الفعل غير مسبوق بفاء التعقيب ، وجاء بعد الفاء فى آية فاطر ، فقابل الايجاز ، فى الأولى بالايجاز،مؤثرا اللام وهى على حرف واحد ، وقابل الاسهاب بالاسهاب فى الثانية ، فجاء بالى وهى على ثلاثة أحرف (٢١) •

وقد حاولت جهدى أن أصل الى غرض النظم الحكيم من هذه

---

(٢١) انظر ملاك التأويل ١/٣٨١ ـ ٣٨٢ •

المغايرة ، غير مجرد التناسق اللفظى ، فهدانى الله الى أن آية الأعراف جاءت فى سياق يستدعى ارسال الله تعالى الرياح لسقى قوم استجابة لدعائهم وصلاحهم ، بين يدى رحمته ، وكأنه يقول : اننى أمسك الرياح والماء عمن أنشاء فأهلكهم بمعاصيهم ، وأرسلها رحمة بالصالحين الضارعين من عبادى ، وهذا سياق الآيات :

« ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون •• الأعراف ٥٥ ـ ٥٧ » •

فتأمل هذه الزيادة « بشرا بين يدى رحمته » « فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات » وما يحيط بها من فيوضات الرضا والرحمة، وهو ما خلت منه آية فاطر ، حيث وقعت فى سياق ملتهب بالوعيد والتهديد للكافرين والضالين من منكرى البعث ، وكأنما جاءت لاثبات قدرة الله تعالى على احياء خلقه ووصول يد القدرة الالهية الى كل ميت يظن استحالة جمع أشلائه ، وبعث الحياة فيه ، كما تصل الرياح الحاملة للسحاب باذن الله فتنزل ماءها فى أى مكان من أرض الله ، تشاء حكمته أن يحييه بعد طول موات ، فجاءت (الى) مشيرة الى نهاية رحلة الرياح ونهاية موت الأرض لتبدأ ببعثها حياة أخرى كما يحدث للانسان حين يحييه الله بعد طول رقاد فى الوقت الذى يأذن الله فيه بنهاية الدنيا • وليس هناك حرف يبرز هذا الغرض ، ويستجيب لهذا الداعى غير حرف الانتهاء • واستمع الى همسه وما يشى به فى سياقه « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون والله الذى

أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور .. فاطر ٨ — ٩ » .

فأين هذا السياق من قوله : « ان الله يحب المحسنين » « بشرا بين يدى رحمته » « فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات » مما جاء فى سياق آية الأعراف ؟ انه اعجاز فى كلام يتناسب مع اعجاز القدرة .

وفى قوله تعالى : « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها .. الزلزلة ٤ — ٥ » يقول أبو البقاء العكبرى : (ولها بمعنى اليها ، وقيل : أوحى يتعدى باللام تارة وبعلى أخرى) (٢٢) .

والى مثله ذهب الزمخشرى (٢٣) وجمهور المفسرين . وذكر أبو حيان وجهين آخرين تفسيرا للتعدى باللام فقال : (وعدى (أوحى) باللام ، لا بالى وكان المشهور تعديتها بالى ، لمراعاة الفواصل . قال العجاج يصف الأرض :

أوحى لها القرار فاستقرت   وشدها بالراسيات الثبت

فعداها باللام . وقيل : الموحى اليه محذوف ، أى أوحى الى ملائكته المصرفين أن تفعل فى الأرض تلك الأفعال ، واللام فى (لها) للسبب ، أى من أجلها ، ومن حيث الأفعال فيها)(٢٤) .

ومع أن رعاية الفواصل لون من الجمال الموسيقى المؤثر ، وهو لا شك مما يقصد اليه النظم الكريم أخذا بالآذان والقلوب ، الا أنه

---

(٢٢) املاء ما من به الرحمن ٢/٢٩٢ .
(٢٣) انظر الكشاف ٤/٢٧٦ .
(٢٤) البحر المحيط ٨/٥٠١ .

لا يفسر اللفظ ولا يستكرهه لتحقيق هذا الغرض ، فلابد أن يكون للام هذه ما ليس لالى فى موضعها ، كما أن القول بالحذف يبدو فيه التكلف، ويذهب معه بسط القدرة فى تسخير الجماد اذعانا لأمر الله واستجابة لندائه ، كما جاء فى قوله تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين •• فصلت ١١ » كما أن الحذف لا دليل عليه •

وقد ذهب الراغب الى رأى طريف ، مؤداه أن الوحى هنا وحى تسخير ، وأن اللام تعين على تحقيق هذا الغرض فقال : (وقيل : قد تكون اللام بمعنى (الى) فى قوله تعالى : « بأن ربك أوحى لها » وليس كذلك ، لأن الوحى للنحل جعل ذلك بالتسخير والالهام ، وليس ذلك كالوحى الى الأنبياء ، فنبه باللام على جعل ذلك الشىء له بالتسخير) (٢٥) •

غير أنه مما يكدر عليه أن الوحى الى النحل الذى جعله الراغب تسخيرا معدى بالى وليس باللام ، مما لا يجعل وحى التسخير مخصوصا باللام وسر التعدية بها •

ويمكن القول بأن الوحى الى النحل ضرب من الالهام ، لأن المأمور به شىء نافع لها ، ووسيلة للحفاظ على حياتها بقدر ما هو نفع لغيرها ، وليس تسخيرا كما هو واضح من قوله : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبيل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس •• النحل ٦٩ » بخلاف أمر الأرض بأن تخرج أثقالها ، وأن تحدث بأخبارها ، فذلك هو أمر خاص لها على سبيل التسخير ، وهو

---

(٢٥) المفردات ٦٩٣ •

ما يفسر مجىء هذا الفعل متعديا باللام وحـــده فى القرآن كله ، من بين ما يقرب من سبعين موضعا جاءت متعدية بالى ٠

ومن المواضع التى قيل فيها بأن اللام بمعنى الى ، قوله تعـــالى : « ربنا اننـــا ســـمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنـــا ٠٠ آل عمران ١٩٣ » ٠

قال الشوكانى : (واللام فى قوله « للايمان » بمعنى الى ، وقيـــل ان « ينادى » يتعدى باللام وبالى ، يقال : ينادى لكذا ، وينـــادى الى كذا ، وقيل اللام للعلة ، أى لأجل الايمان) (٢٦) ٠

وذهب الزمخشرى الى أن فعـــل النداء يعـــدى باللام والى على السواء ، لصحة وقوع معنى الحرفين معه ٠ قال : (ويقال : دعاه لكذا ، والى كذا ، وندبه له واليه ، وناداه له واليـــه ونحوه : هـــداه للطريق واليه . وذلك أن معنى انتهـــاء الغـــاية ، معنى الاختصـــاص واقعـــان جميعـــا) (٢٧) ٠

لكنه لم يقل لنا لم آثر حرف الاختصاص هنا ، وفى قوله تعـــالى : « ياأيها الذين آمنـــوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاســـعوا الى ذكر الله ٠٠ الجمعة ٩ » ٠

وآثر حرف الانتهاء فى قوله تعالى : « واذا ناديتم الى الصـــلاة اتخذوها هزوا ولعبا ٠٠ المـــائدة ٥٨ » ٠

وقد حاولت العثور على تعليل لذلك فى مظانه فلم أجده ، فاجتهدت رأيى انطلاقا من أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لابد أن يكون له مع

---

(٢٦) فتح القدير ١/٤١١ ٠
(٢٧) الكشاف ١/٤٨٩ ٠

كل حرف معنى زائد على ما أشار اليه ابن القيم (٢٨) •

وأرى والله أعلم أن فعل النداء أو الدعاء حين يعدى بالى يكون الغرض حث المنادى على القصد الى الشيء والانتهاء اليه على حد ما أشار اليه الراغب (والدعاء الى الشيء الحث على قصده)(٢٩)•وحين يعدى باللام يكون الغرض تخصيص النداء ، والدعوة بالشيء المطلوب ، اظهارا للاهتمام به ، ووفور الرغبة فى تحقيقه والسعى له وهذا الفرق الدقيق هو الذى من أجله جاءت (الى) فى قوله تعالى : « واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا » وهو نداء عام لكل سامع والى عموم الصلوات ، حثا على القصد اليها ، والاتجاه الى مكان اقامتها فى مساجد الله تحصيلا لفضل الجماعة فيها • وحين كان النداء للمؤمنين ، ولصلاة خاصة فى يوم خاص ، هى صلاة الجمعة ، ولها فى الشريعة مكانة خاصة جاءت اللام تعبيرا عن اختصاصها بالنداء والسعى من أجلها ، رغبة فى الحصول على فيوض الرحمة والمغفرة ، مما أعده الله للمؤمنين فى هذه الصلاة ، فقال جل شأنه : « يأأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » •

ومما يشهد لما نقوله وقوع (الى) فى قوله : « فاسعوا الى ذكر الله » فهو حث على قصد الصلاة والاسراع الى تلبيتها ، ولو جاءت (الى) بدلا من اللام فقيل نودى الى الصلاة لكان قوله « فاسعوا الى ذكر الله » بمثابة تكرار الدعوة اليها ، ومجىء اللام أولا والى ثانيا فيه جمع بين الغرضين ، حث على القصد الى الصلاة وزيادة اختصاص

---

(٢٨) انظر بدائع الفوائد ٢/٢١ •
(٢٩) المفردات ٢٤٥ •

واهتمام بالسعى لصلاة الجمعة ، اشعارا بمالها من مزيد الفضل ، وعظيم الشرف ، ولعل تذييل الآية باللام فى قوله : « ذلكم خير لكم » مما يؤكد هـذا الغرض .

ومثل هذه النكتة يمكن الوقوع عليها فى تعدية الدعاء بالى واللام فى قوله تعالى : « ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار لاجرم أنما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا .. غافر ٤١ ــ ٤٢ » .

أترى مجئ فعل الدعاء متعديا بالى أربع ، مرات « أدعوكم الى النجاة ، وتدعوننى الى النار » « وأدعوكم الى العزيز الغفار » « تدعوننى اليه » ، ومرة واحدة باللام فى « تدعوننى لأكفر بالله » أترى هذا تنويعا وتفننا فى الأساليب فحسب ؟

واذا كان كذلك فلم غوير باللام فى موضع واحد من بين خمسة مواضع ، والاعتدال فى المغايرة يقتضى اقتسام المواضع أو تقاربها ؟

وهل يكتفى فى نظم معجز بالقول أن دعا للشئ واليه واحد ؟

ان مؤمن فرعون حين دعا قومه الى النجاة انما كان يحاول استنقاذ قومه من الهلاك ، والأخذ بأيديهم الى موطن النجاة ، والبلوغ بهم الى صراط العزيز الحميد ، حتى اذا ما وصل بهم اليه ، ووضع أقدامهم على أوله تولاهم الله تعالى بتوفيقه وهدايته . وهذا موضع (الى) .

والكافرون من قومه كان جل همهم حين يدعونه الى النار أن يعدلوا به عن الطريق الذى سلكه فى الايمان بالله الى طريقهم ، وأن يحولوه الى دينهم ويعودوا به الى ملتهم على طريق جهنم ، وليس للنار فضل ، ولا فيها نفع يدعى له ، فأى نفور ونبوّ عن الغرض هذا الذى تجده فى

فى قولك (وتدعوننى للنار) وهو ما عدل عنه النظم الحكيم • أما قوله تعالى على لسان المؤمن « تدعوننى لأكفر بالله » ففيه اشــعار بتزيين الكفر له ورغبتهم الشديدة لتحقيق هدفهم ، والسعى من أجله وهــو ما يستدعى اللام ويستوجبها •

* * *

اللام ومعنى الاستعلاء

من المواضع التى التبست فيها تعدية الفعل باللام وعلى ، وكشف الزمخشرى عن الفرق فيها بين الحرفين وما يكسبه الفعل من معنى الحرف الواصل له ، قوله تعــالى : « وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينــا وما خلفنــا وما بين ذلك وما كان ربك نســيا رب الســموات والأرض وما بينهما فاعبــده واصطبر لعبــادته •• مريم ٦٤ ــ ٦٥ » وقوله : « وأمر أهلك بالصــلاة واصطبر عليهــا •• طه ١٣٢ » قال الزمخشرى تعليلا لتعدى « اصطبر » فى الآية الأولى باللام : (فان قلت : هلا عدى اصطبر بعلى التى هى صلته ، كقوله تعالى : « واصطبر عليها » ؟ قلت لأن العبادة جعلت بمنزلة القِرْن فى قولك للمحارب : اصطبر لقرنك،أى اثبت له فيما يورد عليك من شداته ، أريد أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ، ولا يضق صدرك عن القاء عداتك من أهــل الكتاب اليك الأغاليط ، وعن احتباس الوحى عليك مــدة ، وشــماتة المشركين بك) (٣٠) •

ولم يشر الزمخشرى الى سر اختصاص كل حرف بموضعه ليدل على الغرض الذى كشف عنه وليس ذلك بالعسير ، لأن الآية التى عدى فيها الفعل باللام كان الأمر فيها بالاصطبار للعبادة بشتى ضروبها العقــدية

---

(٣٠) الكشاف ٢/٥١٧ •

والعملية ، وما يستتبع ذلك من جهاد وتضحيات ، مما يتطلب الثبات والاعداد الخاص لمواجهة أعداء الدين ، بخلاف آية طه ، فان الأمر بالاصطبار خاص بالصلاة ، وهو لا يتطلب غير مغالبة النفس فى طلبها للراحة ، وركونها الى الانشغال بالدنيا ، وليس ذلك مما يحتاج الى الثبات له ومواجهته بقدر ما يحتاج الى التغلب على هوى النفس •

وتعدى العكوف باللام فى قوله تعالى : « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون •• الأنبياء ٥٢ ـــ ٥٣ » كما تعدى بعلى فى قوله تعالى : « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم•• الأعراف ١٣٨ » •

فاعتبر البعض ذلك من دلالة اللام على معنى على ، اذ الأصل فى (عكف) أن يتعدى بعلى ، لا باللام (٣١) •

وأرى أن اللام عدل اليها النظم للدلالة على أن قوم ابراهيم لم يكتفوا بعبادتها ، وانما تحلقوا حولها للدفاع عنها ومقاومة من يخرج عن عبادتها ، وأخلصوا أنفسهم لحرب من يعاديها ويتطاول عليها ، والترصد لمن يسىء اليها ، وذلك يأتلف مع زيادة اللام فى قوله بعدها « قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين •• الأنبياء ٥٣ » مع أن (عابدين) مما يتعدى بنفسه ، مما يدل على وفور رغبتهم فى عبادتها والثبات لمن يحاول النيل منها •

أما قوله تعالى « يعكفون على أصنام لهم » فقد أريد وصف هؤلاء القوم بانكبابهم على عبادتها ولزومهم لها دون قصد الى ما أوحت به اللام فى الآية السابقة •

وقد تعدى السلام فى القرآن بعلى تارة ، كقوله تعالى : « حتى اذا

---

(٣١) انظر روح المعانى ١٧/٥٩ •

جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .. الزمر ٧٣ » كما تعدى باللام فى قوله تعالى : « وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين.. الواقعة ٩٠ ـ ٩١ ».

فكشف ابن القيم عن سر المغايرة فى هذا التعدى بما لا مزيد عليه : (فاعلم أن لفظ سلمت عليه ، وصليت عليه ، ولعنت فلانا ، موضوعها ألفاظ هى جمل طلبية ، وليس موضوعها معانى مفردة ، فقولك: سلمت ، موضوعه قلت : السلام عليك ، وموضوع صليت عليه ، قلت : اللهم صل عليه ، أو دعوت له ، وموضوع لعنته ، قلت : اللهم العنه .. واذا ثبت هذا فقولك : سلمت عليه ، أى ألقيت عليه هذا اللفظ ، وأوضعته عليه ، ايذانا باشتمال معناه عليه ، كاشتمال لباسه عليه ، وكان حرف (على) أليق الحروف به فتأمله ، وأما قوله تعالى : « وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين » فليس هذا سلام تحية ، ولو كان تحية لقال : فسلام عليه ، كما قال : « سلام على ابراهيم » « سلام على نوح » ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله ، فذكر أنهم ثلاثة أقسام ، مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم ، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة ، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز ، وان كان كل منهما سالما غانما ، وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنزل من من حميم وتصلية جحيم ، فلما لم يكن المقام مقام تحية ، وانما هو مقام اخبار عن حاله ذكر ما يحصل له من السلامة)(٣٢) .

وهو نفس الفرق بين قوله تعالى : « أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.. آل عمران ٨٧» حيث أريد انصباب اللعنة عليهم ، وشدة غضب الله النازل بهم ، فعديت اللعنة بحرف

---

(٣٢) بدائع الفوائد ١٤٦/٢ .

الاستعلاء ، وبين قوله تعالى : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار •• الرعد ٢٥ » حيث تعدت اللعنة باللام ايحاء بثبوتها وحصولها واستحقاقهم لها ، كما ثبتت الرحمة والجنة للفريق المقابل لهم فيما حكته الآيات السابقة : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار •• الرعد ٢٢ » •

وذهب كثير من النحاة والمفسرين الى جعل اللام فى قوله « وان أسأتم فلها •• الاسراء ٧ » بمعنى (على) حملا على نظائره ، مثل قوله « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وقوله « من اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » لأن اللام من شأنها أن تأتى دالة على النفع ، ومن شأن (على) أن ترمز الى الضرر والشدة ، فلما خولف ذلك فى هذه الآية قيل ان اللام بمعنى حرف الاستعلاء ، كما ذهب اليه السيوطى وابن الجوزى وغيرهما(٣٣) •

وفى نظم الآية ما يستدعى هذه اللام ويرجح معنى الاختصاص فيها ، حيث قصت الآيات قبلها ما قضاه الله على بنى اسرائيل من الافساد فى الأرض مرتين ، وكيف عاقبهم الله تعالى على افسادهم للمرة الأولى ، وحذرهم مغبة العودة الى الافساد للمرة الثانية ، وما يترتب عليه من عقاب يستحقونه جزاء ما عملوا ، وحتى لا يتوهم بنو اسرائيل لكثرة ما أنعم الله به عليهم ، وفضلهم على غيرهم ، أن الله تعالى فى طاعتهم حاجة ، وأنهم كما يدعون أبناء الله وأحباؤه ، جاءت اللام لتدل على أن احسانهم واساءتهم لأنفسهم ، لا ينتفع بأعمالهم ولا يضر بها غيرهم •

---

(٣٣) انظر الاتقان ١/١٧٠ ، ومنتخب قرة العيون النواظر ٢١١ ؛ واملاء ما من به الرحمن ٢/٨٨ •

فهى لام الاستحقاق والاختصاص وليست بمعنى « على » وهو ما رجحه أبو البقاء ، (وقيل هى على بابها وهو الصحيح ، لأن اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله ، حسنة وسيئة)(٣٤) •

ولننظر كيف جسدت اللام عقيدة المسلم ورؤيته الخاصة الى الحياة والموت ، والانتصار أو الشهادة فى قوله تعالى : « ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا •• التوبة ٥٠ ـ ٥١»

فان اللام فى قوله « الا ما كتب الله لنا » تكشف لنا عن أعماق النفس المؤمنة ، وهى تستقبل السراء والضراء باعتبارها خيرا ساقه الله تعالى ، فالمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، واذا كان النصر والغنيمة محببتين الى المسلم فى دنياه ، فان الشهادة ولقاء الله تعالى أحب اليه فى أخراه لذا جاء رد المسلم على المنافقين بما هو صريح فى أن الموت فى سبيل الله ـ وهو الذى يراه المنافق بلاء ومصيبة ـ يراه المؤمن احدى الحسنيين « قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين » •

أرأيت لماذا عدل النظم الكريم الى اللام ، وكيف نهضت بالكشف عن عقيدة المسلم فى استقباله لقضاء الله ، وكيف يفسد هذا الغرض باستخدام على المشعرة بالضرر ، وما يستتبعه من ضيق الصدر وانقباض النفس ، فى حين يقع ذلك على المؤمن موقع الرضا والتسليم؟•

أرأيت كيف صحح الله تعالى النظرة الى القتال فى سبيل الله ، ونزع الخوف من قلوب المؤمنين ، وحول ما تكرهه النفس وتعافه الى شىء محب اليها ، تتطلع اليه وتتمناه •

---

(٣٤) املاء ما من به الرحمن ٢/٨٨ •

ان القرآن حين قال فى سورة البقرة « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » وجاء بعلى انما كان يعبر عن طبيعة النفس قبل أن يصوغها الاسلام صياغته الخاصة ويبنيها بناء جديدا « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » فاذا بهذه النفوس تمتلىء يقينا بهذا الخير ، فتتقدم عليه اقدام المحب له الحريص عليه •

وانى لأحس مثل هذه النكتة فى العدول الى اللام فى قوله تعالى : « ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له » اذ لم يقل : فرض الله عليه ، اشعارا بأن كل ما يوجبه الشرع هو خير للمؤمن ، ونفع له ، وليس فيه ما يسوء أو يضر ، وقد جاءت هذه الآية عقب قوله « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم •• الأحزاب ٣٦ » وما تلاه من الحديث عن زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش ، وما اكتنفه من تردد زينب(٣٥) وأخيها فى هذا الزواج ، وايذاء زينب لزيد بعد زواجهما بالتعالى عليه ، ثم ما أعقبه من زواج الرسول بزينب بعد طلاقها ليقضى الله على عادة التبنى • « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا •• الأحزاب ٣٧» فما فرض الله لنبيه هو خير له وللمسلمين جميعا رفع به الحرج عنهم ، وصحح به أوضاعا مختلة ، وقضى به على نظم مجحفة •

وهذه واحدة من لطائف النظم الحكيم ، جاءت اللام فيها كاشفة عن دخائل النفس المؤمنة ، حتى وان بدا ظاهرها ــ بحكم ما خلعته الطبيعة والبيئة عليها ــ مخالفا لما تكنه من تقدير واجلال • قال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا

---

(٣٥) انظر محاسن التأويل ١٣/ ٢٦١ •

له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون •• الحجرات ٢ » •

فان المؤمنين حين كانوا يجهرون بالقول ، ويرفعون أصواتهم عند رسول الله ، كانوا يستجيبون لما فى طباعهم من بداوة ، وما تركته البيئة القاسية فى نفوسهم من فظاظه وغلظه ، دون قصد الاساءة الى الرسول عليه السلام أو الاستعلاء عليه ، فجاءالقرآن ليعلمهم آداب الحديث فى حضرة الرسول دون أن يطعنهم فى ايمانهم ، بدليل تصدير الآية بنداء المؤمنين ، وختمها بقوله « وأنتم لا تشعرون » فالعدول الى اللام هو شهادة لهم بأن ما حدث منهم من رفع الصوت والجهر بالقول لم يقصدوا به ايذاء الرسول أ والاستعلاء عليه ، وتفسير ابن قتيبةلهذه اللام بعلى(٣٦) وعد ذلك من تناوب الحروف مفوت لذلك الغرض الذى أحسن أبو حيان الكشف عنه حين قال : (ولم يكن الرفع والجهر الا ما كان فى طباعهم ، لا أنه مقصود بذلك الاستخفاف والاستعلاء ، لأنه كان يكون فعلهم ذلك كفرا والمخاطبون مؤمنون)(٣٧) •

وهذا قوله تعالى : « قل آمنوا به أو لاتؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا •• الاسراء ١٠٧ » وهو ما اتخذه النحاة والمفسرون دليلا على مجىء اللام بمعنى على(٤٠) ، لأنه (جرت العادة بأن يقال : سقط على رأسه ، وعلى صلاه ، أوقفاه ، وانما جاز استعمال اللام ها هنا ، لأنه اذا سقط على عضو من أعضائه فقد حصل التقدم لذلك العضو على كل ما تبعه من بقية الأعضاء ، فاذا قال سقط لفيه ، فكأنه قال سقط مقدما لفيه)(٣٩) •

---

(٣٦) تأويل مشكل القرآن ٥٦٩ •

(٣٧) البحر المحيط ٨/١٠٦ •

(٣٨) انظر الجنى الدانى ١٠٠ •

(٣٩) الاقتضاب ٢/٢٧٦ •

وفسر الزمخشرى اللام بمـا يدل على احتفاظهـا بمعنـاها من الاختصاص (فان قلت : حرف الاستعلاء ظاهر المعنى اذ قلت : خر على وجهه وعلى ذقنه ، فما معنى اللام فى خر لذقنه ولوجهه ، قال :

● فخر صريعا لليدين وللفم ● ؟

قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصـه به ، لأن اللام للاختصاص)(٤٠) .

لكن ما سر بلاغة هذا الاختصاص؟ وما الفرق بينه وبين الاستعلاء؟

أرى ــ والله أعلم ــ أن السـاقط على وجهـه والخار على ذقنه اضطرارا لا يفرق بين عضو يقدمه أو يؤخره ، ولا اختيـار له فى كيفية استقبال الأرض ، فهو ينكب عليها بلا وعى ، بخلاف الساجد لله شـكرا وتعبدا ، فان له وفور رغبة ، واقبال نفس ، وهو سجود يشرف الأعضاء ويعتقها من نار جهنم ، لأنه يجلب لها نفعا وخيرا . أما الخار على وجهه من سقوط أو غشيان فانما يلحق الضرر بالعضو الساقط عليه ويؤذيه ، ألا ترى كيف عدل النظم الى حرف الاستعلاء حين قصـد الى التردى والسقوط الأعمى ، والانكبات على الشىء بلا وعى ، فيما نفاه عن عباد الرحمن : «والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا .. الفرقان ٧٣ » ؟

وكم توقفت بحثا عن غرض النظم الحكيم من المغـايرة بين قوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما .. العنكبوت ٨ » وقوله « ووصـينا الانسـان بوالديه حملتـه أمه وهنـا على وهن وفصـاله فى عامين أن أشـكر لى ولوالديك الىّ المصير وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم

---

(٤٠) الكشاف ٢/ ٤٣٠ .

فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا •• لقمان ١٤ ــ ١٥ » حيث تعدى (جاهد) باللام فى الأولى ، وبعلى فى الثانية مع أنهما يشبهان الموضع الواحــد •

ولم أجد فيما قرأت تعليلا ســوى ما قاله الغرناطى من ان آية العنكبوت بنيت على الايجاز فناسبها أوجز الحرفين وهو اللام ، وآية لقمان بنيت على الاسهاب ، فناسبها أطول الحرفين وهو على • وهو وجه لا يستبعد فى نظم تلتئم حواشيه وأطرافه ، وتتناسب صدوره وأعجازه قال الغرناطى : (ان قوله فى ســورة العنكبوت « لتشرك بى » بتعدية الفعــل باللام ، وتعــديته فى آية لقمان بعلى ، فانما ذلك لفرق ما بين الآيتين فى السورتين من حيث بناء آية العنكبوت على الايجاز ، فناسب ذلك التعدية بعلى ، ولو قدرنا عكس الواقع لمــا ناسب ، فجاء كل على ما يناسب)(٤١) الا أنه لا يمنع ذلك من أن يكون هناك غرض يستدعيه المعنى ويتطلبه ، وأراه ــ والله أعلم ــ فى أن آية العنكبوت جاءت غرضا مســتقلا فى الدعوة الى الاحســان بالوالدين ، ووجوب طاعتهمــا فيما لا يؤدى الى معصية الله ، وهذا سر ايجازها ، وجاءت اللام فيها لتعبر عن رغبة الوالدين فى تمســك أبنائهما بدين آبائهم ، وحثهم على ذلك لتحقيق رغبتهم ، ولم تصل مجاهدتهم الى حد المغالبة والقسر والحمل على الاشراك كما هو الأمر فى الآية الثانية ، ولذلك اكتفت الآية بالنهى عن طاعتهما فيما دعوا اليه •

أما آية لقمان فقد جاءت معترضة بين وصــايا لقمان لابنه ، وذلك يســتدعى حث الأبنــاء على البر بالوالدين وطاعتهما لأنها من طاعة الله فجاء السياق ملهبا مشاعر الأبناء ، مســتثيرا عطفهم ، مفجــرا دوافع الفضيلة فى نفوس تقدر الجميل ، وتحسن رده معددا ما تحمله الأبوان

---

(٤١) ملاك التأويل ٢/٧٦٤ •

وخاصة الأم ـ وهى التى نزلت الآيات بسببها(٤٤) حينما أضربت أم سعد ابن أبى وقاص عن الطعام لحمل ابنها على العودة الى دين آبائه ، فجاء قوله « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين » تركيزا على وجوب الاحسان اليها ، والتغاضى عن زلاتها ما لم يؤد ذلك الى معصية الله ، ثم قرن وجوب شكرهما بشكر الله « أن اشكر لى ولوالديك الىّ المصير »٠

مثل هذا السياق المستدعى لغاية الطاعة يتناغم مع حرف الاستعلاء الدال على وجوب تحملهما والصبر على مغالبة الأبوين وقسوتهما فى حمل الابن على الشرك ، بحيث يقف الأبناء عند مجرد رفضهم لما تجب فيه طاعة الأبوين ، دون أن تدفعهم قسوة الآباء وشدتهم الى عقوقهم٠ اذا لم تكتف هذه الآية بالنهى عن طاعتهما فى الدعوة الى الشرك ، كما هو الأمر فى آية العنكبوت ، بل أعقب النهى أمر باحسان صحبتهما فى الدنيا « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » ومن ثم فان حرف الاستعلاء هو من روائع الاعجاز فى النظم الحكيم ٠

وفى قوله تعالى : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ٠٠ الكهف ١٠٠ » يقول أبو حيان : (« وعرضنا » أى أبرزنا جهنم يومئذ ، أى يوم اذ جمعناهم ٠ وقيل اللام بمعنى (على) كقوله : (فخر صريعا لليدين وللفم) ، وأبعد من ذهب الى أنه مقلوب ، والتقدير : وعرضنا الكافرين على جهنم عرضا)(٤٣) ٠

والراغب فى مفرداته يرى أن (عرض) يتعدى باللام وعلى ، ويبدو أنه يسوى بين التعديتين فى المعنى ٠ قال : (وعرضت الشىء على البيع

---

(٤٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/٤٤٥ ، واسباب النزول ٢٣٣
(٤٣) البحر المحيط ٦/١٦٥ ٠

وعلى فلان ، ولفلان ، نحو قوله تعالى : « ثم عرضـــهم على الملائكة » وقوله : « وعرضوا على ربك صفا » وقوله « انا عرضنا الأمانة » وقوله : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا »(٤٤) •

وفى معجم الافعال المتعدية بحرف : (وعرض القوم على السيف: قتلهم به ، وعرضهم على السوط ضربهم به ، وعرضهم على النار أحرقهم وعرض يعرض عرضا له أمر : بدا وظهر)(٤٥) •

ومن هــذا النص الأخــير يبدو أن تعدية فعل العرض بعلى يفهم القاءهم فى النار واحراقهم بها ، وأن تعديته باللام يفهم ابراز النـــار للكافرين ، وهذا هو الذى قصد اليه النظم ، كضرب من التعذيب النفسى قبل القائهم فى النار وتعذيبهم جسديا فيهـــا ، واللام دالة على أصـــل معناها من الاختصاص ، اذ أن هذا العرض خاص بالـــكافرين ، ليبصروا بأعينهم التى عميت عن الحق ما كان يجب أن يبصروه بقلوبهم فى الدنيا لذلك جاء قوله بعدها « الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا » •

★ ★ ★

اللام وحــرف الوعاء

يرى كثير من النحاة أن الظرفية معنى من معانى اللام ، واستشهدوا لها ببضع آيات من القرآن الكريم ، يمكننا أن نلتمس فيها جميعا غرضا يهدف اليه النظم مع ابقائها على أصل معناها •

من ذلك قوله تعالى : «وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى •• الفجر ٢٣ ــ ٢٤ » •

---

(٤٤) المفردات ٤٩٤ •

(٤٥) معجم الأفعال المتعدية بحرف ٢٣٢ •

قال المرادى وهو يعدد معانى اللام : (أن تكون بمعنى (فى) الظرفية، قالوا كقوله تعالى : « يا ليتنى قدمت لحياتى » ، أى فى حيـاتى ، يعنى الحياة الدنيـا ، والظـاهر أن المعنى : لأجل حيـاتى ، يعنى الحيـاة الآخـرة)(٤٦) •

وما استظهره المرادى هو ما نراه محققا لأغراض النظم فى تجسيد واقع الكافر يوم القيامة ، وما يملأ نفسه حسرة وندما على ما فرط منه فى دنياه ، واغفال العمل لهذه الحياة الأبدية ، التى كتب عليه أن يحياها فى عذاب دائم ، واللام مع الاضافة بما فيهما من الاختصاص تكشـفان لك عن أعماق نفس مفعمة بالحزن والأسى على ضياع حياة خاصة غالية، كان يمكن أن تكون سعادة ونعيما ، فهو كمن يمسك بولد عزيز عليه أهمله فضاع بين يديه وكان هو السـبب فى ضـياعه ، يقلبه ويذرف الدموع أسى وتحسرا • انها الحياة الآخرة التى أضاعها ، ولم يقدم لها ويسعى من أجلها • « وان الدار الآخـرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » قال النسفى : (« يقول يا ليتنى قدمت لحيـاتى » هـذه هى حياة الآخرة ، أى يا ليتنى قدمت الأعمـال الصـالحة فى الحيـاة الفـانية لحيـاتى الباقية)(٤٧) •

وفى قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا •• الأنبياء ٤٧ » •

قال الألوسى : (واللام فى « ليوم القيامة » بمعنى (فى) كما نص عليه ابن‌مالك وأنشد لمجيئها كذلك قول مسكين الدارمى :

أولئك قومى قد مضوا لسبيلهم ‏ ‏ ‏ ‏ كما قد مضى من قبل عاد وتبع

وهو مذهب الكوفيين ووافقهم ابن قتيبة ، أى نضـع الموازين فى

---

(٤٦) الجنى الدانى ٩٩ •

(٤٧) تفسير النسفى ٣٥٦/٤ •

يوم القيامة ، التى كانوا يستعجلونها ، وقال غير واحد : هى للتعليل ، أى لأجل حساب يوم القيامة ، أو لأجل أهله ، وجعلها بعضهم للاختصاص)(٤٨) .

وأرى — والله أعلم — أن اللام على معناها من الاختصاص ، والقول بأنها للتعليل راجع الى معنى الاختصاص كما حققه المرادى وأشرنا اليه من قبل .

وقد تكررت هذه اللام ، وتكرر القول بظرفيتها فى كثير من مواضع الذكر الحكيم كقوله تعالى : « ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه .. آل عمران ٩ » وقوله : « فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .. آل عمران ٢٠ » .

وقوله : « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن .. التغابن٩»

وكل هذه المواطن تلوح فيها اللام باختصاص اليوم بالجزاء ، وما يستتبعه من الوعيد والتهديد بما ينتظر الكافرين من سوء الحساب، لأن هذا اليوم صار علما على الحساب « لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب .. ص ٢٦ » « هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين..المرسلات ٣٨ » « مالك يوم الدين .. الفاتحة ٤ » فجمع الناس لهذا اليوم انما هو جمع للحساب والجزاء ، لا لذات اليوم .

وهذا موضع لو جيء فيه بحرف الظرفية لنبا عنه غاية النبو ، ذلكم قوله تعالى : « انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار .. ٤٢ » حاول أن تستبدل حرف الوعاء باللام ، لترى أى جناية على النظم تقع ؟وأى فساد للمعنى يرتكب باسم تناوب الحروف . وقل مثل ذلك فى قوله تعالى « فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه » كيف تفقد اللام ما يصحبها من ايحاء باختصاص ذلك اليوم بالحساب والجزاء ، وما يشيعه من الرعب

---

(٤٨) روح المعانى ١٧/٥٥ .

والفزع بنفوس الكافرين والمجرمين ، فهل يستوى أن تقول : وجمعتهم فى السجن،آلا ترى ان الاول بماينبىء عنه من الغرض من جمعهم المفهوم من اللام يملأ نفوس المجموعين رعبا ، ويجسد أمام أعينهم أشباح الخوف من المستقبل ، بخلاف الثانى الذى لا يوحى اليك بغير ميعاد الجمع وزمانه ، فلو قلت : يوم يجمعكم فى يوم الجمع ، ما زدت على أن أكدت حقيقة البعث وقيام الساعة • أما اللام فانها تدل على هذا المعنى ، وتزيد عليه التلويح بالحساب والجزاء بما تكشف عنه من غرض الجمع •

وقد أوضح الطبرى الفرق بين التركيبين بما يكشف عن سر ايثار اللام فى موضعها ، فقال : ((فان قال قائل : وكيف قيل : فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ولم يقل فى يوم لا ريب فيه ؟ قيل : لمخالفة معنى اللام فى هذا الموضع معنى (فى) وذلك أنه لو كان مكان اللام (فى) لكان معنى الكلام : فكيف اذا جمعناهم فى يوم القيامة ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب ، وليس ذلك المعنى فى دخول اللام ، ولكن معناه مع اللام فكيف اذا جمعناهم لمايحدث فى يوم لا ريب فيه،ولما يكون فى ذلك اليوم من فصل الله القضاء بين خلقه ، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب ، فمع اللام فى (ليوم لا ريب فيه) نية فعل ، وخبر مطلوب قد ترك ذكره أخيرا ، بدلالة دخول اللام فى اليوم عليه منه ، وليس ذلك مع فى ، فلذلك اختيرت اللام ، فأدخلت فى (ليوم) دون (فى))(٤٩) •

ومثل هذا الفرق تجده بين قوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » وبين أن تقول : ونضع الموازين القسط فى يوم القيامة ، لما فى اختصاص هذا اليوم باقامة ميزان العدل الالهى اقتصاصا من خلقه من ايحاء بأن انتقام الله قد يتأخر ، وأن أخذ الظالمين بسيف عدله قد يدخر استدراجا لهم ، وكأنه تعالى قد أعد موازينه وادخرها لهذا اليوم

---

(٤٩) تفسير الطبرى ١٤٧/٣ •

وقد اختار الرضى ابقاء هذه اللام على معناها من الاختصاص فيما قيل فيه بنيابتها عن حرف الوعاء (وقيل : تجيء بمعنى (فى) وبمعنى (بعد) وبمعنى (قبل) فى قوله تعالى « جامع الناس ليوم » أى فى يوم وكتبته لثلاث خلون ، أى بعد ثلاث ، ولثلاث بقين ، أى قبل ثلاث ، والأولى بقاء الثلاثة على الاختصاص)(٥٠) .

* * *

اللام ومعنى المجاوزة

عرف المرادى اللام الدالة على المجاوزة والتى قيل انها تنوب فيها عن حرفها الموضوع لها وهو (عن) بقوله : (هى الجارة اسم من غاب حقيقة أو حكما عن قول قائل متعلق به ، نحو « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه » أى عن الذين آمنوا)(٥١) .

والمتتبع لهذه اللام فى مواطنها من القرآن الكريم يجد لها مذاقا خاصا يحمل دلالات بلاغية ، لا ينهض بها حرف المجاورة الذى جعلت اللام نائبة عنه .

وقبل أن نتعرض لهذه المواطن بغية استجلاء أسرارها نسوق طرائق العرب فى أداء الحكاية بالقول ، لنرى بعد ذلك لِمَ يعدل القرآن من أسلوب فى الأداء الى أسلوب آخر أليق بموضعه وأبلغ .

يقول الرضى : (لك أن تقول حكاية عمن قال : زيد قائم ، قال فلان : قام زيد ، ولهذا نرى الكتاب العزيز يقص فيه عن الأمم المختلفة الألسنة باللسان العربى ، وتقول : قال زيد أنا قائم ، وقلت لعمرو أنت

---

(٥٠) شرح الكافية ٣٢٩/٢ ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٥١) الجنى الدانى ٩٩ .

بخيل ، رعاية للفظ المحكى ، ويجوز • قال زيد هو قائم ، وقلت لعمرو هو بخيل ، بالمعنى الأول ، اعتبارا بحال الحكاية ، فان زيدا وعمرا فى حال الحكاية غائبان ، ومنه قوله تعــالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه »(٥٢) •

وننتقل الآن من صحة الأسلوب الى بلاغة النظم الحكيم فى اختيار طريقة فى الاداء دون طريقة صحيحة أخرى ، بما يتلاءم والغرض الذى يهدف اليه ، وقد جاء بالطريقــة الأخيرة التى قيل فيها ان اللام بمعنى (عن) هذه الآية التى استشهد بها المرادى ، وهى قوله تعالى : «وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه •• الأحقاف ١١» وقد سبقها حديث عن تكذيب المشركين بآيات الله ، ودعواهم بأن القرآن مفترى وليس من عند الله ، مما استدعى الرد عليهم بقوله : « أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شـــاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين •• الأحقاف ١٠ » •

فكان رد المشركين فى الآية موضـــع الحديث يحمل الاســـتخفاف بالمسلمين والتحقير من شأنهم ، وتطلب صلفهم وكبرياؤهم أن يترفعوا عن خطاب المؤمنين ، شأن من يصعر خده للناس ، ويثنى عطفه عنهم ، وينوء بجانبه ، فعدلوا عن أسلوب الغيبة ، صونا لأنفسهم عن مواجهة من هم دونهم فى زعمهم ، وهو ضرب من الالتفات آثره القرآن الكريم لابراز صور التعالى والغطرسة ، ونظرة الاستخفاف التى كان يرمق بها المشركون ضعفاء المسلمين • فانظر كيف يضيع هذا الغرض لو قال : لو كان خيرا ما سبقتمونا اليه • وكيف يفسد هذا المعنى لو قلت : وقال الذين كفروا عن الذين آمنوا ، لأنه يصبح نوعا من الحديث عنهم،لا لهم مع أن الآية حوار بين المسلمين والمشركين ، واللام هنا لا تزال تحمل

---

(٥٢) شرح الكافية ٢/٢٦٧ - ٢٦٨ •

معنى اختصــاص قولهم بمن وجه اليهم ، وان ســماها أبو حيان لام التبليغ ، وهى فرع عن الاختصاص . قال : (واللام للتبليغ ، ثم انتقلوا الى الغيبــة فى قولهم « ما ســبقونا » ولو لم ينتقلوا لــكان الــكلام ما سبقتم اليه)(٥٣) .

وتأمل قوله تعالى يحكى الحوار الذى يدور بين الضالين والمضلين فى النار : « حتى اذا اداركوا فيها جميعــا قالت أخراهم لأولاهم ربنــا هؤلاء أضلونا فاتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون .. الأعراف ٣٨ » فليس قول الضالين خطابا لله تعالى حتى تكون اللام بمعنى عن ، وانما هو حوار دار بين الضــالين والمضــلين ، بدليل رد الفريق الآخر عليهم كما حكاه الله : « وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون .. الأعراف ٣٩» حيث جاء بصيغة الخطاب للضالين ، ولو كان قول الأولى موجها الى الله تعالى ، لجاء رد المضلين : فما كان لهم علينــا من فضــل ، وسر عدول الضالين عن الخطاب الى الغيبة فى قولهم : « ربنا هؤلاء أضلونا » دون أن يقولوا : أنتم أضللتمونا تعبيرا عن مرارة الحقد عليهم ، مما جعلهم يصرخون بهــذا الدعاء ، متمنين مضــاعفة العــذاب لهم تشــفيا منهم وانتقاما ، فيما يتضمن ضربا من الاعتذار الى الله عن ضلالهم وكفرهم ، ومن ثم كان تجاهلهم لهم نوعا من التسجيل عليهم ، وادعاء أنه لا حجة لهم يردون بها عليهم ، وأنهم لا يملكون الا التسليم بجريمة غوايتهم ، الى جانب ما يوحى به من اشمئزاز وكراهية لخطابهم ، فهم الموتورون المضللون ، وعدولهم عن خطابهم هو عدول صاحب الحجة الواثق من أن خصمه عاجز عن ايجاد مبرر لسلوكه وجريمته ، وكأنه يقول للحاضرين: اســألوه ان كان يســتطيع أن يجيب . ألا ترى كيف جاء رد الأولى

---

(٥٣) النهر المــاد من البحر ٥٨/٨ .

بالخطاب موجها اليهم ، نافيا ذلك الفضل عليهم بكونهم تابعين لا متبوعين « فما كان لكم علينا من فضل » .

انهما اذن طريقتان فى الأداء من طرق الحكاية فى لسان العرب ، وضع الله تعالى كلا منهما فى موضعه الملائم له .

وانظر الى هذا الأدب النبوى الكريم فى حديث نوح عليه السلام وكيف كان عدوله عن الخطاب الى الغيبة مثالا للأدب الجم واحترام المشاعر ، قال نوح ردا على قول قومه : « ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا .. هود ٢٧ » قال : « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم .. هود ٣١ » فقد كره توجيه الخطاب اليهم ، حتى ولو كان ذلك فى صورة النفى ، لأنه مما يجرح شعور قوم أقبلوا على الله تعالى وآمنوا بدينه حين كفر الناس ، وذلك لون من الأدب القرآنى فى الخطاب والمحاورة .

وبعيدا عن طرق الحكاية فى القول فقد جاءت اللام مع فعل من شأنه أن يتعدى بعن ، فى قوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان .. البقرة ١٧٨ » فالفعل (عفى) من شأنه أن يتعدى بعن دالا على مجاوزة الذنب وترك الأخذ على الجناية ، ولكن القرآن عدل الى اللام .

وذلك لأن هذا العفو استثناء من قاعدة القصاص الذى كتبه الله على المؤمنين ، فهو منحة خاصة أهديت للقاتل من ولى دم القتيل ، وأى منحة ؟ انها روح استوجبت الازهاق ، ودم وجب أن يراق ، فكانت اللام رسولا يحمل اليه البشرى باختصاصه بالعفو بعد استحقاقه للقتل ، وهو جميل يطوق جيد المعفو عنه ، ويدفعه الى رد الاحسان بمثله ، وفى التعبير « من أخيه » ما يذكر بواجب الأخوة وما يفرضه من التعاطف

وصيانة الدماء . قال الرازى : (« عفى » يتعدى بعن ، لا باللام . فما وجه قوله : « فمن عفى له » ؟ الجواب : انه يتعدى بعن الى الجانى والى الذنب ، فيقال : عفوت عن فلان ، وعن ذنبه ، قال الله تعالى : « عفا الله عنك » فاذا تعدى الى الذنب قيل : عفوت لفلان عما جنى ، كما تقول : عفوت له عن ذنبه ، وتجاوزت له عنه ، وعليه هذه الآية ، كأنه قيل : فمن عفى له عن جنايته ، فاستغنى عن ذكر الجناية)(٥٤) .

وسواء أكان من الاكتفاء أو الحذف أم لا فان اللام تظل تحمل دلالتها على الاختصاص وتذكر بروح الأخوة ، وغرس بذور التسامح والمودة فى النفوس ، والنزول عن الحقوق فى سبيل تقوية أواصر الحب بين المؤمنين ، وتذكر المعفو عنه بدين العافى الذى طوق به .

* * *

اللام بين الزيادة وحرف الابتداء

نادرة تلك المواضع التى قيل فيها بأن اللام تنوب عن حرف الابتداء لبعد ما بين الحرفين فى المعنى ، ولم أجد سوى موضعين من كتاب الله صرح فى أحدهما بهذه النيابة واحتمل الكلام عن الآخر مثل هذا القول .

الأول : قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون .. الأنبياء ١ » حيث قال الزمخشرى : (هذه اللام لا تخلو من أنى تكون صلة ، أو تأكيدا لاضافة الحساب اليهم ، كما تقول : أزف للحى رحيلهم ، الأصل : أزف رحيل الحى)(٥٥) .

فقسر صاحب الكشف كونها صلة على أنها بمعنى من فيما نقله عنه الألوسى (وفى الكشف : المعنى على تقدير كونه صلة لاقترب : اقترب من

(٥٤) تفسير الفخر الرازى ٥/٥٣ .
(٥٥) الكشاف ٢/٥٦١ .

الناس ، لأن معنى الاختصاص وابتداء الغاية كلاهما مستقيم يحصل به الغرض)(٥٦) •

وسواء أكان هذا ما يعنية الزمخشرى أم لا ، فان اللام هنا بمعنى الاختصاص فيها تنادى بمزيد من التخويف ، والمبالغة فى النكير باقتراب موعد الحساب والجزاء ، شأنها فى ذلك شأن اللام فى قوله تعالى : « ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا •• الكهف ٧٥ » بعد أن تكررت من موسى عليه السلام المعارضة ناقضا ما قطعه على نفسه من الصبر على ما يراه ، وعدم مفاتحة العبد الصالح فيما يفعله حتى يفاتحه هو ، مع ان هذه الآية سبقت بدون زيادة (لك) حين جاءت ردا على أول معارضة للخضر عليه السلام • قال الخطيب الاسكافى : (للسائل يسأل عن زيادة (لك) فى الثانية ، واخلاء الأولى منها ، والجواب أن يقال : انه فى الأولى : لما قرر موسى صلى الله عليه وسلم ، وذكره ما كان قد قدم القول فيه من أن الصبر على ما يشاهده منه يثقل عليه ، فقال : « ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا » ، وهذا معناه فى غالب ظنى أنك تعجز عن احتمال ما ترى حتى تبادر الى الانكار ، فلما رأى قتل الغلام ، وعاد الى الانكار أكد التقرير الثانى بقوله « لك » ، كما يقول القائل : لك أقول ، واياك أعنى ، فيقدم لك واياك ، ولو قال أقول لك ، وأعنيك بكلامى لاستويا فى المعنى ، الا فى تأكيد الخطاب بالتقديم ، فكأنه قال : ألم يكن خطابى لك دون من سواك ، وهذا وجب فى الثانى لا فى الأول ، الذى لم تتأكد حجة الخضر فيه عليه السلام ، كتأكدها فى الثانية) (٥٧) •

مثل هذا الذى قاله الاسكافى فى زيادة لك هو الغرض من زيادة اللام ، فرقا بين قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم » وقولك اقترب

---

(٥٦) روح المعانى ٢/١٧ •

(٥٧) درة التنزيل ٢٨٥ •

حساب الناس ، وأحسب أن هذا هو الذى قصـــده الزمخشرى بتأكيد الاضافة ، وهو الأليق بكتاب الله •

وثانى الموضعين قوله تعالى : « يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا •• طه ١٠٩ » •

فانه يفهم من كلام الفراء أن تعدية (رضى) باللام ومن ســـواء ، قال : (« ورضى له قولا » كقولك : ورضى منـــه عمله ، وقـــد يقـــول الرجل : قد رضيت لك عملك ورضيته منه) (٥٨) •

و (رضى) تعدى فى القرآن بنفسه مثل : « وأن أعمل صـــالحا ترضاه •• النمل ١٩ » وتعدى بعن ، كقوله : « رضى الله عنهم ورضوا عنه •• المائدة ١١٩ » وتعدى بالباء ، كقوله « رضـــوا بأن يكونوا مع الخوالف •• التوبة ٨٧ » ، وتعدى بمن فى قوله « الا أن تكون تجارة عن تراض منكم •• النساء ٢٩ » •

أما قوله تعالى : « ورضى له قولا » فقد تعدى الفعل بنفســـه الى القول ، وجاءت اللام فيه مؤذنة بالاختصاص ، وهو ما يستدعية مقـــام المأذون له بالشفاعة ، ومنزلة الحظوة عنـــد ربه ، حيث يسمع لشفاعته حيث لا شفاعة لغيره ، ويستجيب له حين لا يستجيب لسواه ، وهو عين الكمال وغاية الرضا ، لذا جاءت اللام مؤكدة اختصاصه بهذا الشرف ، وهو ما يفوت لو قلت : ورضى قوله •

وهـــذه اللام قريبة من اللام فى قولك : نصحت لك ، دون نصحتك (وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على امحاض النصيحة ، وأنهـــا وقعت

---

(٥٨) معانى القرآن للفراء ١٨٦/٢ •

خالصة للمنصوح له ، مقصودا به جانبه لا غير)(٥٩) •

لم يجىء النصح فى الكتاب العزيز متعديا بنفسه ، وانما جاء متعديا باللام ، لأن الناصح فى مواضعه كلها أخلص النصيحة للمنصوح، حقيقة كما جاء على ألسنة الرسل : « لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم •• الأعراف ٧٩ » « أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم •• الأعراف ٦٢ » ولاشك فى اخلاص المرسلين النصيحة لقومهم واختصاصهم بها •

أو ادعاء كما جاء على لسان ابليس استمالة لآدم وزوجه : « وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين •• الأعراف ٢١ » •

ومثله تعدية الشكر بنفسه تارة ، وباللام تارة أخرى • يقول البطليوسى وهو يعدد أنواع الزيادة فى الحروف (أن يحدث بزيادة الحرف معنى لم يكن فى الكلام ، وهذا النوع أظرف الأنواع الأربعة وألطفها مأخذا ، وأخفاها صنعة ، ومن أجل هذا النوع أراد الذين أنكروا هذا الباب أن يجعلوا لكل معنى غير معنى الآخر ، فضاق عليهم المسلك ، وصاروا الى التعسف ، وهذا النوع كثير فى الكلام ، يراه من منحه الله طرفا من النظر ، ولم يمر عليه معرضا عنه ، فمن ذلك قولهم: شكرت زيدا ، وشكرت لزيد ، يتوهم كثير من أهل هذه الصناعة أن دخول اللام هاهنا كخروجها ، كما توهم ابن قتيبة ويعقوب ، ومن كتبه نقل ابن قتيبة ما ضمنه هذا الباب ، وليس كذلك ، لأنك اذا قلت : شكرت زيدا ، فالفعل متعد الى مفعول واحد ، واذا قلت : شكرت لزيد ، صار بدخول اللام متعديا الى مفعولين ، لأن المعنى : شكرت لزيد فعله ، وانما يترك ذلك الفعل اختصارا ، ويدلك على ذلك ظهور المفعول فى قول الشاعر :

---

(٥٩) الكشاف ٢/٨٦

شكرت لكم آلاءكم وبلاءكم   وما ضاع معروف يكافئه شكر) (٦٠)

ولما كانت زيادة اللام تدل على اختصاصه بالشكر جاء أمر الله تعالى بها فى قوله : « واشكروا لى ولا تكفرون ٠٠ البقرة ١٥٢ » وقوله: « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ٠٠ لقمان ١٢ » وقوله : « كلوا من رزق ربكم واشكروا له ٠٠ سبأ ١٥ » ٠ « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ٠٠ البقرة ١٧٢ » ٠

***

لام العاقبة

يقول ابن فارس : (ومن اللامات لام العاقبة ٠ قوله جل ثناؤه : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » وفى أشعار العرب ذلك كثير :

جاءت لتطعمه لحما ويفجعها   بابن فقد أطعمت لحما وقد فجعا

وهى لم تجىء لذلك ، كما أنهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن صارت العاقبة ذلك ٠

ومن الباب قوله جل ثناؤه : « ربنا ليضلوا عن سبيلك » أى آتيتهم زينة الحياه الدنيا ، فأصارهم ذلك الى أن ضلوا) (٦١) ٠

والظاهر من تسميته هذه اللام بلام العاقبة أو الصيرورة أن القائلين بها يخرجونها عن معنى الاختصاص الذى هو أصل معناها ، ويرونها غير لام التعليل ، لأن لام التعليل تدخل على ما هو غرض لفاعل الفعل ، ويكون مترتبا على الفعل ، وليس فى لام الصيرورة الا الترتيب فقط) (٦٢) ٠

---

(٦٠) الاقتضاب ٢/٣٠٨ ٠

(٦١) الصاحبى ١٥٢ ٠

(٦٢) الفوائد فى مشكل القرآن ١٣٨ ٠

وقد كان الزمخشرى أقرب الى حس هذه اللغة حين جعل هـذه اللام للتعليل المجـازى ، وان لم يفصح عن سر هـذا التجوز فى قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا .. القصص ٨ » قال جار الله : (اللام فى « ليكون » هى لام كى ، التى معناها التعليل ، كقولك : جئتك لتكرمنى سـواء بسواء ، ولكن معنى التلعيل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة ، لأنه لم يكن داعيهم الى الالتقـاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ، ولكن المحبة والتبنى ، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله ، وهو الاكرام الذى هو نتيجة المجىء والتأدب الذى هو ثمرة الضرب فى قولك: ضربته ليتأدب ، وتحريره أن هـذه اللام حكمها حكم الأسـد ، حيث استعيرت لمـا يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لما يشبه الأسد) (٦٣).

وبالرغم من أن البلاغيين والمفسرين تعلقوا بـكلام الزمخشرى فى الحـديث عن اسـتعارة الحـروف ، ودار بينهم جدل طويل حول تفسير هذه الاستعارة ومفهوم الزمخشرى لها ، فانهم لم يتعرضـوا لسر هـذا التجوز ، ولمـاذا لم يقل : فالتقطه آل فرعون فـكان لهم عدوا وحـزنا ؟

وأرى أن النظم الحكيم أراد اظهار قدرة الله الباطشة فى تسخير فرعون وملئه ــ وهم الذين أسالوا دماء جيل من أطفال بنى اسرائيل رغبة فى الوصول الى دم موسى ــ لارادته تعالى ، فيلتقطونه وكأنهم يعلمون أنهم يسيرون الى نهـايتهم المحتومة ، ويضعون نهـاية ملكهم بأيديهم ، كما يتجرع المنتحر السم بيده لانهاء حياته وهذا ابراز لكمال قدرة الله تعالى ، ونفاذ ارادته . وفى هذا الأسلوب ما فيه من التهكم والسخرية على غرار قوله تعالى : « فبشرهم بعـذاب أليم » وقوله : « فاهدوهم الى صراط الجحيم » .

---

(٦٣) الكشاف ١٦٦/٣ .

وقد جسد الألوسى كل هــذا المعنى فى قوله : (فيــه اســتعارة تهكمية) (٦٤) •

ثم انظر كيف جسدت هذه اللام التى أسموها لام العاقبة روح الاستسلام لأمر الله تعالى ، والرضــا بقضــائه ، والوعى بحكمة الله تعالى فى استدراج خلقه ونفاذ علمه وارادته ، وذلك فى قول موسى عليه السلام : (ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيــا ربنا ليضلوا عن سبيلك •• يونس ٨٨) وهى اللام التى عدها الصاحبى من لامات العاقبة كما مر •

ولو قيل : فضلوا عن ســبيلك ، بدلا من « ليضلوا عن سبيلك » ما عبرت عن أدب موسى الرفيع فى خطابه لربه ، تسليما بأن ذلك جرى من الله تعالى بنفــاذ علم وحكمة قدرها ، استدراجا لهؤلاء القوم ، واملاء للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته ، فاللام هــذه تحمل فى طيــاتها التسليم بارادة الله وقضائه النافذ فيما صار اليــه فرعون وملؤه من ضلال واضلال •

هذه الارادة عينها وذلك المكر الالهى ذاته ، الذى يعلو فوق مكر الماكرين هو ما تجسده لام التعليل المجازى فى قوله تعــالى : « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون •• الأنعام ١٢٣ » •

انظر كيف يســخر القرآن الكريم من هؤلاء الذين يبيتون المكر ، ويحكمون الكيــد ، ويتــآمرون على دعاة الخير ، وكيف يسخرهم الله تعالى لهذا الذى دبروه وصنعوه لغاية أرادها ،فاذا هم يمكرون بأنفسهم،

---

(٦٤) روح المعانى ٢٠/٤٦ •

ويحفرون حفر الشر بأيديهم ليقعوا فيها ؟ فأى سخرية هـذه من ماكر هو ممكور به ، وواضع السم لغيره يجبر على تجرعه ؟

هذه هى اللام التى أسموها لام العاقبة ، وما أبعد ذلك عن نهاية رسمتها يد القدرة منذ البداية ، ونفذ فيها علم الله تعالى قبل بدئها ، وكم أحسن البصريون حين أنكروا هذه اللام وأرجعوها الى لام العلة قال ابن هشـام : (وأنكر البصريون ومن تابعهم لام العـاقبة • قال الزمخشرى : والتحقيق أنها لام العلة ، وأن التعليل فيهـا وارد على طريق المجاز دون الحقيقة) (٦٥) •

وهو ما كان متوقعا من الزمخشرى،غير أننى وجدت فىكشافه مايفيد بوجود هذه اللام عنده حيث قال فى قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتـل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم •• الأنعام ١٣٧ » قال :(فان قلت : ما معنى اللام ؟قلت : ان كان التزيين من الشياطين فهى على حقيقـة التعليل ، وان كان من السـدنة فعلى معنى الصيرورة) (٦٦) •

فهل قصد بالصيرورة لام العاقبة التى قال بها الكوفيون من النحاة؟ أم أنه قصد بها التعليل المجازى بدليل مقابلتها بحقيقة التعليل ؟ والى الثانى أميل •

---

(٦٥) مغنى اللبيب ١٧٩/١ •
(٦٦) الكشاف ٥٤/٢ •

الفصل السادس

من أسرار حرف الانتهاء

معنى الى وأسرار زيادتها

قال أبو القاسم الزجاجي : (الى تكون لمنتهى غاية ، كقول القائل: انما أنا اليك أى أنت غايتى) (١) •

وقال السيوطى : (الى حرف جر له معان أشهرها انتهاء الغاية ، زمانا نحو « أتموا الصيام الى الليل » أو مكانا نحو « الى المسجد الأقصى » وغيرهما نحو : « والأمر اليك أى منته اليك ، ولم يذكر لها الأكثرون غير هذا المعنى) (٢) •

وقال المالقى : (واعلم أن (الى) وغيرها من حروف الجر التى تذكر فى هذا الكتاب فى أبوابها لابد لها مما تتعلق به ، أى مما هو متضمن لها ، ومستدع لها لطلب الفائدة واستقامة الكلام) (٣) •

وهذا كلام طيب من المالقى لو لم يقف عند حدود التعلق الاعرابى والبحث عن فعل أو اسم يتعدى بهذا الحرف أو ذاك ، دون البحث عما استدعاه وطلبه من الأغراض وما أفاده من المعانى •

ولنأخذ ذلك من الأمثلة ما يشبه أن تكون فيه الى مع مجرورها زيادة يمكن الاستغناء عنها ، كما فى قوله تعالى : « وهذى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا •• مريم ٢٥ » •

فان الفعل « هزى » تعدى الى مفعوله بالباء ، وكان يمكن الاكتفاء به وأن يقول : وهزى بجذع النخلة تساقط ، لكن الله تعالى أرشد مريم الى أيسر الطرق التى تضمن تساقط الرطب بين يديها دون عناء كبير ،

---

(١) كتاب معانى الحروف للزجاجى ٦٥ •

(٢) الاتقان ١/١٥٣ •

(٣) رصف المبانى ١٦٧ ـ ١٦٨ •

فهى لاتزال تعانى آثار الولادة ، وليس لها من الجهد ما تقوى به على تحريك الجذع يمينا ويسارا ، مما يمكن أن يعرضها للترنح والسقوط ، الى جانب ما يؤديه من سقوط الرطب بعيدا عنها ، فجاء قوله « اليك » ارشادا منه تعالى بأن تجعل انتهـاء الهز اليها ، لتعتمد على الجـذع وتستند اليه أثناء هزه ، ولكى يتساقط الرطب قريبا منها •

وكما (طلبت الجذع لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة) (٤) فهى كذلك تطلبه لتعتمد عليه فى جلب طعامها رحمة من الله بها، ولم يغنها الله تعالى عن ذلك باسقاطه عليها ، ليعلم عباده كيف يأخذون بالأسـباب ، ولا يركنون الى التواكل والاستسلام •

وهذا قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة •• التوبة ٣٨ » لم يكتف القرآن بوصفهم بالتبـاطؤ فيقول : تثاقلتم ، أو اثاقلتم ، وهو يفهم أنهم تباطأوا عن النفرة فى سـبيل الله ، بل زاد « الى الأرض » ، ليوحى بتسفل غايات القاعدين ، وتدنى درجتهم ، فى حين تسمو غايات المجاهدين ، وترتفع درجاتهم عند ربهم • « وفضـل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما •• النسـاء ٩٥ » وعدل عن صيغة (تثاقلتم) الدالة على التباطؤ والاهمال ، الى صيغة « اثاقلتم » وهى تدل على التباطؤ عن الشىء بعد الاستنهاض له (٥) مع ما فى هذه الصيغة من الدلالة على صعوبة الحركة ومعاناة النهوض ، مقابلا بزيادة الحروف والتضعيف • كل ذلك يدل على عدم مطـاوعة النفس وتهـاوى الارادة ، وكأنه ينازع نفسه فلا يستطيع ، ويحاول النهوض فلا تسعفه قواه لتنتهى معاناته ومحاولاته الى الأرض ، متمسـكا بها راكنا اليها •

---

(٤) الكشاف ٢/٥٠٦ •

(٥) انظر معجم الأفعال المتعدية بحرف ٢٨ •

فهل يفلح فى التعبير عن سر هذا الحرف وما أضافه الى تركيبه من خصائص أن يقال انه ضمن الفعل معنى الميل والاخلاد فعدى بالى ؟(٦)

وهذا قوله تعالى : « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم .. ص ٢٣ — ٢٤ » .

تأمل كيف جاءت زيادة « الى نعاجه » مصورة نهم الرجل وحبه لجمع المال وعدم قناعته بما بين يديه حتى يضيف قليل غيره الى الكثير عنده .

لقد كان يكفى داوود عليه السلام أن يقول : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك » والسؤال مضاف الى مفعوله ، وهو هنا معناه الطلب ، والمعنى: ظلمك بطلبه نعجتك . لكن هذا لا يكشف عن استنكار داوود وغضبه على رجل تسيل الأموال بين يديه ثم ينظر الى القليل التافه فى يد غيره ، لذا جاء « الى نعاجه » تأنيبا وتقريعا له على عدم قناعته بما أغناه الله من فضله . وان شئت المعنى الحرفى فقل : بسؤال نعجتك منتهية الى نعاجه .

★ ★ ★

الى وحرف الاختصاص

مما ذكره ابن هشام من معانى (الى) (مرادفة اللام ، نحو (والأمر اليك) (٨) .

وقال ابن فارس : (وربما قامت (الى) مقام اللام . قال الشماخ :

---

(٦) انظر الكشاف ٢/١٨٩ .
(٧) المغنى ١/٧٠ .

فالحق ببجلة ناسبهم وكن معهم
حتى يعيروك مجدا غير موطود
واترك تراث خفاف انهم هلكوا
وأنت حى الى رعـــل ومطرود

يقول : اترك تراث خفاف لرعل ومطرود ، وخفاف ورعد ومطرود بنو أب واحد) (٨) ٠

والآية التى مثل بها ابن هشـــام لا تؤدى فيـــه لام الاختصاص ما يؤديه حرف الغاية من معنى يكشف عنه سياق الآية ، وهو أن بلقيس أسرعت الى جمع كبار مستشاريها ، ومجلس الحكم فى مملكتها ، فـــور تلقيها رسالة سليمان عليه السلام ، وطلبت منهم ابداء رأيهم فيما ترد به على هذه الرسالة ، وهـــو أمر جـــد خطير ، يتعلق باعلان الحرب ، أو الدخول فى طاعة سليمان ، وأظهرت للملأ ، احترامها لآرائهم ، وعزمها على العمل بمشورتهم ٠ والحوار يوحى من بعيد بخلاف بين ما ترغب فيه بلقيس ، وما أشار به الملأ ، لذلك اعقبوه بتفويض الأمـــر اليهـــا ، وكأنهم يقولون : هذا رأينا ولكن القرار الأخير راجع اليك ٠ وهذا سياق الآية « قالت ياأيها الملأ انى ألقى الى كتـــاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين قالت ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين٠٠ النمل ٢٩ ــ ٣٣» ٠

فقولها « انى ألقى الىّ كتاب كريم » واصفة كتاب ســـليمان بهذه الصفة ، يوحى بميلها الى الأخـــذ بما فيه وهو الاســـلام والدخول فى طاعته،والا فما قيمة نعت الكتاب بهذه الصفة؟ولمَ لم" تكتف بطرح الأمر

---

(٨) الصاحبى ١٧٩ ــ ١٨٠ ٠

عليهم دون تدخل منها حتى تسمع رأيهم ؟ ثم جاء قولها « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ايماء الى أنها تطلب موافقتهم على أمـــر هى لن نقطع فيه حتى تجد منهم التـــأييد والعون ، وكأنهـــا تستميلهم لرأيها ، وتعطفهم نحوها ، اذ كان يكفى أن تقول : « أفتونى فى أمرى » غير أن الملأ أظهروا معارضتهم فى مهـــارة وحسن تأدب « قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد » • ومفهوم هذه العبارة أو الدلالة الثانوية لها ، أن من يملك هذه القوة ، وله ذلك البأس ، لا ينبغى أن يلقى يد السلام الى أحد ، أو يقبل التهديد بالقوة •

وانظر كيف لم يقولوا : نحن أقوياء ، بل قالوا : « أولو قوة » ولم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا اليه أن القـــوة فى العدد والعتـــاد يصاحبها صلابة الرجل وعزم الأبطال « وأولو بأس شـــديد » ثم جاء قولهم : «والأمر اليك حسن أدب منهم بتفويض الأمر اليها، وارجاع القرار والحكم النهائى الى صاحبة الحكم ، على غرار قول الله تعالى : « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه الى الله •• الشورى ١٠ » لأن ما يختلف فيه الخلق يجب ان يرجعوا فيه الى ربهم ، ويردوا حكمه اليـــه ، وذلك يختلف فى غايته ومرماه عن قوله تعـــالى : « والأمر يومئذ لله •• الانفطار ١٩ » وقـــوله : « ان الحـــكم الا لله •• يوســـف ٤٠ » حيث تشـــعر اللام باختصاصه تعالى وحده بالأمر والحكم ، ومثل ذلك لا يستشار فيـــه ، ولا يطلب فيه رأى من أحد ، ولو أن الأمر كذلك مع بلقيس لأسلموا لها الأمر دون اظهار معارضتهم المهذبة ، ولكان ردهم عليها هو الأمـــر لك ، اذ أن من يكون الأمر خالصا له وحده لا ينازع فيه •

وما اســـتشهد به ابن فارس من قول الشـــماخ يرده ما غسر به البيتان ، على أنه أمر بترك تراث خفاف ، والتوجه الى رعل ومطرود ، وهو ما يستوجب حرف الانتهاء قال شارح الديوان : (اترك ما ورثت من عزة بنى خفاف ، ولعلهم قوم الربيع ، فانهم قد هلكوا ، وائت هذين

الحيين ، عسى أن يأخذوا بيدك) (٩) ٠

وهذا قوله تعالى : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين ٠٠ فصلت ٦ » قد أدت فيه «الى» دورا لا تنهض به اللام فى جعل الله غاية تتجه اليها القلوب ، وقبلة لا تنحرف عنها الأبدان ، ولاتركن الى سواها من أرباب وآلهة ، وهو ما يؤكده تذبيل الآية « وويل للمشركين » ٠

ولو جاءت اللام بدلا منها لكان المعنى طلب الثبات لطاعة الله ، والانقياد لأمره ، وهو مالا يتلاءم مع خطاب المشركين الذين لم يتذوقوا معنى الطاعة ، ولم يأخذوا طريقهم بعد الى الله تعالى ، فالاستقامة اذن تتعدى باللام دالة على خلوص الأمر له والانقياد والخضوع له ، وتتعدى بعلى دالة على الثبات على الشيء ، كما فى قوله تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ٠٠ الجن ١٦ » ٠ وتتعدى بالى دالة على استواء القصد والتوجه الى الشيء يقول ابن منظور : (والاستقامة : الاعتدال ، يقال : استقام له الأمر ، وقوله تعالى : « فاستقيموا اليه » أى فى التوجه اليه دون الآلهة) (١٠) وهو واضح فى دلالة الى على أصل معناها ٠

وفى معجم الأفعال المتعدية بحرف : (واستقام على طريقته : دام وثبت ، واستقام لوجهه : انقاد واستمرت طريقته ، واستقام له : ثبت على طاعته) (١١) ٠

وعليه جاء قوله تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند

---

(٩) ديوان الشماخ ١٢٣ ٠

(١٠) لسان العرب ٦/٣٧٨٢ ٠

(١١) معجم الأفعال المتعدية بحرف ٣٠٦ ٠

ورسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم .. التوبة ٧ » معدى فيه (استقام) باللام اشعارا باختصاصهم بالثبات على عهدهم معهم دون من نكثوا أيمانهم ، ونقضوا عهدهم ، واذا كان فعل الاستقامة نضحت عليه معانى الحروف فاكتسب دلالات مختلفة بعدوى الحروف الواصلة له فلا ينبغى أن يقال فى تعديته بالى خاصة : انه مضمن معنى فعل آخر كما جاء فى الفتوحات الالهية (ضمن معنى توجهوا فعدى بالى) (١٢) .

لاننا نقول : ان التوجه والقصد الى الله تعالى فى قوله : « فاستقيموا اليه » هو من دلالة حرف الانتهاء وليس من دلالة الفعل ذاته ، أصالة أو تضمينا .

ومما قيل فيه بنيابة الى عن اللام قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصلحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .. هود ٢٣ » .

يقول ابن منظور : (وأخبت الى ربه أى اطمأن اليه . وروى عن مجاهد فى قوله تعالى : « وبشر المخبتين » قال : المطمئنين ، وقيل : هم المتواضعون ، وكذلك قال تعالى : « وأخبتوا الى ربهم » أى تواضعوا ، وقال الفراء : أى تخشعوا لربهم ، قال : والعرب تجعل الى فى موضع اللام ، وفيه خبتة : أى تواضع .

وأخبت لله : خشع ، وأخبت : تواضع ، وكلاهما من الخبت ، وفى التنزيل العزيز : « فتخبت له قلوبهم »)(١٣) .

وبتتبع ما قاله ابن منظور نجد أن أخبت حين يعدى بالى ، يدل

---

(١٢) الفتوحات الالهية ٤/٢٩ .

(١٣) لسان العرب ١٠٨٧/٢ .

على الاطمئنان ، وهو مما يوصل بالى ، وهذا يعنى أنه وجد سكنه وراحته فى الركون اليه ، وحين يعدى باللام فانه يدل على التواضع والخشوع ، وهو مما يوصل باللام • وعليه جاء قوله تعالى :

« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم •• الحج ٥٤ » على غرار قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله •• الحديد ١٦ » •

أما لماذا عدى الفعل بالى فى هود ، وباللام فى الحج فهو ما يجيب عليه السياق فى الآيتين • فآية هود جاءت بعد وعيد الله تعالى للصادين عن سبيل الله ، الذين يبغونها عوجا ، « الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون •• هود ١٩ » • فلما نعى القرآن على هؤلاء الصادين جاء فى مقابلتهم بامتداح المؤمنين الذين استقامت وجهتهم الى الله تعالى ، فلم يستطع الصادون عن سبيل الله أن يحولوهم عن وجهتهم واستواء قصدهم الى ربهم أو يحولوا بينهم وبين الوصول اليه ، والايواء الى كنفه ، وذلك ما يعبر عنه حرف انتهاء الغاية •

أما آية الحج فقد جاءت اثر الحديث عن الفتنة التى يلقى بها الشيطان فى نفوس الضعفاء « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم •• الحج ٥٣ » •

وفى مقابل مرضى القلوب فريق آخر من الذين أوتوا العلم يرى ما أنزل الله هو الحق فتخشع له قلوبهم وتخضع لأمره وتنقاد لحكمه « فتخبت له قلوبهم » واللام دالة فيه على اسلام قلوبهم لربهم واختصاصه بالخضوع له •

وفى قوله تعالى على لسان ابراهيم : « ربنا انى أسكنت من ذريتى

بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصــلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ٠٠ ابراهيم ٣٧ »(وأصل الهُوِىّ الهبوط بسرعة، وفى كلام بعضهم : السرعة ، وكان حقه أن يعدى باللام ، كما فى قوله :

حتى اذا ما هوت كف الوليد لها　　　طارت وفى كفه من ريشها تبك

وانما عدى بالى لتضمينه معنى الميل ، كما فى قوله :

تهوى الى مكة تبغى الهــدى　　　ما مؤمن الجن كأنجاسها)(١٤)

وبالبحث فى كتب اللغة نجد للفعل : (هو يهو ى) عدة معــان : (يقال : هو يهوى َهويا بالفتح ،اذا هبط ، وهو يهوى ُهويا بالضم اذا صعد ، وقيل بالعكس ، وهوى يهوى هويا اذا أسرع فى السير)(١٥) ٠

وكل هذه المعانى صالحة لأن تراد فى الآية ويحققها حرف الانتهاء وذلك أنه أسكن ذريته بواد ، والوادى كما فى المخصص (كل منفرج بين الجبال والتلال والآكام)(١٦) والمتجــه الى هذا الوادى انما يهبط من الجبال والتلال التى تحيط بمكة اليه ، و (الى) تشير معه الى جعل بيت الله الحرام غاية يقصد اليها الملبون ، وتنتهى آمالهم عندها ٠ ومعنى الصعود يمكن أن يراد هنا كذلك الســاحا الى شرف هذا المكان وســمو المقصد ، و (الى) تلمح الى ارتفاع نفوس الحجيج وعلوها بعلو الهدف والغاية التى يســعى اليها ، وقد عدى هــذا الفعل بالى دالا على معنى الصعود فى قول الشماخ(١٧) :

على طريق كظهر الأيم مطرد　　　يهوى الى قنة فى منهل عال

---

(١٤) روح المعانى ٢٣٩/١٣ ٠

(١٥) لسان العرب ٤٧٢٧/٨ ٠

(١٦) المخصص ١٠١/١٠ ٠

(١٧) ديوان الشماخ ٤٦٠ ٠

والمعنى الثالث وهو الاسراع ، ليس ببعيـد فى الآية ، لأن الملبى لدعوة ابراهيم تحركه دوافع الشـوق ويستحثه شرف المقصـد ليضرب أكباد الابل ، ويركب أسرع ما هيـأ الله تعالى له ، بغية الوصـول الى مقصده فى أسرع وقت يمكنه ..

فما الداعى الى القول بأن اللام هى أصل فى تعدى الفعل بها وكل هذه المعانى تؤدى بالى وينبىء فيها حرف الانتهاء عن القصد والغاية ؟

وكم أدى القول بتنـاوب الحـروف الى فوضى تكاد تذهب معها خصائص الحروف ، وتتلاشى فيها دقائق الفروق ، وليس أدل على ذلك مما ذكره فى قوله تعالى : « قل لمن ما فى السموات والأرض قل لله كتب على نفسـه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيـامة .. الأنعـام ١٢ » قال أبو حيان : (وقد تكون (الى) هنـا بمعنى اللام ، أى ليوم القيـامة ، كقوله تعالى : « انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه »)(١٨) .

وقد مضى فى فصل اللام أن كثيرا من النحاة والمفسرين جعلوا اللام فى قوله تعالى : « ربنـا انك جامع النـاس ليوم » وقوله « فكيف اذا جمعنـاهم ليوم » بمعنى (فى) ثم عـدنا الآن الى القول بأن (الى) بمعنى اللام .

واذا كنا قد رددنا القول بنيابة اللام عن (فى) هناك فاننـا بمثله نقول هنا ، فليست (الى) نائبـة عن اللام ولا مرادفة لها ، والجمـع يتعدى بفى اذا أريد الدلالة على زمان الجمع أو مكانه ، كقوله تعالى : « ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا .. النسـاء ١٤٠ » ويتعدى باللام للدلالة على الغرض من الجمـع ، كما فى قوله تعالى : « ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » لأن اليوم علم على الحساب

---

(١٨) البحر المحيط ٨٢/٤ .

وجمعهم له هو جمعهم للحساب والجزاء فيه ، ويتعدى بالى للدلالة على انتهائهم الى ما ينتظرهم من الحساب والجزاء •

ولكل موضعه وسر ايثاره • وها هنـــا عدى الفعل بالى بعد قوله « كتب على نفسه الرحمة » اشارة الى أن تأخير الله العذاب وعدم تعجيل العقوبة الى هذا اليوم ، هو من رحمة الله تعالى ، حتى يتيح الفرصـــة لمراجعة النفس والعودة الى الله : « وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا •• الكهف ٥٨ » •

ومن روائع النظم الكريم فى استخدام الحروف ـــ وكله رائع آخذ بمجامع القلوب ـــ قوله تعالى فى تعليم المســـلمين آداب الحـــديث مع رسوله الكريم : «ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم •• الحجرات ٤ـــ٥» •

فالفعل (خرج) أوصـــل فى القرآن بحـــرف الوعاء دلالة على أن المنافقين يتغلغلون فى صفوف المسلمين لاثارة الفتنة بينهم ، ويندسون فيهم لتشتيت جمعهم « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا •• التوبة ٤٧ » وأوصل بحرف الاستعلاء ، ايحاء بالتعالى والظهور ، كما جاء فى وصف موكب قارون « فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون •• القصص ٧٩ » وأوصل باللام اشارة الى اختصاص العباد بما أخرج الله لهم من طيبات الحياة وزينتها « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده •• الأعراف ٣٢ »وفيه حث لهم على الانتفاع بما خلقه من أجلهم ، وأوصـــل بالى فى الآية موضـــع الحديث لنكتة تغياها النظم الحكيم وكشف عنها الزمخشرى : (فان قلت فأى فائدة فى قوله « اليهم » ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ، ولم يكن خروجه

اليهـم ولأجلهم ، للزمهم أن يصـبروا الى أن يعلمـوا أن خروجـه اليهم)(١٩) .

وأضيف أن (الى) هنا أدل على التأديب ، وضبط النفس واحكامها من اللام ، اذ أن حرف الانتهاء يلزمها بأن لا يبادئوه الحديث حتى ينتهى اليهم ، وذلك فى ضمنه أنه خرج قاصدا لهم ، بخلاف اللام التى تبيح لهم مبادأته بالحديث متى علموا أنه خارج من أجلهم ، ولو لم ينته اليهم والأول أحكم فى كمال الأدب وأبلغ من اللام ، وأعتقد أن الزمخشرى ألمح الى ذلك فى قوله : (لو خرج ولم يكن خروجـه اليهم ولأجلهم) فأفاد بأن (الى) نهضت بمعنى الحرفين وهو انتهاؤه اليهم وقصده لهم .

وهذا الفعـل (أسر) جاء فى القرآن معدى بالى دالا على انهـاء الرجل سره الى آخر ، كما فى قوله تعالى : « تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم .. الممتحنة ١ » وقوله : « واذ أسر النبى الى بعض أزواجه حديثا .. التحريم ٣ » .

و (الى) تشير معه الى قصده بالسر وانتهاء الخبر عنده بحيث لا يسرى الى غيره ولا ينفذ منه الى سواه .

أما قوله تعالى على لسـان نوح : « ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا .. نوح ٩ » فهى مثل اللام فى قوله تعالى : « ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا » حيث جاءت زيادة فى الانكار والتقريع لقومه فى عدم اسـتجابتهم لدعوته بعد أن دعاهم وأنذرهم أكـثر من مرة ، وبأساليب مختلفة « قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهـارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا وانى كلما دعوتهم لتغفـر لهم جعلوا أصـابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم انى دعوتهم جهارا ثم انى أعلنت لهم وأسررت لهم أسرارا .. نوح ٥ ـ ٩ »

---

(١٩) الكشاف ٣/٥٥٩ .

فعدى فعل الاعلان باللام وهو مما يتعـــدى بنفســـه ، ولم يقل : أعلنتهم ، ثم جاءت اللام فى (أسررت لهم) بما فيها من معنى الاختصاص دالة على زيادة الانكار عليهم ، وقد اختصهم بدعوته ووجه لهم الانذار تلو الانذار .

* * *

الى وكلمة المصـــاحبة

ربما كانت (الى) أكثر حروف الجر التباســـا بما يدل على معنى المصاحبة ، وهو (مع) ، لذلك آثرت الحديث عن هذا التناوب بمزيد من الاطالة ، وأنا أعلم أنه ليس من تناوب الحروف ، لأن (مع) اسم وليست حرفا ، لكن النحاة والمفسرين كثيرا ما يعدونه من نيابة حروف الخفض بعضها عن بعض . قال ابن يعيش فى هذا الموضع : (فأما قول من جعلها بمعنى (مع) وبمعنى غيرها من الحـــروف فيحتج بقوله تعـــالى « من أنصارى الى الله » وقوله تعالى « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالــكم » ويحمل عليه قوله تعالى : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق » . قالوا لأنه لا يقال : نصرت الى فلان بمعنى نصرته ، ولا أكلت الى فلان، بمعنى أكلته ، وانما المعنى يعود الى أن يكون بمعنى مع ، ولذلك دخلت المرافق فى الغسل ، والتحقيق فى ذلك أن الفعل اذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يصل الى معموله بحرف والآخر يصل بآخر ، فان العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه ، ايذانا بأن هذا الفعل فى معنى ذلك الآخر)(٢٠) .

وأشار البطليوسى الى التداخل بين مع وحرف الانتهاء فقال : (الى ومع تتداخلان فى معنييهما ، فيوجد فى كل واحدة منهما معنى صاحبتها، لأن الشىء اذا كان مع الشىء ، فهو مضاف اليه ، واذا كان مضافا اليه

---

(٢٠) شرح المفصل ٨/١٥ .

فهو معه ، ألا ترى أنه اذا قال : فلان ظريف عاقل الى حسب ،فمعنــاه أن له ظرفاوعقلا مضافين الى حسب ثاقب)(٢١) •

وحين نتأمل النصوص التى قيل فيها ان (الى) بمعنى كلمة المصاحبة نجد فارقا بين ما يؤديه حرف الانتهاء ، وما تدل عليه مع ، بل ربما أدت (مع) فى مكان الى معنى يخالف ما يهدف اليه النظم •

ونبــدأ ببيت لسلمة بن الخرشب قال فيه التبريزى ان (الى) بمعنى مع • قال سلمة :

يسددن أبواب القباب بضمر الى عنن (٢٢) مستوثقات الأواصر

قال التبريزى : (يعنى انهم أصحاب خيل يحبسونها بأفنيتهم وفى بيوتهم ، لا يتركونها ترود ، اذ كانت معدة للغزو بها ، والاستعانة عند الدعاء لها ، فهم فرسان همهم مقصور على رباط الخيل وتضميرها لوقت الحاجة اليها ، والى بمعنى مع)(٢٣) •

الشاعر يريد الدلالة على كثرة الخيل التى ضاقت بها الحظــائر ، فاضطروا الى اسكانها معهم فى أفنية بيوتهم حتى سدت أبواب القباب، وشغلت المساحة الممتدة من هذه القباب الى الحظائر والأفنية ، ولم تترك موضعا شاغرا ، من بداية ما يملكون من البيوت الى نهاية حظائر الخيل• والقول بأن (الى) بمعنى (مع) لا يؤدى ما يؤديه حرف الانتهاء من استيعاب الابل لكل جزء من الأرض فيما بين بيوتهم وحظائر الخيل ، مبالغة فى كثرتها وهو ما يهدف اليه •

---

(٢١) الاقتضاب ٢٨٦/٢ •

(٢٢) العنن : حظائر من شجر تجعل فيها الخيل •

(٢٣) شرح المفضليات ٧٧/١ ـ ٧٨ •

ونجيء الى قوله تعالى : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون •• آل عمران ٥٢ » •

ونحاول أن نستبدل (مع) بالى ، لنجد أن الجواب لا يطابق السؤال ، الا بنية مضاف محذوف ، على أن يكون التقدير : نحن انصار رسول الله ، لأنه طلب حينئذ من ينصره مع نصر الله ، ومقتضاه فى الجواب أن يقولوا نحن أنصارك مع الله ، لا أن يقولوا نحن انصار الله • وهو تكلف لا داعى اليه ، مع ما يؤدى اليه من اخراج الى عن أصل معناها • وما يترتب عليه من فوات وجه ابلغ يؤدى بحرف الانتهاء كما أشار اليه المرادى مضعفا القول بأداء (الى) معنى (مع) فقال : (و (الى) فى هذا أبلغ من (مع) ، لانك لو قلت : من ينصرنى مع فلان لم يدل على أن فلانا وحده ينصرك ، ولا بد ، بخلاف (الى) فان نصرة ما دخلت عليه محققة مجزوم بها)(٢٤) •

وخير ما قيل فى تفسير هذه الآية استلها ما لمعنى الحرف ما قاله الزمخشرى ، وما نقله الألوسى عن صاحب الكشف ، وهما توجيهان يضربان بسهم واحد ، ويستهدفان غرض النظم من ايثار حرف الانتهاء•

قال الزمخشرى : (فان قلت : ما معنى قوله : من أنصارى الى الله؟ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين « نحن أنصار الله» والذى يطابقه أن يكون المعنى من جندى متوجها الى نصرة الله واضافة أنصارى خلاف اضافة أنصار الله ، فان معنى نحن أنصار الله : نحن الذين ينصرون الله ، ومعنى من أنصارى : من الأنصار الذين يختصون بى ويكونون معى فى نصرة الله ، ولا يصح أن يكون معناه من ينصرنى

---

(٢٤) الجنى الدانى ٣٨٦ •

مع الله ، لأنه لا يطابق الجواب ، والدليل عليه قراءة من قرأ : من أنصار الله)(٢٥) ٠

ونقل الألوسى عن صاحب الكشف : (لعل الأشبه فى معنى الآية — والله تعالى أعلم — أن يحمل على معنى — من ينصرنى منهيا نصره الى الله تعالى — كما يقتضيه حرف الانتهاء دون تضمين ، كأنه عليه السلام طلب منهم أن ينصروه لله تعـالى ، لا لغرض آخر ، مدمجا نصرة الله تعالى فى نصرة رسوله ، وجوابهم المحكى عنهم بقوله سبحانه : « قال الحواريون نحن أنصار الله » شديد الطباق له ، كأنهم قالوا : نحن ناصروك لأنه نصر الله تعالى ، الغرض الذى رمز اليه ، ولو قالوا نحن أنصارك لما وقع هذا الموقع)(٢٦) ٠

وقد نبه الزجاج فيما نقله الألوسى الى خطأ القول بأن حـروف المعانى ينوب بعضها عن بعض (لا يجوز أن يقال ان بعض الحروف من حروف المعانى بمعنى الآخر ، لكن الحرفين قد يتقاربان ، فيظن الضعيف العلم باللغة أن معناهما واحد ، وليس كذلك)(٢٧) ٠

ومثل هذه الآية قوله تعالى على لسان هود عليه السلام : « وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ٠٠ هود ٥٢ » ٠

فان الفرق بين « الى قوتكم » و مع قوتكم ، هو الفـرق بين أن يكون الشىء معك ، وأن يكون جزءا منك ، وذلك أن قوله تعالى « يزدكم قوة الى قوتكم » معناه يزدكم قوة تنتهى الى قوتكم وتنضم اليها ، كما ينضم المدد من الجند الى جيشه فيصبح جزءا منه ، يتكـاثر به الجيش

---

(٢٥) الكشاف ١٠١/٤ ٠

(٢٦) روح المعانى ١٧٥/٣ ٠

(٢٧) روح المعانى ١٧٥/٣ ٠

ويقوى ، وفى ذلك ما يوحى بأن قوتهم ذاتها ينميها الله تعالى ، ويبسط فيها طولا وعرضا ، حسبما يقتضيه فضله وكرمه ، وهذا ما ليس فى كلمة المصاحبة .

أضف الى ذلك هذا التزاوج البديع بين اتجاه الخلق بالتوبة الى الله فى قوله : « توبوا اليه » واتجاه عون الخالق اليهم فى قوله «يزدكم قوة الى قوتكم « فكانت هذه المشاكلة ضربا من ضروب الحسن فى نسق القرآن الكريم .

وعلى غراره قوله تعالى : « واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايما نا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون .. التوبة ١٢٤ » فانظر كيف أدى عرف الانتهاء الى تضاعف رجسهم بما انضم اليه من كفر بالآيات المنزلة ، وتكاثر وازداد حتى انتهى بهم الى الموت كافرين .

وتأمل قوله تعالى مخاطبا الأوصياء على اليتامى : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم .. النساء ٣ » .

كيف يؤدى القول بدلالة (الى) على المصاحبة الى افساد أغراض النظم !

فالله يأمر الأوصياء باعطاء اليتامى أموالهم حين يأنسون منهم الرشد ، ولكى تعود الى اليتامى حقوقهم كاملة نهى أن يأخذ الأوصياء منها ما يضيفونه الى أموالهم مادامت لهم أموال يستغنون بها فى معاشهم والأكل هنا مجاز عن اضاعة أموال اليتامى ، وليس حقيقة الأكل منها كقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل .. البقرة ١٨٨ » .

ولو كانت (مع) بدلا من الى لفهم منه أنه نهى عن اضاعة أموال اليتامى مع أموال الأوصياء ولا يشمل النهى عن أخذ مال اليتيم واضافته الى مال الوصى بما يفيد أكل مال اليتيم فحسب ، وهو المقصود من النهى ابتداء .

وبناء على ذلك فان (الى) هى التى تحقق الغرض من النهى عن الأخذ من أموال اليتامى والانتهاء بها الى أموالهم ، وكأن المعنى : لا تأكلوا أموالهم وتضيعوها باضافتها الى أموالكم ، وفى ذلك من التشنيع على الآكل وتفظيع جريمته ما فيه ،حيث تبرزه (الى) فى صورة مغتصب لمال اليتيم المؤتمن عليه فى وقت ليس هو فيه محتاجا الى ما اغتصبه، بعد أن أغناه الله بماله عنه ، ثم هو شره يريد تكثير أمواله وزيادتها عن طريق ظلم الضعفاء ممن استودعوا أمانته ، لذلك لم يكتف بقوله « ولا تأكلوا أموالهم » حتى قال « الى أموالكم » زيادة فى النعى على آكل مال اليتيم من الأغنياء .

ولا أستريح لجعل « الى » بمعنى المصاحبة على ما ذهب اليه الزمخشرى : « ولا تنفقوها معها ، وحقيقته : ولا تضموها اليها فى الانفاق ، حتى لا تفرقوا بين أموالكم وأموالهم ، قلة مبالاة بما لا يحل لكم ، وتسوية بينه وبين الحلال »(٢٨) .

لأن صورة الوصى اذا كانت قبيحة حين ينفق مال اليتيم مع انفاقه ماله ، انها أقبح وأفظع حين يستولى على مال اليتيم لينتهى به الى ماله ، وهو ماقصده النظم الكريم ، فالمأكول الضائع هو مال اليتيم وحده . وما قاله الزمخشرى فى المفصل لا يطابق ما قاله فى الكشاف : قال فى المفصل : (وكونها بمعنى المصاحبة فى نحو قوله « ولا تأكلوا

---

(٢٨) الكشاف ٤٩٥/١ .

أموالهم الى أموالكم » راجع الى معنى الانتهاء)(٢٩) •

اذ أن الانتهاء يقضى الى جمع أموال اليتامى واضافتها الى أموالهم لا انفاقها معها •

وهذا الذى قلته يتفق مع أحـــد وجهين ذكرهما الزركشى • قال : (وقيل : ترجع الى الانتهاء ، والمعنى فى الأول : من يضيف نصرته الى نصرة الله ، وموضعها حال ، أن من أنصارى مضافا الى الله ، والمعنى فى الأخرى : ولا تضيفوا أموالكم الى أموالهم ، وكنى عنه بالأكل ، كماقال: « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » أى لا تأخذوا) (٣٠) •

وهو نفس ما ذهب اليه ابن يعيش : (لمـــا كان معنى الأكل ها هنا الضم والجمع ، لا حقيقة المضغ والبلع عداه بالى ، اذ المعنى : لا تجمعوا أموالهم الى أموالكم) (٣١) وهو ما حققه الرضى كذلك • (والتحقيق أنها بمعنى الانتهاء ، أى تضيفونها الى أموالكم)(٣٢) •

* * *

الى وحرف الالصاق

مما استشهد به القائلون بنيابة حروف الخفض بعضها عن بعض لتداخل حرف الانتهاء بحرف الالصاق ونيابة الأول عن الثانى : قوله تعالى فى وصف المنافقين : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون •• البقرة ١٤ » •

قال الأخفش : « وأما قوله « واذا خلوا الى شياطيهم فانك تقول

---

(٢٩) المفصل ٢٨٣ •
(٣٠) البرهان ٤/٢٣٣ •
(٣١) شرح المفصل ٨/١٥ •
(٣٢) شرح الكافية ٢/٣٠١ •

خلوت الى فلان فى حاجة ، كما تقول خلوت بفلان)(٣٣) •

ومفهوم ذلك أن كلا التعبيرين يدلان على معنى واحد ، وهو الانفراد به • لكن الراغب فرق بين التعديتين بما يحقق معنى الحرف المعدى به قال (وخلا فلان بفلان : صار معه فى خلاء ، وخلا اليه : انتهى اليه فى خلوة)(٣٤) •

وانطلاقا من قول الراغب ، فان تعدى الفعل بالباء اكتسب من معنى المصاحبة فيها دلالته على الانفراد به ، والى خلعت من معناها عليه مادل على قصده والانتهاء اليه ، وكشفت فى الآية عن دخائل نفوس المنافقين وغايتهم ، وانصراف قصدهم الى لقاء اخوانهم من الشياطين ، بما يدل على أنهم خرجوا من أجله ، وهو وجهتهم الحقيقية • يدلك على ذلك تعبير القرآن فى جانب المؤمنين « واذا لقوا الذين آمنوا » فهو لقاء لم يقصد اليه ، وانما هو لقاء فرضته الطريق ، ودفعت اليه المصادفة • وتعبيرهم فى جانب اخوانهم «واذا خلوا الى شياطينهم» تدل فيه (الى) على أنه هدفهم الذى توجهوا اليه • وذلك يتناغم مع رغبتهم الكامنة فى نفوسهم ، والتى دل عليها تعبيرهم بالجملة الاسمية ، وتأكيدها بان فى قوله « انا معكم » ، فى حين غضدهم تعبيرهم فى دعواهم الايمان فجاءوا بالجملة الفعلية خلوا من التأكيد ، مما يدل على أن نفوسهم لم تطاوعهم كما طاوعتهم فى خطابهم لاخوانهم •

ولو جاء التعبير : خلوا بشياطينهم ، لما أفاد غير الانفراد بهم ، ولضاع غرض النظم من الكشف عن توجههم النفسى ، ووحدة الغاية التى تربطهم بحلفائهم •

---

(٣٣) معانى القرآن للأخفش ١/٤٦ •

(٣٤) المفردات ٢٢٦ •

قال الطبرى : (وأما بعض نحويى الكوفة فانه كان يتأول أن ذلك بمعنى « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » واذا صرفوا خلاءهم الى شياطينهم ، فيزعم أن الجالب لالى المعنى الذى دل عليه الكلام من انصراف المنافقين عن لقاء المؤمنين الى شياطينهم خالية بهم ، لا قوله خلوا ، وعلى هذا التأويل : لا يصلح فى موضع الى غيرها لتغير الكلام بدخول غيرها من الحروف مكانها • وهذا القول عندى أولى بالصواب ، لأن لكل حرف من حروف المعانى وجها هو أولى به من غيره) (٣٥) •

ومن الشواهد التى ذكرت للدلالة على أن الى تأتى بمعنى البـاء قوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم •• البقرة ١٨٧ »

والنحاة والمفسرون أمام تعدى الرفث بالى فريقان ، فريق يضمن الرفث معنى الافضاء ، وقد تصدينا له من قبل بما لا نحتاج الى اعادته هنـا •

وفريق يذهب الى القول بنيابة الى عن الباء(٣٦) وهو ما نرفضـه كما رفضنا القول بتضمين الفعل ذاهبين الى أن حرف الانتهاء على أصل معناه ، وأن له غرضا يقصد اليه النظم لا تؤديه الباء فى موضعه ، لأنها بما فيهـا من معنى المصاحبة والقرب انمـا تأتى حين يراد الحث على الاقتراب من المرأة والدعوة الى الاستمتاع بما أحله الله له ، واحسان صحبتها ، وهذا لا موضع له فى سياق يستهجن من المسلمين ما وقع منهم اختيانا لأنفسهم فى شهر هو موسم العبادة، صوما وصلاة ،وذكرا وتلاوة قبل أن يحل الله لهم ما أحله من اباحة الاجتماع بنسائهم ليلة الصيام الى طلوع الفجر ، وهو السر الذى من أجله عبر بالرفث بدلا من الافضاء مع

---

(٣٥) تفسير الطبرى دار الفكر بيروت ١/١٣٠ ـ ١٣١ •
(٣٦) انظر منتخب قرة العيون النواظر ٤٠ •

ما فيه من دلالة على الفحش كما ذكر الزمخشرى(٣٧) الى ما وصفهم به من اختيان أنفسهم •

أقول : سياق كهذا لا ينسجم معه حرف الالصاق بما يشيعه من مصاحبة النساء والالتصاق بهن ، انما يلائمه حرف الانتهاء الذى يقف عند حد الاباحة ، وقضاء حاجة الرجل من المرأة حينما تدعوه الحاجة اليها حتى لا يفوته فضل الاكثار من العبادة والذكر ، وجعل الى بمعنى الباء مفوت لهذا الغرض •

وقد أشرنا الى مثل هذا الفرق بين تعدية الاحسان بالباء وما يدل عليه من أنه احسان التصق بالمحسن اليه ودرج فيه ، والاحسان بالى وهو ما يقف عند حد ايصال الاحسان وانهائه الى صاحبه ، مما لا يخرج عما فى هذه الآية •

* * *

الى وحرف الوعاء

ذكر المالقى أن الى (تكون بمعنى (فى) وذلك موقوف على السماع لقلته ، كقولك : جلست الى القوم ، أى فيهم ، ومنه قول الشاعر :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى الى الناس مطلى به القار أجرب

وقول الآخر :

وان يلتق الحى الجميع تلاقنى الى ذروة البيت الرفيع المصمد

أى فى الناس ، وفى ذروة)(٣٨) •

وذكر السيوطى من معانى الى (الظرفية كفى ، نحو : « ليجمعنكم الى يوم القيامة » أى فيه ، « هل لك الى أن تزكى » ، أى فى أن)(٣٩)•

---

(٣٧) انظر الكشاف ١/٣٣٨ •
(٣٨) رصف المبانى ١٦٩ •
(٣٩) الاتقان ١/١٥٣ •

وإذا تأملنا بيت النابغة : (فلا تتركنى بالوعيد ..) نجده يصور ادبار الناس عنه وكراهيتهم للقائه بسبب هذا الوعيد الذى أخاف الناس منه فنفروا من لقائه فرارهم من المجذوم والأجرب ، وهو ما تجسده الى خير تجسيد ، حيث لم يتركوا له فرصة ليحتمى بهم ويدخل فى جمعهم ، فما أن ينتهى اليهم حتى ينكشفوا عنه ويبتعدوا منه ، ولو جاءت (فى) لأفسدت هذا الغرض .

وبيت طرفة الذى ذكره المالقى دلت فيه « الى » على أنه انتهى الى ذروة المجد ووصل الغاية منها بما لم ينته اليه أحد ويبلغه سواه . فهى كذلك على أصلها .

وقوله تعالى : « ليجمعنكم الى يوم القيامة » سبق الحديث عنه فى فصل اللام .

أما قوله تعالى : « اذهب الى فرعون انه طغى فقل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى .. النازعات ١٧ — ١٩ » فان « الى » فى قوله « هل لك الى أن تزكى » تنازعتها ثلاثة آراء ، أحدها ما نقلناه عن السيوطى ، والثانى أن « هل لك » بمعنى أدعوك . قال صاحب اللسان : (وأنت انما تقول هل لك فى كذا ، لكنه لما كان هذا دعاء منه صلى الله عليه وسلم له صار تقديره: أدعوك وأرشدك الى أن تزكى)(٤٠) والثالث : تقدير مبتدأ محذوف يتعدى بالى . قال أبو حيان : (وتقول العرب : هل لك فى كذا ، أو هل لك الى كذا ، فيحذفون القيد الذى تتعلق به (الى) أى هل لك رغبة أو حاجة الى كذا . قال الشاعر :

فهل لكم فيها الى فاننى بصير بما أعيا النطاسى خديما)(٤١)

---

(٤٠) لسان العرب ١/١٢٠ .

(٤١) البحر المحيط ٨/٤٢١ .

وعبارة الزمخشرى فى تفسيره غير صريحة فى الدلالة على تقدير (يرغب) أو أن (لك) معناه يرغب . قال : (هل لك فى كذا،وهل لك الى كذا ، كما تقول : هل ترغب فيه ، وهل ترغب اليه)(٤٢) .

وأرانى منعطفا نحو ما قاله أبو حيان من تقدير محذوف هو (رغبة) وأن النظم الكريم حذفه تلطفا فى الدعوة ، واستمالة للمدعو بما لايستثير صلفه وكبرياءه ، واظهاره بمظهر الراغب المتمنع .

ويبقى بعد ذلك ما لم يتعرض له أحد ممن قال بتقدير محذوف هو رغبة أن ترغب ، وهو سر ايثار القرآن لحرف الانتهاء مع أن يرغب يتعدى ــ كما قالوا ــ بفى ، والى ، وأن العرب تقول : هل لك فى كذا، وهل لك الى كذا فهل هما سواء ؟

وما أميل اليه انطلاقا من معنى (الى) هو أن الرغبة حين تعدى بها تدل على توجه الراغب الى المرغوب والسعى اليه وترك ما هو فيه ، متجها اليه ، قاصدا نحوه ، غير معرج على سواه ، وهو ما يقصد اليه النظم هنا دالا على طلب موسى من فرعون ترك دنيا الكفر ، والاتجاه الى الله ، كما يدل عليه قوله بعد ذلك « وأهديك الى ربك فتخشى » وهو ما دلت فيه الى على رغبة موسى فى ايصاله الى ربه دون أن يقول : وأهديك لربك ، غير مكتف بأن يدله عليه حتى يصل به اليه ، وهذا المعنى نجده فى قوله تعالى : « فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب .. الشرح ٧ ــ ٨ » كما فسره أبو حيان بقوله : (أى اصرف وجه الرغبات اليه ، لا الى سواه)(٤٣) .

ولاشك أن المعنى يفسد لو قلت : وفى ربك فارغب ، لأنه عليه

---

(٤٢) الكشاف ٤/٢٣ .

(٤٣) البحر المحيط ٨/٤٢١ .

السلام لم تفارقه رغبته فى الله أبدا ، ولكن الله طلب اليه اذا فرغ من شئون دنياه أن يتفرغ لعبادته تعالى ، ويصرف قلبه وفكره اليه وحده .

ولهذا الغرض الذى يلمح اليه حرف الانتهاء جاء الفعل « يؤذن » معدى بالى فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين اناه فاذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق .. الأحزاب ٥٣ » .

فالشأن فى هذا الفعل اذا كان بمعنى الاباحة أن يعدى بحرف الوعاء ، ولا يعدى بالى الا اذا كان بمعنى الاستماع قال فى القاموس المحيط : (وأذن له فى الشىء كسمع اذنا بالكسر وأذينا : اباحه له ، واستأذنه : طلب منه الاذن ، وأذن اليه وله كفرح : استمع) (٤٤) .

فما باله عدى بالى فى هذه الآية ؟ يقول العز بن عبد السلام : (قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه » مضمن معنى الا أن تدعوا الى طعام غير ناظرين اناه) (٤٥) .

والذى أراه — والله أعلم — أن العدول عن حرف الظرفية الى حرف الانتهاء قصد به توجيه أنظار المسلمين حين يدعون الى مائدة الرسول عليه السلام أن ينصرفوا الى ما دعوا اليه ، لا يلوون على شىء ، ولا يتجهون بأبصارهم الى غيره ، تأدبا بآداب الاسلام ، يؤيد ذلك سياق الآية وأسباب نزولها (٤٦) ، من كراهية الرسول لأفعال

---

(٤٤) القاموس المحيط (ترتيب القاموس) ١/١٢٧ .
(٤٥) الاشارة الى الايجاز ٥٧ .
(٤٦) انظر الوجيز فى تفسير القرآن العزيز ٢/١٨٧ ، والتفسير المنير لمعالم التنزيل ٢/١٨٧ — ١٨٨ وأسباب النزول ٢٤٣ .

بعض أصحابه الذين أثقلوا عليه ، ولم يراعوا أوقات راحته ، وما توجبه آداب الضيافة من احترام مشاعر المضيف وعدم مضايقته ، وهو الذى أفصح عنه القرآن بقوله : « ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم » ونزل على أثره امر الله بفرض الحجاب على نسائه عليه السلام «واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن » وليس فى تعدية الفعل بحرف الوعاء هذا المعنى الذى ألمحت اليه (الى) •

وفى قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا •• الأحزاب ٦ » قال العز بن عبد السلام : قوله « الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا » ضمن تفعلوا معنى تسدوا أو توصلوا ، لافادة المعنيين) (٤٧) •

وقال أبو حيان : (وعدى بالى لأن المعنى الا أن توصلوا الى أوليائكم) (٤٨) والمتتبع لمادة (فعل) فى القرآن الكريم يجدها قد تعدت بالباء كثيرا دالة على الحاق مكروه بمن تعدت اليه ، وأدت الباء دورها فى الايحاء بشدة الفعل ووطأته على من نزل به ، كقوله تعالى : « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم •• ابراهيم ٤٥ » وقوله : « الم تر كيف فعل ربك بعاد •• الفجر ٥ » وذلك لما أن الفاعل هو الله والصاق الله الفعل بهم دليل شدة العذاب وقسوته •

وتعدت بفى كما فى قوله على لسان قوم شعيب : « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء •• هود ٨٧ »

---

(٤٧) الاشارة الى الايجاز ٥٧ •

(٤٨) البحر المحيط ٢١٣/٧ •

وحرف الوعاء هنــا يذكر على شعيب أن يمنعهم من التصرف فى أموالهم بما يدل على تمكنهم منها وحريتهم فى المنح والمنع كما يقتضــيه حق المالك ، وليس غير (فى) بدلالته على التمكن يصلح فى موقعه .

أما تعديه بالى فى آية الأحزاب ، فذلك يوحى بأن ايصال المعروف الى الأوليــاء هــو من باب الاستثناء وليس متمكنا تمكن حقوق أولى الأرحام ، فيما ورثهم الله بشرعه ، فحقهم أمكن وألزم ، وذلك يتنــاسق مع سياق يبطل الله تعالى فيه الميراث بالمؤاخاة فى الايمان (٤٩) ويعود بالحقوق الى أصحابها من ذوى الأرحام كمــا دل عليه قوله : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ، ولو جاءت (فى) بدلا من الى لمــا تجاوبت أطراف النظم كما هى متجاوبة الآن .

ولالى وحيها ودلالتها الخاصة فى قوله تعالى : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وأحسنوا ان الله يحب المحسنين .. البقرة ١٩٥ » حيث آثرها على حرف الوعاء ، ولم يقل : فى التهلكة ، كما عدى نفس الفعل بهــا فى قوله تعالى : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .. آل عمران ١٥١ » وقــوله : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم .. النحل ١٥١ » وقوله : « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد .. ق ٢٤ » وقوله على لسان قوم ابراهيم « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم .. الصافات ٩٧ » .

ذلك أن الغرض فى آية البقرة هو تحــذير البخلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله من أنهم صائرون الى الهلكة ، وسائرون فى طريق ينتهى بهم نهــاية مؤلمة ، تكون أموالهم سبيلا الى شقائهم ، و « الى » هى التى دلت على اتجاههم الى هذا الطريق وقرب

---

(٤٩) انظر الوجيز للواحدى ١٧٨/٢ ، محاسن التأويل ٢٢٩/١٣

وصولهم الى نهايتهم ، وليس لحرف الظرفية هنا مكان ، لأنه لو جاء لدل على أنهم تمكنوا فيها وأحاطهم الهلاك واشتملهم ، وهو مالا يتلاءم مع التحذير المبكر قبل الوقوع فى المحظور • ولا داعى لتضمين الالقاء معنى الافضاء كما ذهب اليه الألوسى (٥٠) ، لأن فعل الالقاء مما يتعدى بالى كما فى قوله تعالى : « اذهب بكتابى هذا فألقــه اليهم •• النمــل ٢٨ » ودلت (الى) على انهاء الرســالة الى قوم بلقيس وايصالها اليهم • وقد أكد الراغب أنه (يقال : ألقيت اليك قولا وسلاما وكلاما ومودة • قال تعالى : «تلقون اليهم بالمودة» وقال : «فألقوا اليهم القول»)(٥١) •

أما تعدية فعل الالقاء بحرف الوعاء ، كمــا فى قوله : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » وقوله : « ألقيا فى جهنم •• » « فألقوه فى الجحيم » فانه يكشف عن شدة الرعب وتمكنه من قلوب الــكافرين وعمق آثره فى نفوسهم ، كما يكشف عن شــدة الالقاء ، والمبــالغة فى ايصاله الى عمق ما ألقى فيه من النار ، ويجســد حرص قوم ابراهيم على أن يلقوا به فى وسطها وأتونها حتى لا يتسلل منها •

★ ★ ★

الى ومعنى الاستعلاء

ذكر البعض ان الى بمعنى على فى قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات•• البقرة ٢٩ » على أن استوى بمعنى استولى ولعل ذلك كان فرارا ممــا يؤدى اليه ابقاء الفعل على أصل معناه من التجسيم والمشابهة ـــ تعالى الله عن ذلك وتنزه ـــ عند من لا يقول بالتجوز والتــأويل فى الصــفات ذاهبين الى أن الاستواء هنا بمعناه فى قول الشاعر :

---

(٥٠) انظر روح المعانى ٧٨/٢ •
(٥١) المفردات ٦٨٥ •

فلما علونا واستويت عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

وقد تصدى الألوسى لهذا الرأى وضعفه ، لأنه خروج بالحرف عن معناه الأصلى دون مقتض ، ولأن الاستيلاء على الشىء يقتضى سبق وجوده ، والسماء لم توجد بعد ، بدليل عطف « فسواهن » عليه بالفاء (٥٢) .

ومثل هذا القول لا يفرق بين تعدية فعل الاستواء بالى وتعديته بعلى ، اذ أن (الى) تكسبه معنى القصد الى الشىء ، والاستواء فى الفعل يدل على الاستقامة فى الاتجاه اليه ، مما يدل على أنه لم ينشغل بغيره ، أو يعمد الى ما يعطله عما قصد اليه ، لذلك قال الزمخشرى : (استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه توجها لا يلوى على شىء ، وهو من الاستواء الذى هو ضد الاعوجاج) (٥٣) .

وحين يعدى بعلى يكتسب من الاستعلاء فيها معنى الاستيلاء على الشىء كما فى قولة تعالى : « الرحمن على العرش استوى .. طه ٥ » .

على أن استواء الله الى السموات ليس استواء الذات وانما استواء التدبير وهو ما أفاده الراغب فى قوله : « ومتى عدى بالى اقتضى معنى الانتهاء اليه اما بالذات واما بالتدبير ، وعلى الثانى قوله « ثم استوى الى السماء ») (٥٤) .

وجعل صاحب التحرير والتنوير دلالة الاستواء على القصد الى الشىء من التجوز فى الفعل ، وحرف الانتهاء قرينة التجوز قال : (واستوى الشىء مطاوع سواه ، ويطلق مجازا على القصد الى الشىء

---

(٥٢) انظر روح المعانى ٢١٥/١ .
(٥٣) الكشاف ٤٤٥/٣ .
(٥٤) المفردات ٣٦٦ .

بعزم وسرعة ، كأنه يسير اليه مستويا لا يلوى على شىء ، فيعدى بالى فتكون الى قرينة المجاز وهو تمثيل) (٥٥) •

وهذه الدلالة نفسها هى التى أشار اليها الزمخشرى مع حرف الانتهاء ولكنه لم يقل انها على سبيل التجوز ، بل هو مما اكتسبه الفعل من تعديه بالى •

ومما قيل فيه بدلالة الى على معنى الاستعلاء قوله تعالى : « وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا •• الاسراء ٤ » •

نقل الألوسى عن ابن عباس وغيره أن المعنى قضينا عليهم ، والى بمعنى على (٥٦) •

وحين نعود الى معاجم اللغة نجد أن مادة القضاء – وان دارت حول الحكم والفصل – فان فعلها تتنوع دلالاته بما يضفيه عليه السياق وما يكتسبه من معانى الحروف التى يتعدى بها • فقوله : « وقضاهن سبع سموات » معناه : أحكم خلقهن ، وقوله : « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » معناه : أمر ربك أمرا قاطعا ، وقضى عليه عهدا : أنفذه ، وكأنه أحكم هذا العهد • أما قوله تعالى : « وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب •• » فمعناه أنهى اليهم ما حكمنا به وقدرناه ، ومثله: « وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين •• الحجر ٦٦ » فى خطاب الله لوط عليه السلام ولا يعقل أن يكون ذلك قضاء عليه ، وهو القضاء الذى أهلك به قومه وأنجاه وأهله • وهذا ما صرح به صاحب اللسان فى قوله : « وقضينا اليه ذلك الأمر » أى

---

(٥٥) التحرير والتنوير ١/٣٧١ •

(٥٦) روح المعانى ١٥/١٦ •

أنهيناه اليه وأبلغناه ذلك) (٥٧) .

أما لماذا عدل عن حرف الاستعلاء فى آية الاسراء الى حرف الانتهاء ، وهو قضاء عليهم ، وحكم نافذ فيهم . فأحسب — والله أعلم — أن العدول عنه تجسيد لعدل الله تعالى فى أن ما قضاه وقدره لا يفقد الانسان اختياره فى الاتجاه نحو الخير والعمل الصالح ، فهو أشبه بانذار وجه اليهم ، والدليل على ذلك قوله قبل الافساد فى المرة الثانية « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » ولو جاء بعلى لقيل انهم محكوم عليهم ، مغلوبون بقضاء الله لا ارادة لهم ولا اختيار ، والله قضى بأن لا يكون للناس عليه حجة .

وما قيل من تضمين قضى معنى أوحى لا ضرورة اليه لأن حرف الانتهاء أدى ما يؤديه ، وهو مع القضاء هنا أبلغ فى الانذار والوعيد . قال الرازى : (« وقضينا » أى أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا اليهم ، ولفظ (الى) صلة للايحاء ، لأن معنى قضينا : أوحينا اليهم ذلك) (٥٨) . وليس ذلك من الرازى وغيره الا محاولة لتصحيح التعدية مع ظهور معنى الحرف .

---

(٥٧) لسان العرب ٣٦٦٥/٦ .

(٥٨) التفسير الكبير ١٥٥/٢٠ .

الفصل السابع

من أسرار حرف المجاوزة

حقيقته ومجازه

المجاوزة هي معنى (عن) الذى لم يثبت البصريون لها سواه (١). الا أن هذه المجاوزة اخذت تفسيرات مختلفة فى كتب النحاة فى محاولة لاستيعاب صور التعدى بهذا الحرف ، وحين لم تستطيع هذه التفسيرات الوفاء بدلالات الحرف فى تراكيبه المختلفة ظهر القول بنيابتها عن أخواتها من حروف الجر وتضمين الفعل ما يتلاءم معها .

قال سيبويه : (وأما (عن) فلما عدا الشيء ، وذلك قولك : أطعمه عن جوع ، جعل الجوع منصرفا تاركا قد جاوزه ، وقال : سقاه عن العيمة ، العيمة : شهوة اللبن . قال أبو عمرو : سمعت أبا زيد يقول : رميت عن القوس ، وناس يقولون : رميت عليها . وأنشد :

أرمى عليها وهى فرع أجمع ... وهى ثلاث أذرع واصبع

وكساه عن العرى : جعلهما قد تراخيا عنه ، ورميت عن القوس ، لأنه بها قذف سهمه عنها وعداها ، ويقول : جلس عن يمينه . فجعله متراخيا عن بدنه ، وجعله فى المكان الذى بحيال يمينه ، وتقول : أضربت عنه ، وأعرضت عنه ، وانصرف عنه ، انما تريد أنه تراخى عنه ، وجاوزه الى غيره ، وتقول أخذت عنه حديثا أى عدا منه الىّ حديث) (٢) .

فالمجاوزة فى كلام سيبويه تشمل بعد المجرور عن الشيء قبله ، وبعد شيء عن المجرور ، لأن (أطعمه عن جوع) فيه الجوع وهو المجرور أبعد بالاطعام ، و (رميت عن القوس) أبعد فيه السهم عن المجرور وهو القوس .

---

(١) انظر الجنى الدانى ٢٤٥ ، وشرح الأشمونى ٢٢٣/٢ دار احياء الكتب العربية ، ومغنى اللبيب ١٢٩/١ .

(٢) الكتاب ٢٢٦/٤ ـ ٢٢٧ .

وهذه المجاوزة تتبدى فى ثوب الحقيقة حينــا ، وتتخفى فى أردية المجاز حينا آخر . يقول ابن القيم : (وهى حقيقة فى مجاوزة جرم عن جرم وتعديته عنه ، ثم يستعمل فى المعانى على طريق التشــبيه . كقوله تعالى : « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا » شبه انصراف البصيرة عن تأمل ذكره بانصراف المجاوز عما يجاوزه) (٣) .

وكلامه يدل على اجراء الاستعارة فى معنى الحرف .

ولمـا وجد النحاة أن بعض التراكيب التى عدى فيها الفعل بعن لا يبدو فيها بعد شىء عن شىء مثل : رضى الله عنه ، حيث لم يجـاوز الرضا المجرور أو يجاوزه المجرور ، اضطروا الى تفسير المجاوزة بمـا يتسع له ولأمثاله . ففى حاشية الصبان : (هى بعد شىء مذكور أو غير مذكور عمابعدها بسبب الحدث قبلها ،فالأول نحو رميت السهم عن القوس، أى جاوز السهم القوس بسبب الرمى ، والثانى : نحو رضى الله عنك ، أى جاوزتك المؤاخذة بسبب الرضا ، ثم المجاوزة تارة تكون حقيقية كهذين المثالين ، وتارة تكون مجازية ، نحو أخـذت العلم عن عمرو ، كأنه لمـا علمت ما يعلمه جاوزه العلم بسبب الأخذ) (٤) .

وهذا التعريف للمجاوزة أورد عليه الصبان ما يجعله غير جامع . فقال : (ومن المجازية : سألت زيدا عن كذا ، كأنه لمـا عرفك المسئول بالمسئول عنه جاوزه المسئول عنه بسبب السؤال ، وأنت خبير بأن هـذا انما يظهر اذا أفاد المسئول المسئول عنه ، لا اذا لم يفده ، وأن المناسب لهذا المثال جعل البعد للمجرور عن الشىء ، لا جعل البعد للشىء عن

---

(٣) الفوائد المشوق الى علوم القرآن ٤٠ .

(٤) حاشية الصبان على شرح الاشمونى ٢/٢٢٣ .

المجرور ، فلا يلائم تعريفهم المجاوزة هذا المثال فاعرف ذلك) (٥) .

فالمسئول اذا لم يفد من سأله فلا وجه للمجاوزة ، واذا أفاد بما سئل عنه فالمجاوز هو المجرور ، وفى كلا الحالين لا ينطبق عليه التعريف الذى ذكره الصبان .

وعبر المالقى بالمزايلة (٦) بدلا من المجاوزة فى تفسير معنى (عن)، ومثل لها بقولك : رميت عن القوس ، واحتجبت عن فلان ، وبقوله تعالى: « عفا الله عنك » .

وربما كان التعبير بالمزايلة أشمل ، لأنه يعم ما اذا كان المجرور هو الذى فارق وجاوز ، وما اذا كان شىء مذكور أو غير مذكور جاوز المجرور وتعداه .

وذهب ابن فارس الى أن الأصل فى (عن) الدلالة (على الانحطاط والنزول . تقول : نزل عن الجبل ، ونزل عن ظهر الدابة ، وأخذ العلم عن زيد ، لأن المأخوذ عنه أعلى رتبة من الآخذ) (٧) .

ولا يخفى أن معنى النزول والانحطاط مستفاد من معنى الفعل لا من دلالة الحرف ، ودلالة دنو مرتبة الآخذ مفادة من أن المعطى أفضل من الآخذ ، وليس من معنى (عن) بدليل قوله تعالى : « مخاطبا رسوله « وأعرض عن المشركين » وقوله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » فتارة يكون مجرورها هو الأرفع وأخرى يكون هو الأدنى .

والأولى أن يقال ان الفعل دلالة عامة حين يعدى بنفسه ، وله

---

(٥) السابق . نفس الصفحة .

(٦) انظر رصف المبانى ٤٢٩ .

(٧) الصاحبى ٢٣٣ .

دلالته الخاصة التى يكتسبها بعدوى الحروف التى يوصل بها طبقا لما تقتضية أغراض الكلام ، وهـو ما يتفـاوت فيه نظم عن نظم بقـدر ما يستوعب من معانى الحروف وما يضعه منها فى موضعه الملائم له .

فهذا الفعل (ولى) يتعدى بنفسه ، فيفيد معنى الولاية وحصول الشىء فى أقرب المواضع منـه (٨) . يقال : وليت سمعى كذا ، ووليت عينى كذا ، ووليت وجهى كـذا : أقبلت به عليه . قال الله عز وجل : « فلنولينك قبله ترضاها .. البقرة ١٤٤ » .

ويتعدى بعن فيكتسب من معنى المجاوزة الاعراض والادبار ، كما فى قوله تعالى : « سـيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها .. البقرة ١٤٢ » .

وقل مثـل ذلك فى الفعل (مال) فهو يتعدى بالى دالا على معنى العدول الى الشىء والاقبال عليه والاتجاه نحوه ، ويتعدى بعن فيكتسب من معنى المجاوزة فيها ما يدل على الابتعاد والاعراض ، وهـو نقيض ما يؤديه مع حرف الانتهاء ، وغير ذلك من الأفعال التى لا تحصى كثره مما تتجـاذبها الحروف بما يكسـبها دلالات ومعـانى متبـاينة أو متناقضة .

★ ★ ★

زيادة عن وأسرارها

هناك كثير من النصوص لايبدو فيها سر التعدى بعن مما يتوهم معها زيادتها ، وأداء التركيب لنفس المعنى بدونها ..

من ذلك قوله تعالى : « واصبر نفسـك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيـاة الدنيـا .. الكهف ٢٨ » .

---

(٨) انظر المفردات ٨٣٨ .

قال الزمخشرى : (يقال عداه : اذا جاوزه ، ومنه قولهم : عدا طوره ، وجاءنى القوم عدا زيدا ، وانما عدى بعن لتضمين عدا معنى نبا وعلا ، فى قولك : نبت عنه عينه ، وعلت عنه عينه اذا اقتحمته ولم تعلق به . فان قلت : أى غرض فى هذا التضمين ؟ وهلا قيل : ولا تعدهم عيناك ، أولا تعل عيناك عنهم ؟ قلت : الغرض فيه اعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من اعطاء معنى فذ ، ألا ترى كيف رجع المعنى الى قولك ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين الى غيرهم) (٩) .

وقد سبق أن قلت : ان التضمين لا يعدو أن يكون ضربا من البحث عن معنى يصح معه التركب ، لاكشفا عن أسرار الحرف . وحين نقارن بين التعبيرين : لا تعدهم عيناك ، و « لا تعد عيناك عنهم » نجد التعبير الأول يدل على النهى عن اهمالهم والاقلال من شأنهم ، أما التعبير الثانى الذى آثره القرآن فانه يفيد النهى عن تركهم الى غيرهم وصرف نظره واهتمامه بقوم سواهم ، حرصا منه على كسبهم واستمالتهم باظهار الود لهم والاقبال عليهم على حساب هؤلاء ، تحقيقا لما يهدف اليه علية القوم من المشركين من طردهم وابعادهم حتى يتسنى لهم الجلوس اليه كما عبر عنه القرآن فى موضع آخر « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى .. الأنعام ٥٢ » فالتعبير بالطرد هو الذى أدى بقوله هنا « ولاتعد عيناك عنهم » فكأنه قال : ولا تتجاوز هؤلاء النفر من قومك وتتركهم ماضيا الى سواهم ، وهو ما لا يفهم من الفعل المعدى بنفسه ، وهو ما ينبىء عنه كلام ابن منظور : (يقال : تعديت الحق ، واعتديته ، وعدوته ، أى جاوزته ، وقد قالت العرب : اعتدى فلان عن الحق ، واعتدى فوقه الحق ، كأن معناه جاز عن الحق الى الظلم ، وعدى عن الأمر : جازه الى غيره وتركه) (١٠) .

---

(٩) الكشاف ٢/٤٨١ .

(١٠) لسان العرب ٥/٢٨٤٦ .

وفي تعبير الرازي ما يشير الى الفرق بين تعدي الفعل بنفسه وتعديه بعن : (يقال عداه ، اذا جاوزه ، ومنه قولهم : عدا طوره ، وجاء القوم عدا زيدا ، وانما عدى بلفظة عن ، لأنها تفيد المباعدة ، فكأنه تعالى نهى عن تلك المباعدة) الى أن يقول : (والمقصود من الآية أنه تعالى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يزدري فقراء المؤمنين، وأن تنبو عيناه عنهم ، لأجل رغبته فمجالسة الأغنياء وحسن صورتهم) (١١) ٠

وفي قوله تعالى : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ٠٠ النور ٦٣ » قال أبو عبيدة : (« الذين يخالفون عن أمره » مجازه : يخالفون أمره سواء ، و (عن) زائدة) (١٢) ٠

وفي البحر المحيط : (ضمن خالف معنى صد وأعرض فعداه بعن) (١٣) ٠

وذهب الزمخشري الى تقدير مفعول محذوف (يقال : خالفه الى الأمر اذا ذهب اليه دونه ، ومنه قوله تعالى : » وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ، وخالفه عن الأمر ، اذا صد عنه دونه ، ومعنى « الذين يخالفون عن أمره » الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون ، فحذف المفعول ، لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه) (١٤) ٠

---

(١١) تفسير الفخر الرازي ١١٥/٢١ ٠
(١٢) مجاز القرآن ٦٩/٢ ٠
(١٣) البحر المحيط ٤٧٧/٦ ٠
(١٤) الكشاف ٧٩/٣ ٠

والمتأمل لسياق الآية يجد قبلها حديثا عن طاعة المؤمنين وثباتهم مع الرسول حين يدعو الى أمر جامع ، لا يتركونه الا باذن منه « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه .. النور ٦٢ » .

ثم جاءت هذه الآية مشيرة الى أن فريقا حاول أن يستتر بغيره ليترك الرسول خفية ويتسلل دون أن يراه أحد ، « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا » (أى يستترون ويلتجئون بغيرهم ، فيمضون واحدا بعد واحد) (١٥) فكان قوله « فليحذر الذين يخالفون عن امره » تحذيرا لهؤلاء الذين لا يعلنون عصيانهم — ولكنهم يتجاوزون أمر الله وينحرفون عنه — من سوء ما ينتظرهم ، واعلامهم بأن الله يراهم ويرقب أفعالهم ، ولو عدى الفعل بنفسه ، فقيل : يخالفون أمره لدل على أنهم يعلنون عصيانهم ومخالفتهم ، وليس هذا موقف المتسللين لواذا .

و (عن) هى التى أبرزت تجاوزهم وانحرافهم فيما حسبوه خافيا مستورا .

ومما يوهم ظاهره زيادة عن وامكان الاستغناء عنها وقوعها بعد تعدى فعل التكفير الى مفعوله بنفسه ، كما فى قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعلمون .. العنكبوت ٧ » .

فما فائدة (عن) وقد تعدى الفعل الى السيئات بنفسه ؟ وهل ينقص المعنى شيئا لو اكتفى بقوله : « لنكفرن سيئاتهم » ؟

والجواب : أن التكفير فى اللغة يعنى التغطية والستر ، وقد سميت الكفارات كفارات لأنها تغطى على الذنوب وتسترها(١٦) .

---

(١٥) المفردات ٦٨٩ .

(١٦) انظر اللسان ٧/٣٩٠٠ .

ولما كانت الآية وأمثالها فى مقام الترغيب وشحذ الهمم للاكثار من العمل الصالح والانطلاق بالنفوس التى اقترفت السيئات فى فترة من فترات ضعفها الى عالم البر والخير ، ودفعها الى حياة جديدة تنمحى فيها ذاكرة الشر من عقولهم جاءت (عن) لتفيد أن ما يكسبونه من خير فى حاضرهم ومستقبلهم لا يغطى فقط عورات الماضى وانما يمحوها ويبعدها عنهم تحقيقا لقوله تعالى : « ان الحسنات يذهبن السيئات .. هود ١١٤ » وفرق بين أن تستتر عليه ذنوبه وخطاياه مع بقائها فى ذاكرته تؤرقه وتقض مضجعه ، وبين أن تبعد عنه وتتجاوزه الى غير رجعة.وذلك ما ألمحت اليه (عن) ودلت عليه ، لذلك أعقبه هنا قوله « ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون » وأعقبها « وأصلح بالهم » فى قوله تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم .. محمد ٢ » فكيف يصلح البال اذا بقيت السيئات مستورة ولم يقر فى نفوس المؤمنين تجاوز الله عنها ومحوها واذهابها من صحائفهم ، وخاصة اذا كان قد سبق لهم الكفر قبل الايمان ؟ وقد عبر السهيلى عن هذا الابعاد والتجاوز بالخروج وهو ليس بعيدا عن الغرض الذى ذكرناه ، فقال : (ومن هذا النحو قوله عليه السلام : (فليكفر عن يمينه وليأت الذى هو خير) فأدخل فى كلامه (عن) لتؤذن بمعنى الخروج عن اليمين) (١٧) .

ورغبة المؤمنين فى محو سيئاتهم وابعادها عن صحائفهم هى التى جعلتهم يجأرون الى ربهم بهذا الدعاء : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا .. آل عمران ١٩٣ » حيث لم يكتفوا بأن يقولوا : فاغفر ذنوبنا وكفر سيئاتنا ، وهو ما كشف عنه الألوسى : (وفى ذكر « لنا »

---

(١٧) نتائج الفكر ٣٢٤ .

و « عنا » فى الآية مع أنه لو قيل : فاغفر ذنوبنـا وكفر سـيئاتنا لأفاد المقصود ، ايماء الى وفور الرغبة فى هذين الأمرين) (١٨) ٠

ولئن دلت زيادة « عنا » على وفور الرغبـة فى ابعاد السـيئات والتجاوز عنها هنـا ، فانهـا دلت على التنديم وزيادة التحسر فى قوله تعالى « ذلك هدى الله يهدى به من يشـاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ٠٠ الأنعام ٨٨ » لأن حبوط العمل يعنى بطلانه ، ويكفى فيه أن يقال : لحبط ما كانوا يعملون ، كما قال فى آية أخـرى : « والذين كذبوا بأياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ٠٠ الأعراف ١٤٧ » لكن زيادة « عنهم » فى الآية الأولى قصد منها زيادة فى تنـديم هؤلاء الذين هداهم الله الى الايمان واختارهم لطاعته اذا ما أشركوا كما تدل عليه الآية قبلها «ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم » وما أشد ندم من يهتدى الى الحق ويستضىء بنوره ثم يهوى الى ظلمات الشرك ، وتذهب عنه أعماله الصالحة ، وتنفلت من بين يديه ، ينظر اليها خاسئا وهو حسير ٠

وهذا (رضى) يتعدى تارة بنفسه دالا على الاختيار والقبول كما فى قوله تعالى : « ورضيت لكم الاسـلام دينا ٠٠ المـائدة ٣ » بمعنى اخترته لكم ٠ ثم يتعدى بعن فيدل على مرحلة من كمال الرضا تصل الى حد قبول كل ما يصدر من المجرور بها من أفعال وأقوال ، وكأنها توحى بالتجاوز عن كل ما لا يأتى على رغبة الراضى ، كما فى قوله « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبـايعونك تحت الشـجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ٠٠ الفتح ١٨ » وقوله « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ٠٠ التوبة ١٠٠ » ٠

---

(١٨) روح المعانى ٤/١٦٥ ٠

وهذه المزاوجة بين رضا الله عن السابقين ورضاهم عنه شاهدة بأن الله أحلهم محلا من الرضا قبل فيه كل ما يصدر عنهم وتجاوز عن زلاتهم • وكأنه ينادى «اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم» وكان رضاهم عنه ناطقا بقبول قضائه والتلذذ بما يبتليهم به مما يثقل على غيرهم ويعافونه، لذلك قال الراغب : « ورضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجرى به قضاؤه)(١٩) •

ولنتأمل قول الله تعالى تصويرا للذل والاستسلام ، وما يجب أن يصير اليه حال الكافر المتمرد فى مواجهة قوة المسلمين الغالبة باذنه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون •• التوبة ٢٩ » •

وهو حث المسلمين على التشدد مع أهل الكتاب الذين خرجوا على دينهم ، واستباحوا ما حرم الله ورسوله ، واستهانوا بالمسلمين ، وعدم الكف عن قتالهم حتى يفلوا عزمهم ، وينهكوا قواهم ، ويرغموهم على الطاعة والاستسلام الكامل ، لذا لم يكتف القرآن بقبولهم الجزية ، حتى يكون رضاهم هذا صادرا عن استسلام تام ومصحوب بالذلة البالغة ، ضمانا لعدم قدرتهم على تجميع صفوفهم والعودة الى حرب المسلمين • وقوله « عن يد » تجسيد لهذا المعنى ، بما يدل عليه من عجزهم عن الامساك بأموالهم ، وكأن هذه الأيدى لا تقوى على حبس المال ومنعه من التفلت منها ، والابتعاد عنها ، وهو غاية الضعف والهوان قال ابن منظور : (وقوله عز وجل « حتى يعطوا الجزية عن يد » قيل : معناه عن ذل ، وعن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم)(٢٠) •

---

(١٩) المفردات ٢٨٦ •

(٢٠) اللسان ٨/٤٩٥٤ •

ألا ترى كيف ينبو المعنى ويفسد الغرض لو قيل : حتى يعطوا بيد واليد المعطية — كما هو معرف — خير من اليد الآخذة ؟ ثم ألا ترى كيف يقل المعنى ويتناقض فيما لو قيل : حتى يعطوا الجزية • بدون هذه الزيادة ؟ •

★ ★ ★

عن ومعنى الالصاق

من أشهر الأمثلة التى قيل ان (عن) فيها بمعنى الباء قوله تعالى : « والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى •• ١ — ٣ » •

قال أبو عبيدة : (« وما ينطق عن الهوى » أى بالهوى)(٢١) •

ويعلل الزركشى وجوب كونها بمعنى الباء بقوله : (لأنها اذا كانت بمعنى الباء نفى عنه النطق فى حال كونه متلبسا بالهوى وهو صحيح ، واذا كانت على بابها نفى عنه التعلق حال كونه مجاوزا عن الهوى ، فيلزم أن يكون النطق حال كونه متلبسا بالهوى ، وهو فاسد)(٢٢) •

ورد البطليوسى رأى أبى عبيدة ومن تابعه كابن قتيبة ، فقال : (وأما ما حكاه عن أبى عبيدة : أن معنى قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى » أى ما ينطق بالهوى فانه لا يلزم ، و (عن) فى الآية على بابها، غير بدل من شىء آخر ، والمراد أن نطقه لا يصدر عن هوى منه ، انما يصدر عن وحى)(٢٣) •

---

(٢١) مجاز القرآن ٢/٢٣٦ •
(٢٢) البرهان ٤/٢٨٧ •
(٢٣) الاقتضاب ٢/٢٧٤ •

وما قاله البطليوسى هو الذى سار عليه كثير من المفسرين وفى مقدمتهم الزمخشرى • حيث قال : « وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه »(٢٤) •

وان كان من جاءوا بعده حملوا ذلك على تضمين ينطق معنى يصدر ولا أظن الزمخشرى قصد به التضمين ، بل كان مستجيبا لمعنى الحرف ، لأن نفى المجاوزة هنا معناه نفى أن يكون هوى من نفسه أو رأيه عدا الى منطقه ، وصادر عنه ، كما تقول : حدثت عنه ، ورويت عنه ، ونطقت عنه ، وهو ما فسر به امام النحاة المجاوزة فى مثله • قال : « وتقول أخذت عنه حديثا ، أى عدا منه الى حديث »(٢٥) •

وما يعنينا فى هذه الدراسة بوجه خاص هو سر العدول عن الباء الى حرف المجاوزة ، وان كان كلاهما يصح تعدية الفعل به وهو ما لم يتعرضوا له فى زحمة انشغالهم بتصحيح التعدية •

وأرى أن ما عليه النظم الحكيم أبلغ فى تبرئته عليه السلام من هوى النفس والتحدث برأيه ، اذ أن نفى التلبس بالهوى ومخالطته لا ينفى أن يكون صادرا عنه وناشئا منه ، ومن ثم فان قولك : ما حدثت برأيه ، فيه نفى أن تكون حكيت رأيه ، ولا ينفى أن تكون متأثرا به ، أو أن شيئا من فكره ورأيه عدا الى منطقك • أما قولك : ما حدثت عن رأيه فذلك أقطع فى نفى أن تكون متحدثا برأيه ، وأن تكون متأثرا به صادرا عنه ، ومن ثم جاءت (عن) دالة على نفى أن يكون ما جاءهم به صادرا عن هوى من نفسه أو متأثرا به ، وهو لا شك أبلغ من نفى التلبس والمخالطة •

وفى قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها

---

(٢٤) الكشاف ٢٨/٤ •

(٢٥) الكتاب ٢٢٧/٤ •

عندك ربى لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل انما علمها عند الله ٠٠ الأعراف ١٨٧ »

قال ابن المبارك الزيدى فى كتابه (غريب القرآن) : (« كأنك حفى عنهـا » عالم بها ، والمعنى : يسـألونك عنها كأنك حفى ، وجاء عن ابن عباس أنه قال : كأنك حفى بهم ، أى فرح بهم حين يسألونك) (١٦) ٠

ومقتضى ماقاله ابن عباس أن (عن) بمعنى البـاء وهو ما ذهب اليه أبو عبيدة كذلك (٢٧) ٠

وعلق الطبرى على هـذا الوجه بقوله : (فوجه هؤلاء تأويل قوله « كأنك حفى عنها » الى حفى بها ٠ وقالوا تقول العـرب : تحفيت له فى المسألة ، وتحفيت عنه ، قالوا ولذلك قيل : أتينا فلانا نسأل به ، بمعنى نسأل عنه ٠ قال أبو جعفر : وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال معناه كأنك حفى بالمسألة عنها فتعلمها ، فان قال قائل : وكيف قيل « حفى عنها » ولم يقل : حفى بها ، ان كان ذلك تأويل الكلام قيل ان ذلك قيل ، لأن الحفاوة انما تكون فى المسألة وهى البشاشة ، للمسئول عند المسألة ، والاكثار من السؤال عنه ، والسؤال يوصل بعن مرة ، وبالباء مرة ، فيقال : سألت عنه ، وسألت به ، فلما وضع قوله « حفى » موضع السؤال وصل بأغلب الحرفين اللذين يوصل بهما السؤال ٠ كما قال الشاعر :

سؤال حفى عن أخيـه كأنه يذكره وسنان أو متواسن) (٢٨)

وبالرجوع الى المعاجم نجد أن (حفى) وما اشـتق منه يتعـدى بالباء وفى والى وعن ، وفى كل تعدية يكتسب دلالة خاصـة من الحرف المعدى به ، فلم القول بحرف أصـلى وآخر نائب عنـه ؟ قال فى معجم

---

(٢٦) غريب القرآن ١٥٥ ٠

(٢٧) انظر مجاز القرآن ١/ ٢٣٥ ٠

(٢٨) تفسير الطبرى ٩/ ٩٦ ٠

الأفعال المتعدية بحرف : (حفى به حفوا وحفاوة : بالغ فى اكرامه ، وأحفى فى السؤال الحف ، وأحفيت اليه فى الوصية : بالغت ، وهو فى حفى عن الأمر : بليغ فى السؤال عنه « كأنك حفى عنها » • وقال الأعشى (طويل) :

فان تسألى عنى فيارب سائل حفى عن الأعشى به حيث أصعدا)(٢٩)

والواضح فى هذه المادة أنها تحمل معنى المبالغة فى كل معانيها ، والمبالغة فى السؤال عن الساعة والالحاح فى معرفتها هو الملائم لسياق تكرر فيه السؤال عنها ونفى الرسول علمه بها مرتين فى آية واحدة ، واستخدمت كل الوسائل التى تبعد شبهة علم أحد غير الله بها ، ويكفى أن تضم الآية أربعة أساليب للقصر هى « قل انما علمها عند ربى » « لا يجليها لوقتها الا هو » « لا تأتيكم الا بغتة » « قل انما علمها عند الله » •

وتكرار سؤالهم بعد أن نفى الرسول علمه بها يوحى باعتقاد منهم أن الرسول ملح على ربه فى معرفتها لاجابتهم عليها ، وربما أطمعهم رده الأول « قل انما علمها عند ربى » بايثار لفظ « رب » الدال على قرب المربوب منه ، واضافته الى ياء المتكلم بما تدل عليه من عمق صلته بربه ، ربما أطمعهم ذلك فى سؤال ربه عنها ، مما جعل جوابه فى المرة الثانية يأتى قطعا لهذا الاطماع فيقول « انما علمها عند الله » مؤثرا لفظ الجلالة بلا اضافة ، والملائم لذلك هو (عن) لا الباء ، لأن الباء تدل على علمه بها ، وهم انما أرادوا بكثرة سؤالهم أن يلح الرسول على ربه لمعرفتها وهم لا يكذبون الرسول فى نفى علمه بها • وتفسير « حفى عنها » بعالم بها ليس بيانا لحقيقته ، انما هو تجوز بالمسبب عن السبب ، لأن العلم

---

(٢٩) معجم الأفعال المتعدية بحرف ٦١ •

بها مسبب عن الســؤال عنها ، وذلك ما أوضـــحه جار الله الزمخشرى (« كأنك حفى عنها » كأنك عالم بها ، وحقيقته : كأنك بليغ فى الســؤال عنها ، لأن من بالغ فى المســألة عن الشىء والتنقير عنه اســتحكم علمه ورصــن)(٣٠) .

وفى قوله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا .. النساء ٤ » .

ذهب الألوسى الى أن تعدى الفعل « طاب » بعن جرى على غير الأصل ، اذ أن الشأن فيه أن يتعدى بالباء ، كقوله :

● وما كاد نفسا بالفراق تطيب ●

لذلك كان لابد من تضمين (طاب) معنى تجافى وتباعد ، حتى تصح تعديته بحرف المجاوزة(٣١) .

وكأن الألوسى لا يفــرق بين طاب بالشىء ، وطاب عنـــه ، فالأول يطيب بصحبته وقربه ، والثانى تطيب نفسه بتركه ، وذلك فرق ما بين التعديتين ، فالشاعر ينفى طيب النفس بمخالطة الفراق ومصـــاحبته ، والآية الكريمة تعلق حل الأكل من مهور النساء بطيب أنفسهن عما تنازلن عنه وتركنه لأزواجهن رغبة واختيارا ، وليس من وضع (عن) موضـــع الباء فى النظم الكريم . ذلك ما أوضحه ابن منظور (وقولهم : طبت به نفسا ، أى طابت نفسى به ، وطابت نفسه بالشىء ، اذا سمحت به من غير كراهة ولا غضب ، وقد طابت نفسى عن ذلك تركا ، وطابت عليه اذا وافقتها ، وطبت نفسا عنه وعليه وبه ، وفى التنزيل العزيز : « فان طبن لكم عن شىء منه نفسا »(٣٢) .

---

(٣٠) الكشاف ٢/١٣٤ .
(٣١) انظر روح المعانى ٤/١٩٨ ــ ١٩٩ .
(٣٢) لسان العرب ٥/٢٧٣٣ .

عن ودلالتها على التعليل

مما قيل فيه ان عن جاءت دالة على التعليل ، مفارقة معناها الموضوعة له وهو المجاوزة قوله تعالى على لسان قوم هود : « قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين .. هود ٥٣ » حيث ذهب البعض الى أن المعنى : وما نحن بتاركى آلهتنا لقولك(٣٣) .

وبتأمل الآية وما يهدف اليه النظم نجد أن قوم هود أرادوا تيئيس هود من الايمان به والتحقير من شأنه باظهاره فى صورة من ليس أهلا لاتباعه والصدور عن رأيه ، ولخاصة فى أمر خطير يتعلق بعقيدتهم ودين آبائهم ، وكأنهم أرادوا أن ينفوا أمرين ، لا أمرا واحدا ، الأول : أنهم لن يتركوا آلهتهم ولن يقبلوا فيها جدالا ، والثانى أنهم لن يصدروا عن رأيه وقوله ، وليس هو بذى الرأى فيهم ولا بمنزلة من يتبع ، وهو ما أكدوه بقولهم « وما نحن لك بمؤمنين » . وذلك أبلغ من اللام فى موضعها ، لأنه مع اللام يكون المنفى أمرا واحدا معللا بقوله ، ويكون المعنى : لن نترك ديننا من أجل قولك ، ومفهومه أنهم على استعداد لترك دينهم لو جاءهم غيره ببينة أوضح وكان مقبولا لديهم ، وذلك ليس شأن المعاند المتمسك بدينه تمسكا أعمى لا يقبل فيه رأيا ولا يقنع بحجة .

وعلى ذلك جاء قول الكشاف : (« عن قولك » حال من الضمير فى تاركى آلهتنا ، كأنه قيل : وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك)(٣٤) .

ويكون النفى بذلك منصبا على القيد والمقيد معا . وليس على الحال وحدها .

---

(٣٣) انظر الاتقان ١/١٦٤ .
(٣٤) الكشاف ٢/٢٧٥ .

ومثل (عن) هذه كثير فى القرآن الكريم • كقوله تعالى على لسان الخضر عليه السلام : «وما فعلته عن أمرى •• الكهف ٨٢ » نافيا أن تكون أفعاله العجيبة ، التى لم يطق موسى صبرا عليها صادرة عن رأيه ، وناشئة عن علم ذاتى فيه ، وانما مرد ذلك كله الى ربه الذى وصف ما عند الخضر بقوله « وعلمناه من لدنا علما » •

ولا يصح أن يقال ان عن فيه للتعليل ، لأنك لو قلت ، وما فعلته لأمرى أو بأمرى لجاء مغسولا نابيا عن موطنه فى النظم الحكيم •

ومثله قوله تعالى : « اذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة •• الأنفال ٤٢ » •

وهو اخبار من الله تعالى بأنه قدر هذا اللقاء بين المؤمنين والمشركين فى بدر ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة ، لا عن مخالجة شبهة ، حتى لا تبقى على الله حجة ، ويصدر اسلام من أسلم أيضا عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به)(٣٥) فهل يمكن القول بأن (عن) هنا دالة على التعليل ، وأن البينة سبب هلاك الهالكين؟ واذا قيل انها للسببية فليس ذلك الا بيانا للمعنى وليس كشفا عن بلاغة النظم • وهو ما أوضحه الزمخشرى حين قال فى قوله تعالى وصفا لخمر الجنة « لا يصدعون عنها ولا ينزفون •• الواقعة ١٩ » قال : (« لا يصدعون عنها » أى بسببها ، وحقيقته : لا يصدر صداعهم عنها)(٣٦) •

---

(٣٥) الكشاف ٢/١٩٠ •

(٣٦) الكشاف ٤/٥٣ ـ ٥٤ •

والمتأمل لأغراض النظم فى هذه الآية وفى مثلهـا من قوله تعالى : « يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون .. الصافات ٤٥ ــ ٤٧ » يجد أن أى حـرف من الحروف التى قيل انها تدل على السببية مثل الباء ــ لا يمكن أن يؤدى ما أدته (عن) من نفى صـدور أى أثر من الآثار الضـارة للخمر المعروفة فى الدنيا ،سواء عند شربها ومخالطة الخمر لعقول شـاربيها ، أو بعد ذلك مما يعقبها من صداع وارهاق ، ولو قال لا يصدعون بهـا ، ولا ينزفون بها ، لأفهمت الملابسة والمصـاحبة فى الباء نفى الصـدع والنزف حال شربها ولم تنفهما عقبه كأثر من آثارها . فاستدعى كمال المدح (عن) دون غيرها .

والى مثل ذلك ذهب الأستاذ طاهر بن عاشـور فى تفسـير حرف المجاوزة من قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشـيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه .. البقرة ٣٥ ــ ٣٦ » قال : (والضمير فى قوله « عنها » يجوز أن يعود الى الشجرة لأنها أقرب وليتبين سبب الزلة ، وسبب الخروج من الجنة ، اذ لو لم يجعل الضمير عائدا الى الشجرة لخلت القصة عن ذكر سـبب الخروج ، و (عن) فى أصل معناها ، أى أزلهما ازلالا ناشئا عن الشجرة ، أى الأكل منهـا ، وتقدير المضاف دل عليه قوله « ولا تقربا هذه الشجرة » وليست (عن) للسببية ، ومن ذكر السببية أراد حاصل المعنى)(٣٧) .

وعلى نحو منه جاء قول الرضى : (قلت هذا عن علم ، أو عن جهل ، أى قولا صادرا عن علم)(٣٨) .

وقوله تعالى : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة

---

(٣٧) التحرير والتنوير ٤١١/١ .
(٣٨) شرح الكافية ٣١٨/٢ .

وعدها اياه .. التوبة ١١٤ » وهو الذى قال فيه السـيوطى وغيره ان (عن) فيه للتعليل ، والمعنى : لأجل موعدة(٣٩) .

جاء بعد قوله تعالى عتابا لرسوله « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يسـتغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعـد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم .. التوبة ١١٣ » وهو ما يثير سـؤالا عن سبب صدور الدعاء من ابراهيم لأبيـه وهو من المشركين . فجاء الجواب بنفى أن يكون ابراهيم ناشئا فى دعائه عن عاطفة الأبوة ، أو قضاء لحق القرابة ، وانما صدر دعاؤه وفاء بما وعد به أباه ، و (عن) تشير فيه الى أنهكان مدفوعا الى هذا الدعاء مضطرا اليه ليتجاوز اثم الخلف ويتفادى مغبة الوصف بعدم الوفاء . وليس فى اللام ما فى حرف المجاوزة من الايمـاء الى هذا الغرض .

* * *

عن وحرف الاستعلاء

ذكر النحـاة أن عن تأتى بمعنى على دالة على الاسـتعلاء(٤٠) ، ومثلوا لها بقول الشاعر :

لاه ابن عمك لا أفضـلت فى حسب عنى ولا أنت ديانى فتخـزونى

قالوا معناه : لا أفضلت فى حسب على .

ولو أننى أرى أن حرف المجاوزة هنا أبلغ ، لأنه ينفى أن يكون قد جاوزه فى الشرف وفاته فى كرم الأصل ، ولا يريد أنه صاحب فضل عليه

---

(٣٩) انظر الاتقان ١٦٤/١ .

(٤٠) انظر رصف المبانى ٤٣١ .

والا لسكان قوله (ولا أنت ديانى) تكرارا له • والى مثل ذلك ذهب التبريزى فى شرحه للبيت(٤١) •

وبناء على ما قرره النحاة من دلالة (عن) على الاستعلاء قالوا(٤٢) فى قوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه •• محمد ٣٨ » •

والبخل كما عرفه الراغب : (امساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه)(٤٣) •

فاذا كان البخل بمعنى الامساك ، فانه يتعدى بعن كما يتعدى بعلى ، فنقول : أمسك عن الطعام ، بمعنى حبس نفسه عنه ومنعها من تناوله ، وأمسك عنه المال : حبسه عنه ومنعه ، ولذلك يصح أن تقول بخل عليه اذا قصدت أنه أوقع عليه الضرر بحبس المال عنه ، وبخل عنه ، اذا أردت منع المال عنه ، وليس أحد الحرفين بمعنى الآخر • قال الألوسى : (يقال : بخلت عليه وبخلت عنه ، لأن البخل فيه معنى المنع ، ومعنى التضييق على من منع عنه المعروف والاضرار ، فناسب أن يعدى بعن للأول ، وبعلى للثانى ، ، وظاهر أن من منع المعروف عن نفسه كاضراره عليها ، فلا فرق بين اللفظين فى الحاصل)(٤٤) •

وهذا كلام جيد فيما يضفيه كل حرف على فعله المعدى به ، غير أن القول بتساوى التعبيرين فى الآية الكريمة مما لا يليق بنظم يختار من الحروف ما لا يؤدى غيره سواه •

---

(٤١) انظر شرح المفضليات ٥٩٥/٢ •
(٤٢) انظر البرهان ٢٨٦/٤ •
(٤٣) المفردات ٤٩ •
(٤٤) روح المعانى ٨٢/٢٦ •

و (على) بما فيها من معنى الاضرار لا تنسجم مع السياق ، حيث يدعى قوم الى الانفاق فى سبيل الله فيستجيبون لشح أنفسهم ، ويضنون بأموالهم فلا يلبوا داعى الله ، وهم بذلك انما يمنعون الخير عن أنفسهم من حيث ظنوا أنهم يبذلونه لها ، لأنه ليس للانسان من ماله الا ما تصدق فأبقى وكأن القرآن يقول لهم : انكم اذ منعتم المال وحبستموه عن وجوه الخير فانكم منعتم الأجر العظيم والثواب الجزيل عنها وليس لذلك الا حرف المجاوزة بما يشير اليه من مجاوزة الخير لهم وفواته عنهم .

ونأتى الى سر ايثار (عن) فى قوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه .. يوسف ٢٣ » مع أن (راود) الأصل فيه أن يتعدى بعلى دالا على المغالبة ، كما جاء فى حديث أبى هريرة(٤٥) « حيث يراود عمه أبا طالب على الاسلام » وفى حديث الاسراء قال موسى عليه السلام « قد والله راودت بنى اسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه »(٤٦) .

وكأنهما عليهما السلام غلبا أبا طالب وبنى اسرائيل بحجتهما ، وحاولا التأثير عليهما ، وانزالهما على رغبتهما .

وفى مراودة امرأة العزيز ليوسف ما يوحى بالمغالبة التى تتطلب حرف الاستعلاء ، كما يدل عليه اختيار التعريف بالموصولية « التى هو فى بيتها » بما يشعر بتسلطها ورجاحة موقفها ، وقوله «وغلقت الأبواب» فلم عدل عن حرف الاستعلاء الى حرف المجاوزة ؟

تساءل العز بن عبد السلام قائلا : (ما معنى قولنا ــ راودته عن كذا بحرف عن ، وعن لا تكون الا للمجاوزة ؟)

(٤٥) انظر لسان العرب ١٧٧٥/٣ .
(٤٦) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد .

وأجاب بقوله : (ضـــمن معنى صرف ، لأن المراود يصرف المراود عما عنده الى ما عنده ، وصرف يتعدى بعن فعدى هذا بها) (٤٧) .

ونقل الآلوسى عن صاحب الكشف : (المراودة منازعة فى الرود بأن يكون له مقصد مجيئا وذهابا ، وللمفاعل مقصد آخر يقابله فيهما ، ومعنى المفاعلة ههنا اما المبالغة فى رودها ، أو الدلالة على اختلافهما فيه ، فانها طلبت منه الفعل وهو طلب منها الترك ، وهذا أبلغ ، ولمـــا كان منـــازعة جيء بعن ، فى قوله تعالى « عن نفسه »)(٤٨) .

وليس بلازم أن تكون المنازعة معداة بعن ، لأنها كما تتعدى بهـــا تتعدى بعلى كذلك فتقول : نازعته على البئر ، فما سر تعدى المنـــازعة بخصوص حرف المجاوزة ، وعلى أدل على مغالبة المفاعل ؟

ان أقرب ما قيل فى هذا الموضع الى بلاغة النظم الحكيم هو ما جاء فى الكشـــاف : (المراودة مفـــاعلة من راد يرود ، اذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته عن نفسه ، أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لا يريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه ويأخذه منه)(٤٩) .

وجعل فى أساس البلاغة من المجاز : (راوده عن نفسه : خادعه عنها وراوغه)(٥٠) وكأن امرأة العزيز تلطفت اليه ، وحاولت اغراءه وشغله عن نفســـه ، ايمانا منها بأن الحيلة والخداع هما الوســـيلة لمـــا تريد ، وليست المغالبة والقهر ، وفى ضمن ذلك ايحاء بأن ما تبغيه منه هو خسارة النفس وضياعها ، وذلك ما يقتضيه مجاوزة النفس والبعد عنها .

---

(٤٧) الفوائد فى مشكل القرآن ٨٥ .
(٤٨) روح المعانى ١١٠/١٢ .
(٤٩) الكشاف ٢/ ٣١٠ .
(٥٠) أساس البلاغة ٢٥٨ .

وقوله تعالى : « اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ... ص ٣١ – ٣٢ » .

قدر البعض (عن ذكر ربى) : على ذكر ربى(٥١) على أن (عن) بمعنى حرف الاستعلاء . وهذا القول يجافيه النظم ، ويرفضه مقام الأنبياء ، اذ أن (على) تدل على أن سليمان عليه السلام تغلب فى نفسه حب الخيل على ذكر الله ، وهو ما يجب أن ننزه عنه هذا النبى الكريم ، كما ننزه النظم الكريم عن قصده ، بل ان القرآن ما عدل عن حرف الاستعلاء الا لينبىء عما يعترى النفس البشرية حتى فى أسمى مقاماتها من لحظات تذهل فيها عن ذكر الله ، وتنشغل بما يجرى فى هذه الحياة من أمور وأحداث عن الاشتغال بعبادة الله وذكره ، وهو ما رآه سليمان ذنبا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فاستغفر ربه وكفر عن ذنبه هذا بضرب سوق الخيل وأعناقها ، فلم يتغلب فى نفسه حب الخيل على ذكر الله ، وانما شغله عنه وألهاه ، قال أبو حيان : (قال الجمهور : عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أبوه ، وقيل ألف واحد ، فأجريت بين يديه عشيا ، فتشاغل بحسنها وجريها ، ومحبتها عن ذكر الله ، فقال: ردوها على فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف ، لما كانت سبب الذهول عن ذلك الذكر ، فأبدله الله أسرع منها الريح)(٥٢) .

---

(٥١) انظر البرهان ٢٨٦/٤ .
(٥٢) البحر المحيط ٣٩٦/٧ .

عن وحرف الابتداء

لفت أنظار المفسرين والباحثين عن أسرار الاعجاز ، عدول القرآن عن حرف الابتداء الى حرف المجاوزة فى قوله تعالى : « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .. الأعراف ١٧ » .

تصويرا لتنوع أساليب الغواية والاضلال التى سيسلكها ابليس لصرف بنى آدم عن ربهم ، وكان المتوقع لحسن المشاكلة أن يقول : ومن أيمانهم ومن شمائلهم ، كما قال : «من بين أيديهم ومن خلفهم» فتباينت أقوال المفسرين ، بين واقف عند صحة التعبير وباحث عن أسرار المغايرة .

وقد ذكر المحققون أن قولك : جلس عن يمينه ، معناه تراخى فى جلوسه عن موضع يمينه(٥٣) وعليه فانك اذا قلت : أتاه من يمينه كان معناه أن مبدأ اتيانه كان من هذه الجهة ، واذا قلت أتاه عن يمينه كأن معناه :أتاه منحرفا عنها أو متجاوزا لها . ويأتى أحد الحرفين طبقا لما يستدعيه النظم وتتطلبه الأغراض والمقاصد .

فلما كان المراد فى قوله تعالى على لسان الضالين لمن أضلوهم : « قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين .. الصافات ٢٨ » : انكم كنتم تأتوننا من ناحية الخير أو الدين فانحرفتم بنا عنه ، وصددتمونا عن الهدى ، جاءت « عن » مجسدة معنى التجاوز عن سبل الرشاد والزيغ عن طريق الحق . ولو قال : تأتوننا من اليمين لما أفاد هذا المعنى كما

---

(٥٣) انظر الكتاب ٤/٢٢٧ وشرح الكافية ٢/٣١٧ .

أوضـحه الراغب (أي عن الناحية التي كان منهـا الحق ، فتصرفوننا عنهـا)(٥٤) .

ومثل ذلك قوله تعالى : « أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون .. النحل ٤٨ » ذلك أن حركة الظلال في تفيؤها تنحرف عن الأيمان والشمائل بحكم اتجاهات الرياح ولا يصور تباعد حركة الظلال وتطامنها سجودا لله تعالى الا حرف المجـاوزة .

ونعود الى آية الأعراف لنجد أن الزمخشري وقف عند بيان صحة التركيب دون أن يبرز لنا سر الالتفات عن حرف الابتداء الذي هو أولى بمشاكلة النسق قبله الى حرف المجاوزة ، فقال : (فان قلت : كيف قيل « من بين أيديهم ومن خلفهم » بحرف الابتـداء ، « وعن أيمانهم وعن شمائلهم » بحرف المجاوزة ؟ قلت : المفعول فيه عدى اليـه الفعل نحو تعديته الى المفعول به ، فكما اختلفت حروف التعدية في ذلك اختلفت في هذا ، وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس ، وانما يفتش عن صحة موقعها فقط فلما سمعناهم يقولون : جلس عن يمينه ، وعلى يمينه ، وعن شماله،وعلى شماله ، قلنا : معنى على يمينه : أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلي عليه ، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافيا عن صاحب اليمين منحـرفا عنه ، غير ملاصـق له ، ثم كثر حتى اسـتعمل في المتجـافي وغيره)(٥٥) .

وقد علق أبو حيان على كلام الكشاف بما يدل على أنه لم ينفذ الى سر المغايرة ووجه البلاغة في ايثار حرف المجاوزة ، وانبرى للكشف عنه

---

(٥٤) المفردات ٨٤٩ .

(٥٥) الكشاف ٢/٧١ .

فقال : (وهذا كلام لا بأس به ، وأقول : انما خص بين الأيدى والخلف بحرف الابتداء الذى هو أمكن فى الاتيان ، لأنهما أغلب ما يجىء العدو منهما فينال فرصته ، وقدم بين الأيدى على الخلف ، لأنها الجهة التى تدل على اقدام العدو وبسالته فى مواجهة قرنه غير خائف منه ، والخلف من جهة غدر ومخاتلة وجهالة القرن بمن يغتاله ويتطلب غرته وغفلتـــه ، وخص الأيمان والشمائل بالحرف الذى يدل على المجاوزة ، لأنهما ليستا بأغلب ما يأتى منهما العدو ، وانما يتجـــاوز اتيانه الى الجهـــة التى هى أغلب فى ذلك) وهو كلام جيد ، يصور محاولات الشـــيطان ووســـائله المتعددة فى الوصول الى غايته ، منها ما هو ظاهر يواجه به ضعاف النفوس ومن لا يستطيعون مقـــاومته ، ومنهـــا ما هو خفى يلجأ اليه مع الذين يتأبون عليه ، ويرفضـــون الانقياد لغوايتـــه ، فيندس الهم فى صـــور لا يتبينونه فيها .

وللرازى رأى طريف يسير به فى الاتجاه مع أبى حيان وان اختلفت مطية كل منهما . يقول الفخر : (المراد من قوله « من بين أيديهم ومن خلفهم » الخيال والوهم . والضرر الناشىء منهما هو حصول العقـــائد الباطلة ، وذلك هو حصول الكفر ، وقوله « عن أيمانهم وعن شمائلهم » الشهوة والغضب ، والضرر الناشىء منهما هو حصول الأعمال الشهوانية والغضبية ، وذلك هو المعصية ، ولا شـــك أن الضرر الحاصل من الكفر لازم ، لأن عقابه دائم .

أما الضرر الحاصل من المعصية فسهل ، لأن عقابه منقطع ، فلهذا السبب خص هذين القسمين بكلمة (عن) تنبيها على أن هذين القسمين فى اللزوم والاتصال دون القسم الأول) (٥٧) .

---

(٥٦) البحر المحيط ٤/٢٧٦ .

(٥٧) تفسير الفخر الرازى ١٤/٤٢ .

ومما استشهد به على أن (عن) بمعنى حرف الابتـداء ، قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات .. التوبة ١٠٤ » قال أبو عبيدة : (« يقبل التوبة عن عباده » أى من عبيده كقولك : أخذته منك ، وأخذته عنك)(٥٨) .

وبتتبع ما جاء فى القرآن الكريم نجد أن قبل وتقبّل تعديا فى الكتاب العزيز بمن وعن ، وما تعدى بعن ثلاثة مواضع ، كلها فى سياق التوبة والتجاوز عن السيئات : الموضع الأول هو هذه الآية التى ذكرتها ، الموضع الثانى قوله تعالى : « وهو الذى يقبـل التوبة عن عبـاده ويعفو عن السيئات .. الشورى ٢٥ » والثـالث : قوله تعـالى : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة .. الأحقاف ١٦ » .

وجاءت (عن) فى هذه المواضع اشعارا بقبول أعمالهم الصالحة ، وتوبتهم الخالصة ، والتجاوز عن سيئاتهم فأدت معنى (من) وزادت عليها محو الذنوب وصرفها عنهم فضـلا منه ورحمـة ، وكأن الله ماز الأعمال الصـالحة وعزلها عن الأعمال السيئة ، فقبل الطيب منها وتجاوز عن سيئها .

وكل ما ورد بحرف الابتداء لا يراد منه قبول العمل ، كما فى قوله تعالى : « واتل عليهم نبـأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبـل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين .. المـائدة ٢٧ » وغرض الآية هو الاخبار بقبول عمل صالح خالص لوجهه تعالى ورد عمل آخر لم يقرن بالتقوى والاخلاص ، دون الاشارة الى

---

(٥٨) مجاز القرآن ٢٦٨/١ وانظر البرهان ٢٨٧/٤ ، وتأويل مشكل القرآن ٥٧٧ .

المغفرة والتجاوز عما سبقه من الذنوب والسيئات • ومثله قوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم •• البقرة ١٢٧ » وهو ضراعة الى الله من ابراهيم وابنه بقبول عملهما وما بذلاه مخلصين فى سبيل رفع بيته الكريم ، وليس فيه ما يستوجب « عن » من دعاء بالمغفرة والتجاوز عن الذنوب •

وهذا الذى قلته مبنى على قول الكشاف : (يقال : قبلت منه الشىء، وقبلته عنه ، فمعنى قبلته منه : أخذته منه ، وجعلته مبدأ قبولى ومنشأه، ومعنى قبلته عنه عزلته عنه وأبنته عنه) (٥٩) •

والقول بتضمين الفعل معنى الأخذ أو الابانة كما ذهب اليه البعض اغفال لدلالة الحرف التى يشيعها على الفعل قبله ، وانصراف عن الغرض من ايثاره على ما هو الأصل فى موقعه ، وحسبك أن تجد فعل القبول يضمن معنى الابانة حين يعدى بحرف المجاوزة ، ويضمن معنى الأخذ حين يعدى بمن فيماذهب اليه الألوسى(٦٠)،ثم تجد العز بن عبد السلام يضمن معنى الأخذ فى تعديته بمن ، ويضمن الأخذ معنى الرضا لتعديته بذات الحرف ، فهو تضمين فى تضمين • قال العز : (يتقبل) لا يتعدى الا بـ (من) فلم عدى ها ها بـ (عن) ؟

الجواب أنه ضمن يتقبل معنى يؤخذ ، وضمن أخذ معنى رضى ، لأن من أخذ الشىء فقد رضيه ، ورضى يتعدى بى (عن)) (٦١) •

وهذان موضعان من متشابه النظم الكريم جاء أحدهما بعن والآخر بمن مما يحتاج الى بيان سر المغايرة بينهما • قال تعالى فى وصف بنى

---

(٥٩) الكشاف ٤٦٨/٣ •
(٦٠) انظر روح المعانى ٣٥/٢٥ •
(٦١) الفوائد فى مشكل القرآن ١٦١ •

اسرائيل : (فبما نقضهم ميثاقهم جعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به .. المائدة ١٣ » وقال فى وصفهم كذلك : « ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا .. المائدة ٤١ » .

فذهب الخطيب الاسكافى ــ تعليلا للمغايرة بين الموضعين ــ الى أن الآية الأولى نزلت فى اليهود الذين حرفوا ما أنزل الله من كلامه من جهة التأويل والتنزيل ، و (عن) فى كلام العرب موضوعة لما عدا الشيء ، وهم كانوا يعدلون بالكلم عن تأويله الذى له ، وتنزيله الذى جاء الى غيره مما هو باطل ، والأصل فى (عن) أن تكون لما جاوز الشيء الى غيره ملاصقا زمنه لزمنه ، بخلاف بعد التى قد تكون لما تأخر زمانه عن زمانه بأزمنة كثيرة ، أو بزمن واحد . لذلك جاءت بعد فى الآية الثانية ، لأنها نزلت فى قوم من اليهود أخبر الله تعالى عنهم بأنهم سماعون لما يقوله الرسول ليكذبوا عليه ، ويخبروا بخلاف ما قاله ، وينقلوا كلامه الى آخرين لم يأتوه ، ويحتمل أن يكون تحريفهم الكلم بعد موت الرسول ليجعلوه على خلاف ما سمعوه (٦٢) .

هذا ملخص ما قاله الاسكافى . وهو كلام لا بأس به الا أن ما قاله أبو حيان أجود وأكثر استلهاما لمعانى الحروف . قال : (والذى يظهر أنهما سياقان ، فحيث وصفوا بشدة التمرد والطغيان واظهار العداوة واشترائهم الضلالة ، ونقض الميثاق جاء «يحرفون الكلم عن مواضعه» . ألا ترى الى قوله : « ويقولون سمعنا وعصينا » وقوله : « فبما نقضهم

---

(٦٢) من درة التنزيل بايجاز ٩١ .

ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه » • فكأنهم لم يتركوا الكلم من التحريف عمـا يراد بهـا ، ولم تستقر فى مواضعها فيكون التحريف بعـد استقرارها ، بل بادروا الى تحريفهـا بأول وهلة ، وحيث وصفوا ببعض لين وترديد وتحكيم للرسول فى بعض الأمر جاء « من بعد مواضـعه » • ألا ترى الى قوله : « يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحـذروا » وقوله بعد « فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » فكأنهم لم يبادروا بالتحريف ، بل عرض لهم التحريف بعد استقرار الكلم فى مواضعها) (٦٣) •

وتأمل سر اختصاص (عن) فى قوله تعالى : « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصـم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهـادى العمى عن ضلالتم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا •• النمل ٨٠ ـ ٨١ » •

(هدى) يتعدى فى مثل هـذا الموضـع بمن • تقول : هـداه من الضلالة فاهتدى (٦٤) لكن الذكر الحكيم عدل عنه ، لأن قولك : هديته من ضلال معناه أن الضلال كان مبدأ هـدايتك له ومنشأه ، وكأنك قلت : استنقذته منه ، والغرض من النظم هنا الدلالة على تمكن الضلال منهم ورسوخهم فيه ، بحيث لا يمكن زحزحتهم عنـه وإبعادهم عن ظلماته ، وذلك يتلاءم مع سـياق كل كلماته وحروفه تؤكد عدم قبولهم للهـدى وتمسكهم بضلالهم ، فهم موتى القلوب ، صم الآذان ، عمى الأبصـار ، غارقون فى الكفر والضلال ، ومن كان على مثل هذه الحال فان صرفه عن باطله والابتعاد به عن ضلاله أمر ليس فى مقدور البشر • ألا ترى كيف عدى العمى بمن فى قوله تعـالى : « بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم

---

(٦٣) البحر المحيط ٣/٢٦٣ •

(٦٤) معجم الأفعال المتعدية بحرف ٤٠٨ •

فى شك منها بل هم منهـا عمون •• النمل ٦٦ » حين كان القصـد الى الأخبار عن أن الآخرة هى منشـأ عماهم عن الحق والاهتـداء بدلائل اليقين ، ضرورة أن من لا يؤمن بالآخرة وما يسـتتبعها من الحسـاب والجزاء لا يهتدى الى الحق ولا يميز بين الخير والشر • قال الألوسى : (ولعل تعديته بمن دون (عن) لجعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه) (٦٥)•

فلو قيل فى الآية موضع الحـديث : وما أنت بهـادى العمى من ضلالتهم لمـا تناغم مع السـياق الذى بالغ فى وصفهم بالابعـاد فيه والتمكن منـه ، اذ أن الهـداية سـتكون من مبـدأ الضـلال ، لا من الرسوخ فيـه •

---

(٦٥) روح المعانى ١٣/٢٠ •

الفصل الثامن

من أسرار حرف الابتداء

حقيقتـــه

ذكر سيبويه أن « من » تكون لابتداء الغاية فى الأماكن وما يقوم مقامها ، وتكون للتبعيض كقولك : هذا من الثوب ، وهـــذا منهم ، كأنك قلت : بعضه ، وتكون للتوكيد حيث يكون الكلام مستـــقيما بغيرها فى مثل قولك أتانى من رجل ، وما رأيت من أحـــد ، ولا تخرج المؤكدة عن معنى التبعيض ، فكأنك قلت لم يأت بعض الرجال والناس (١) وقد رد صاحب المفصل كل معانى « من » الى الابتداء ، فقال : (فمن معنـــاها ابتداء الغاية ، كقولك : سرت من البصرة الى الكوفة ، وكونها مبعضـــة فى نحو : أخذت من الدراهم ، ومبينـــه فى نحو « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » ومزيدة فى نحو : ما جاءنى من أحد ، راجع الى هـــذا (٢) ، الا أن الكوفيين ومن لف لفهم ذكروا لها معانى عديدة حتى قال فى عدة السالك بعد أن ذكر لها عشرة من المعانى (وزاد قوم معانى أخر لم نجد بدا من تركها لمـــا فى كل واحد منها من النظر) (٣) .

ومعظم هذه المعانى التى ذكرت إن هى من باب نيابتها عن أخواتها من حروف الجر ، بناء على ما قرروه من أن حروف الخفض ينوب بعضها عن بعض ، وهذا منهم ميل الى الأيسر من القول ، بدلا من البحث فى أغوار النصوص لالتماس الفروق بين معانى الحروف ، وما تضفيه على سياقها من دلالات خاصة تكشف عنها أغراض النظم ودواعيه . فهـــذا مثـــال لتداخل « من » و « عن » نقله البطليوسى فى الاقتضـــاب وعلق عليه ، وهو خير شاهد على اغفال الفروق بين حروف المعانى وما تخلعه

---

(١) انظر الكتاب ٢٢٤/٤ وما بعدها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .

(٢) المفصل ٢٨٣ .

(٣) عدة السالك الى تحقيق أوضح المسالك ٢٩/٣ .

من دلالاتها على جاراتها : (وقال في هذا البـاب : « حدثني فلان من فلان ، أى عنه ، ولهيت من فلان ، أى عنه » (قال المفسر) انما جاز استعمال « من » هاهنا مكان « عن » • لأنه اذا حدثه عنـه ، فقد أتاه بالحديث من قبله ، كذلك اذا لهى عنه ، فقد لهى من أجله ولسـببه ، فتكون « من » الأولى هى التى يراد بها ابتداء الغـاية ، و « من » الثانيةان شئت جعلتها التى يراد بهـا الغاية ، وان شئت جعلتها التى بمعنى من أجل) (٤) •

وهذا اغفال لفارق دقيق مستمد من معنى الحرفين ، لأن « من » فى قولك حدث « من » فلان تدل على مباشرتك النقل عنه بلا واسطة ، لأن حديثك كان بدؤه ومنشؤه منه،واذا قلت حدثت «عن» فلان فان«عن» بمعنى المجاوزة والبعد فيها تدل على أنك نقلت عنه بواسطة،ولم تتلق منه الحديث ابتداء ، وهذا ما أكده الجوهرى فيما نقله عنه صاحب اللسان حيث قال : (ومما يقع الفرق فيـه بين « من » و « عن » أن «من» يضاف بها ما قرب من الأسماء ، و « عن » يوصـل بها ما تراخى ، كقولك : سمعت من فلان حديثا ، وحدثنا عن فلان حديثا) (٥) •

وفى الدر النضـيد لمجموعة ابن الحفيـد يقول : (اذا اسـتعمل السماع بكلمة « من » يقتضى أن يكون السماع مشافهة ، بخلاف ما اذا استعمل بكلمة « عن ») (٦) •

---

(٤) الاقتضاب ٢/٢٧٠ ـ ٢٧١ •

(٥) لسان العرب ٥/٣١٤٣ •

(٦) الدر النضيد ٢٥٧ •

« من » بين الحذف والزيادة

لعل المقصود بقولهم هذا حرف زائد أو كلمة زائدة أنها زائدة على الأصل فى تأدية العبارة لمثل المعنى الذى أريد لهـا أن تؤديه ، وليس المراد أنها خلو من الفائدة ، والا فان اطلاق لفظ الزيادة على نظم القرآن بهذا المفهوم يكون قد جافى اعجازه • ومن ثم فاذا قيل ان « من » زائدة هنا أو محذوفة هناك ، فانها دعوة لاعمـال القلب والفكر فى استجلاء أسرار الحـذف والزيادة ، ولا أحسب أن القول بالزيادة للتـأكيد ، والحذف للايجاز يمكن أن يرتفع الى المستوى الذى يستلهم بلاغة الذكر الحكيم ولنبدأ بموضع من مواضع الحذف ، وهو ما اكتفى فيه المفسرون بالاستدلال على صحته دون النفاذ الى الغرض منه وذلك قوله تعالى :

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا •• الأعراف ١٥٠ » •

قال أبو عبيدة : (مجازه اختار موسى من قومه ، ولكن بعض العرب يجتازون فيحـذفون « من » قال العجـاج : تحت التى اختـار له الله الشجر) (٧) • وكأن هذا لغة من لغات العرب •

وقال الفراء (وجاء فى التفسير : اختار منهم سبعين رجلا ، وانما استجيز وقوع الفعل عليهم اذا طرحت « من » لأنه مأخوذ من قولك : هؤلاء خير القوم وخير من القوم ، فلما جازت الاضافة مكان « من » ولم يتغير المعنى استجازوا أن يقولوا : اخترتكم رجلا) (٨) ولا يخفى أن هذا من الفراء مجرد اثبات لصحة الحذف وتعليل له ، وهو ما يجب أن نجتازه للبحث عن أسرار الحذف •

---

(٧) مجاز القرآن ١/٢٢٩ •

(٨) معانى القرآن ١/٣٩٥ •

وقال السهيلى : (والأصل فى هـذا التعدى بحـرف الجر وهو « من » • لأن المعنى اخراج شىء من شىء ، وانما حذف لتضمين الفعل معنى فعل آخر متعد به ، كأنك حين قلت : اخترت الرجال ، أردت نخلت الرجال ونقدتهم فأخذت منهم زيدا ، فمن ههنا أسقط حرف الجر) (٩) وأرى — والله اعلم بما نزل — أن اسقاط حرف الجر قصـد منه النعى على بنى اسرائيل لكثرة تمردهم وعصيانهم ، ودوام مخالفتهم لنبيهم ، حتى كأنه لم يجد فيهم خيارا غير هؤلاء السبعين فهم القوم كل القوم فى ميزان الطاعة والصلاح،وفى ذلك ما فيه من التلميح بكثرة العاصين،وقلة الصالحين فيهم ، ولا عجب أن يقصـد القرآن الى ذلـك ، بعد آيات تحدثت عما صنعه بنو اسرائيل فى غياب موسى وعبادتهم العجل من دون الله « ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليـه قال ابن أم ان القـوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشـمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهـم وذلـة فى الحيـاة الدنيـا وكذلك نجـزى المفترين •• الأعراف ١٥٠ — ١٥٢ » •

سياق كهذا يصف تآمر القوم وتعاونهم على عبادة العجل ، والكيد لنبى الله هارون حتى الشروع فى قتله ، وقصر موسى دعاءه بالمغفرة على نفسه وأخيه ، يشـعرك بأن الصـالحين فى القوم قليل من قليل ، فاذا قال : « اختار موسى قومه سبعين رجلا » أشعرك بأن هؤلاء هم خيار القوم • بل هم كل القوم صـلاحا وطاعة • ومن ثم فان ذكر « من » يذهب بهذا الغرض لأنه يوحى بكثرة الأخيار ، وهؤلاء بعض منهم •

---

(٩) نتائج الفكر ٣٣٠ •

وحين نجىء الى زيادتها فى قوله تعالى : « بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى آكنة مما تدعونا اليه فى آذاننا وقرو من بيننا وبينك حجاب » وجدت سياقا يبالغ فى رفض المشركين لدعوة النبى ، واصرارا متناهيا على عدم الاستماع الى ما جاء به ، لذاك لم يكتفوا أن تكون قلوبهم فى أغلفة ، وفى آذانهم وقر ، حتى جعلوا بينهم وبين النبى حجابا يحول دون نفاذ القرآن الى اسماعهم ، وزادوا على ذلك أن جعلوا الحجاب بادئا من الرسول ، وبادئا منهم ، حتى لا يكون ثمة منطقة خالية يمكن أن يملأ الرسول فراغها بصوته ، وهذا ما قامت به « من » خير قيام والله در الزمخشرى حيث كان هو من كشف القناع عن هذا السر فقال : (فان قلت : هل لزيادة « من » فى قوله ـ ومن بيننا وبينك حجاب ـ فائدة ؟ قلت نعم لأنه لو قيل بيننا وبينك حجاب لكان المعنى : ان حجابا حاصل وسط الجهتين ، وأما بزيادة « من » فالمعنى أن حجابا ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لافراغ فيها) (١٠) والمقصود من ذلك المبالغة بالتباين المفرط كما قال أبو حيان (١١) .

غير أن ابن المنير فى الانتصاف لم يرتض ما قاله الزمخشرى ، ذاهبا الى أن وجود « من » قريب من عدمها ، واستشهد لذلك بقوله تعالى : « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » حيث لم يستعمل فيها « من » (١٢) .

ولاشك أن ما ذهب اليه صاحب الكشاف أقرب الى بلاغة النظم

---

(١٠) الكشاف ٣/٢٤٢ .
(١١) انظر البحر المحيط ٧/٤٨٤ .
(١٢) انظر الانتصاف ٣/٢٤٢ .

الحكيم ، وما استدل به ابن المنير لا ينهض حجة عليه ، ذلك أن هذا موضع وذاك موضع آخر ، فها هنا قصد المشركون الاشارة الى التباين المفرط بينهم وبينه وكثافة الحواجز والحجب التى تباعد بينه وبينهم، وهناك اخبار من الله لنبيه أنه جعل بينه وبين الكافرين حجابا بحيث لا يؤثر القرآن فيهم ، ولا يصل الى أسماعهم وقلوبهم ، وليس ثمة ما يدعو الى المبالغة بشمول الحجاب كل الفراغ الحاصل بينه وبينهم •

وهذه بديعة أخرى من بدائع الكشاف فى قوله تعالى : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون •• الحجرات ٢٤ » •

حيث أن الذى تنكره الآية من الأعراب الذين نادوا الرسول هو أنهم نادوه من جهه بعيدة غير الجهة التى فيها الرسول ، مما استدعى أن يرفعوا أصواتهم على طريقة أجلاف البادية ، دون مراعاة لمقام من ينادونه ، و « من » هى التى تشير الى أن المنادِى والمنادَى فى جهتين مختلفتين ، لأن مبدأ النداء ومنشأه من الوراء ، ولو أسقط من فقيل « ينادونك وراء الحجرات » ، لما كان هناك ما يمنع أن يكون المنادى والمنادى فى جهة واحدة وراء الحجرات فلا يكون حينئذ فى ندائهم ما يدعو الى الانكار عليهم ، وهذا نص الكشاف : (والوراء الجهة التى يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ، و « من » لابتداء الغاية، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان ، فان قلت : أفرق بين الكلامين ، بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه ، قلت : الفرق بينهما أن المنادى والمنادى فى أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء • وفى الثانى لا يجوز ، لأن الوراء تصير بدخول « من » مبتدأ الغاية ، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد • والذى يقول نادانى فلان من وراء الدار لا يريد وجه الدار ولادبرها ، ولكن أى قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقا بغير تعيين واختصاص ، والانكار لم يتوجه عليهم أنهم نادوه

من البر والخارط مناداة الأجلاف بعضم لبعض من غير قصد الى جهة دون جهة) (١٣) .

يؤيد ماقاله الزمخشرى قوله تعالى : « واذا سألتموهن متاعا فاسالوهن من وراء حجاب .. الأحزاب٥٣» حيث جاءت «من» دالة على وجوب أن يكون الحجاب فاصلا بينهم وبين أزواج الرسول ، ولو سقطت « من » لصح أن يكون معهن فى جهة واحدة وراء الحجاب ، ومثل ذلك قوله تعالى:«لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر .. الحشر ١٤ » فمن هذه التى كشفت عن جبنهم وضعف بأسهم، فهم لا يقاتلون الا اذا كانت الجدر بينهم وبين عدوهم حاجزا يمنع من الوصول اليهم ،ولا يخرجون الى عدوهم وراء هذه الجدر — وهو مايمكن أن يفهم بدون « من » .

ومما قيل فيه بزيادة « من » قوله تعالى : « قال للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن .. النور ٣٠ — ٣١ » وقد رد الزركشى على الأخفش الذى ادعى زيادة « من » فى قوله « من أبصارهم » و (من أبصارهن) بما لا مزيد عليه، ذاهبا الى انها للتبعيض . (لأن النظر قد يكون عن تعمد وغير تعمد ، والنهى انما يقع على نظر العمد فقط ، ولهذا عطف قوله « ويحفظوا فروجهم » من غير اعادة « من » لأن حفظ الفروج واجب مطلقا ، ولأنه يمكن التحرز منه ، ولا يمكن فى النظر ، لجواز وقوعه اتفاقا ، وقد يباح للخطبة وللتعليم ونحوها) (١٤) .

وهذا فعل المغفرة يتعدى فى القرآن الى الذنوب بنفسه تارة

---

(١٣) الكشاف ٣/٥٥٧ .

(١٤) البرهان ٤/٤٢٤ .

وبـ «من» تارة أخرى فيبادر أبو عبيدة(١٥) الى القول بزيادة « من » على أن الأصل هو تعدى الفعل بنفسه والى مثله ذهب الكسائى وهشام وغيرهما(١٦) .

ونحن لا ننكر أن الأصل فى فعل المغفرة هو التعدى بنفسه ، لأن معنـــاه الستر والتغطيـــة (١٧) الا أن زيادة « من » فى نظـــم منزه عن الفضول يوجب البحث عن الغرض من زيادتها ، ولايحسن القول بأن ابقاءها والقاءها سواء .

وقد حصرت ما جاء فيه فعل المغفرة متعديا الى الذنوب بنفسه،فوجدته قد وقع فى القرآن سبع مرات ، ثلاث منها بصيغة المضارع ، وهى جميعا خطاب للمؤمنين ، قوله تعـــالى : « قل ان كنتم تحبـــون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم .. آل عمران ٣١ » وقوله : « ياأيهـــا الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم .. الأحزاب ٧ ــ ٨ » وقوله : « ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفســـكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار .. الصف ١٠ ــ ١٢ » ورابع منها فى طلب المغفرة على ألسنة المؤمنين ، وهى قوله تعـــالى : « الذين يقولون ربنـــا اننا آمنـــا فاغفر لنـــا ذنوبنا وقنـــا عذاب النـــار .. آل عمران ١٦ » وقوله « وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفرلنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا .. آل عمران ١٤٧ » وقوله « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنـــا ذنوبنا وكفر عنـــا

---

(١٥) انظر مجاز القرآن ٣٦٦/١ .

(١٦) انظر الأزهية ٢٢٨ .

(١٧) اللسان ٣٢٧٣/٦ .

سيئاتنا .. آل عمران ١٩٣ » وما أوصل منه بمن ثلاثة مواضع ، وكلهـا خطاب للكافرين ، وهى قوله تعالى على لسان المرسلين قالت رسلهم أفى الله شـك فاطر السـموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم .. ابراهيم ١٠ » وقوله على لسان مؤمنى الجن ، خطـابا لمن لم يؤمن : «ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم .. الأحقاف ٣١ » وقوله على لسان نوح عليه السلام خطابا لقومه : « ياقوم انى لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقـوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى .. نوح ٣ ــ ٤ » .

فهذا الاطراد فى دخول « من » لدى خطاب الكافرين ، واسقاطها فى خطاب المؤمنين لا بد أن يكون وراءه غرض يهدف اليه النظم الكريم، وما ذاك الا للتفرقة بين الخطابين ، لئلا يسوى بين الفريقين فى الوعد، ولهذا فانه فى سورة ابراهيم ونوح والأحقاف حين كان الخطاب للكافرين وعدهم بمغفرة بعض الذنوب بشرط الايمان ، وهو غفران ما بينه وبينهم لا مظالم العباد(١٨) لأن مقام الكافر مقام قبض لا بسط،فلذلك لم يبسط رجاءه فى مغفـرة جملة الذنوب(١٩) بخلاف مقام المؤمن ، فهو مقـام البسط ، وفيوضات الرحمة والفضل ، وللسهيلى رأى طريف فى ذكر «من» واسقاطها يستحق أن نذكره بنصه لوجاهته يقول : (فان قيل : فما قولكم فى نحو قوله تعالى « يغفـر لكم من ذنوبكم ويؤخركم » ويغفر لكم من ذنوبكم ويجركم » ؟ قلنا : هى متعلقـة بمعنى الانقـاذ والاخراج من الذنوب ، وانما دخلت لتؤذن بهذا المعنى ، ولكن لا يكون ذلك فى القرآن الا حيث يذكر الفاعل الذى هو الذنب ، نحو « لكم » لأنه المنقذ المخرج من الذنوب بالايمان ، ولو قلت : « يغفـر من ذنوبكم » دون أن تذكر

---

(١٨) انظر البرهان ٤/٤٢٥ وما بعدها .

(١٩) انظر الانتصاف ٣/٥٢٧ .

الاســم المجرور لم يحسن الا على معنى التبعيض ، لأن الفعـل الذى كان فى ضمن الكلام وهو الانقاذ قد ذهب بذهاب الاسم الذى هو واقع عليــه .

فان قلت : فقد قال : « ربنا اغفر لنا ذنوبنــا » وقال فى ســورة الصف « يغفر لكم ذنوبكم » فما الحكمة ؟

فالجواب أن هذا اخبار من المؤمنين الذين قد سبق لهم الانقاذ من ذنوب الكفر بايمانهم ، ثم وعدوا على الجهــاد بغفران ما اكتســبوا فى الاســلام من الذنوب ، وهى غير محيطــة بهم ، كاحاطة الكفر المهلك بالكافر)(٢٠) .

وممــا قيل فيه بزيادة « من » قوله تعــالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .. البقرة ٢٣ » قياســا على اسقاطها فى قوله جل شأنه : « أم يقولوا افتراه قل فأتوا بســورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين .. يونس ٣٨ » . وفى قوله « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر ســور مثله مفتريات .. هود ١٣ » .

يقول صاحب التحرير والتنوير : (والضمير فى قوله من (مثله) يجوز أن يعود على ما نزلنا ، أى من مثل القرآن ، ويجوز أن يعود الى عبدنا ، فان أعيد الى ما نزلنا ، أى من مثل القرآن ، فالأظهر أن « من » ابتدائية ، أى سورة مأخوذة من مثل القــرآن ، أى كتاب مثل القرآن ، والجار والمجرور صفة لســورة . ويحتمل أن تكون « من » تبعيضــية أو بيانية أو زائدة »(٢١) .

---

(٢٠) نتائج الفكر ٢٣٢ وما بعدها .
(٢١) التحرير والتنوير ١/٣٢٤ .

ولم يقل لنا لماذا دخلت « من » الابتدائية أو البيانية أو التبعيضية؟ وهل لزيادتها فائدة أو أن وجودها كعدمها ؟

يقول الزركشي « لما كانت سورة البقرة سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة حسن دخول « من » فيها ليعلم أن التحدى واقع على جميع القرآن من أوله الى آخره • بخلاف غيرها من السور(٢٢) فانه لو دخلها (من) لكان التحدى واقعا على بعض السور دون بعض » •

وعلق الدكتور عبد الفتاح لاشين عليه بقوله (فقد أسقط التعبير القرآني حرف « من » في آيتي التحدى الأولى والثانية ، لأن الابتداء والتبعيض غير مراد ، واثبات (من) في كليهما يدل على أن التحدى واقع على بعض السور دون بعض ، وهذا ما يأباه المعنى ، ولذلك سقطت • أما الآية الأخيرة التي في سورة البقرة ، فقد حسن فيها دخول « من » حيث ان المراد أن يكون التحدى واقعا على جميع القرآن من أوله الى آخره ، لذلك ثبتت هنا ، وأسقطت هناك)(٢٣) •

ولم يحدد لنا نوع « من » هذه ، وكيف أفادت أن التحدى واقع على جميع سور القرآن في آية البقرة وتفيد التحدى ببعض السور لو دخلت في آيتي يونس وهود ؟ ثم ان آية البقرة وان كانت أول الآيات الثلاث ترتيبا في المصحف فانها آخرها نزولا ، فكيف فهم المنزل عليهم آيتي هود ويونس قبل أن تنزل آية البقرة ، وان كانوا قد فهموا منهما أن التحدى واقع على جميع سور القرآن فما الذى أضافته آية البقرة الى ما فهموه ؟ لعل خير ما قرأت في التعليل لزيادة « من » في آية البقرة واسقاطها في آية يونس ، هو ما قاله المرحوم محمد أحمد الغمراوى

---

(٢٢) البرهان ١/١١٥ •

(٢٣) من أسرار التعبير فى القرآن حروف القرآن ١١١ •

وأسوق النص بطوله لما فيه من عظيم الفائدة : (وقد يظن أن هذا التحدى الأخير فى العهد المدنى تكرار للتحدى الأخير فى العهد المكى فى آية ٣٨ من سورة يونس « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ففى كل من الآيتين الكريمتين جاء الأمر (فأتوا) يتحدى المرتابين بسورة (مثل) القرآن فى يونس و (من مثله) فى البقرة • فهل لزيادة الحرف (من) مغزى يزيد فى قوة التحدى ؟ ان ضمير الجلالة للمتكلم فى آية البقرة ، بدلا من ضمير الرسالة المستتر فى فعل الأمر (قل) يجعل التحدى مباشرا من الله فى البقرة ، بدلا من أن يكون من الله بواسطة الرسول فى يونس ، وهذا لا شك يجعل وقع التحدى أقوى ما يكون ، فلا ينبغى قط أن يفهم قوله تعالى : « من مثله » على وجه يجعل الحرف « من » مضعفا للتحدى ، فيكون فى مغزاه منافيا لمغزى ضمير الجلالة فى قوله تعالى « مما نزلنا على عبدنا » وهذا ما يكون لو أرجع الضمير فى « من مثله » الى الرسول المكنى عنه بعبدنا ،بدلا من القرآن برده الى الاسم الموصول (ما) الدال على القرآن فى قوله « مما نزلنا » فشتان ثم شتان بين التحدى بسورة من (مثل القرآن) فى آخر صور التحدى الباقى على الدهر ، والتحدى بسورة (من مثل النبى) فى أميته ، كما ذهب اليه بعض كبار المفسرين فى القديم والحديث • فالمثلية التى هى ركن التحدى فى قوله تعالى « من مثله » هى اذن مثلية القرآن ، كما عليه جمهور المفسرين لا مثلية النبى كما عليه قليل منهم ، وفى هذه الحالة يمتنع أن تكون بيانية ، اذ تصبح زائدة لا مغزى لها ، لأن (فأتوا بسورة مثله) أصح وأخصر من (فأتوا بسورة من مثله) عند اتحاد المعنى وليس فى القرآن حرف زائد حذفه خير من وجوده ، أو حذفه ووجوده سواء ، كما قرره الفخر الرازى فى القديم ، والأستاذ الأكبر السابق الشيخ تاج فى الحديث ، لكن اذا كانت (من) تبعيضية ، كأن قد قيل (فأتوا بسورة بعض مثله) كان فى التحدى تساهل

وارخاء يزيده قوة فوق التى يزيدها ضـمير الجـلالة للمتكلم ، كأنهم لمـا عجزوا عن المثلية التامة لسـورة من القـرآن ، طولبوا على وجه التعجيز بسورة تشبه أن تكون مثل القرآن أسلوبا ومعنى ، وهذا لا شك ترق فى التحدى فى آخر صوره ، تجاوز به الذروة التى بلغها فى آية سورة يونس)(٢٤) .

وتأمل كيف ألقيت « من » فى مقـام الاجمال ليتسـق النظم تمام الاتساق فى قوله تعالى : « والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شـيئا .. النحل ٧٠ » فحيث طوى بدأ الخلق وأطواره ، ولم يبين فى الآية مبادى العلم ، كذلك طوى ما يدل على مبدأ الزمن الذى يفتقـد فيه العلم ، ثم أبقيت « من » فى مقـام البسط والتفصيل فى قوله تعالى : « يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقنـاكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضـغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها المـاء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .. الحج ٥ » .

فهاهنا بيان لمبدأ الخلق ومراحل تطوره وانتقاله من الضعف الى القوة ، ثم دوران عقارب الساعة الى الوراء لينتهى من حيث بدأ ، كل ذلك فى اسهاب اقتضاه مقام يتطلب كل وسائل الايضاح والبيان لمنكرى البعث ، فكانت « من » فى قوله « من بعد علم » واحدة من حبات العقد التى نظمها سلك واحد ، وضم معها من أخواتها ثمانية فى حديث ضاف

---

(٢٤) الاسلام فى عصر العلم ١٥٧ ـ ١٥٨ .

عن مبادىء خلق الانسان والنبات ، وانتقاله من مرحلة تنتهى ببدء مرحلة أخرى فى اتساق عجيب ينطق بالتفرد والاعجاز •

وأســـاس هذا الذى قلته ما جاء فى كتاب درة التنزيل : (ذكر فى سورة النحل الجملة التى فصلت فى سورة الحج ، وكانت لفظة (بعد) لجملة الزمان المتأخر عن الشىء ، قال : « والله خلقكم » فأجمل ما فصل فى السورة الأخرى ، وبعده • ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا » أى يعزب عنه فى حال الهرم ما كان يعلمه قبل من الحكم ، ويستدركه من الآراء المصيبة ، ويرتكبه من المذاهب القويمة كان هذا موضع جمل لا تفصيل معها ولا تحديد ، ولم يكن كذلك الأمر فى سورة الحج ، لأنه قال : « يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب » يعنى أصلكم ، وهو آدم عليه السلام « ثم من نطفة » أولاده ، « ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم » فذكر تفصيل الأحوال ومباديها ، فقال : من كذا ، ومن كذا لابتداء كل حال ينتقل منه الى غيره ، فبنى ذكر الحال التى ينتقل فيها من العلم الى فقده على الأحوال التى تقدم ذكرها ، فكما حدد أوائلها بمن ، كذلك حدد الحال الأخيرة المنتقلة عما قبلها بمن ، فقال « من بعـــد علم » أى فقد العلم من بعد أن كان عالمـــا فباين الموضع الأول لذلك)(٢٥) •

وهذه آيات ثلاث من متشـــابه النظم سبقت « بعد » فى احـــداها بـــ « من » وخلت اثنتان منها ، فالتى زيدت فيها من هى قوله تعالى : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين •• البقرة ١٤٥ » •

---

(٢٥) درة التنزيل ٢٦٩ •

واللتان أسقطت منها هما قوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ٠٠ البقرة ١٢٠ » وقوله « وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق ٠٠ الرعد ٣٧ » واذا فتشت عن سر وقوع « من » فى الآية الأولى دون أختيها ، وجدت للأولى سياقا يغاير سياق الأخريين ، فالأولى فى تشريع خاص بتحويل القبلة ، اتخذه أهل الكتاب وسيلة للتشكيك والتسلل الى قلوب ضعاف الايمان ، وهو يقتضى حسما فى تحديد بداية الزمن الذى يعمل فيه بهذا التشريع ، والضرب صفحا عن محاولات أهل الكتاب إثناء المؤمنين عن الانصياع لشرع الله ، ومن ثم جاءت « من » فى قوله « من بعد ما جاءك من العلم » لتدل على المبادرة ببداية العمل بالتشريع فور نزوله والاعراض عن أراجيف أهل الكتاب ، والسياق كل أطرافه وحواشيه حسم وتأكيد بالغ على تباين المواقف « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض » ثم تذييل الآية «انك لمن الظالمين» شديد كل الشدة حيث الوصف بالظلم فى اتباعهم بخلاف تذييل الآيتين الأخريين ، فهو اعلان عن التخلى عن نصرته ٠

أما الآيتان الأخريان فهما سياق يكاد يكون واحدا ، هو التحذير من اتباع أهل الكتاب بعد ما أنزل على رسوله من العلم ، لأنهم سيعملون على الانحراف بدين الاسلام عن الحق ويميلون به الى ما يرضى أهواءهم ويقرب من زيغ عقائدهم ٠ وذلك دأبهم فى كل أحوالهم وأزمانهم ، وليس فى تشريع خاص يتطلب تحديد بداية العمل به ، ومن ثم كان سقوط من هو الأليق بهذا السياق(٢٦) ٠

---

(٢٦) انظر درة لتنزيل ٢٨ ٠

وهذه « من » تلقى من ظلالها وايحاءاتها على نفس المتلقى ما يغمرها بالتقديس والاجلال لبيت الله الحــرام ، وعلى البيت ما يجلله مهــابة واعظــاما ، فى قوله تعــالى « واذ يرفع ابراهيم القواعــد من البيت واسماعيل » فقد كان من الممكن أن يأتى النظم هكذا : واذ يرفع ابراهيم قداعد البيت . لكن العدول الى ما عليه النظم تضمن وجهين من البلاغة ، أولهما تعريف القواعد بأل ، وفى ذلك ما يشير الى أن ابراهيم كان يصدر عن أمر الله فى كل لبنة يبنيها ، وفى كل قاعدة يرفعها ، فهى قواعد معهودة محددة المعالم ، لا يتجاوز بها ابراهيم مكانها ، ولا يغفل عن واحدة منها، والوجه الثانى ذلك التفخيم والتعظيم الذى صحب البيان بعد الابهام والذى يفوت بالاضافة .

* * *

من ومعنى المجــاوزة

قال سيبويه عند حديثه عن حرف المجاوزة وبعد تمثيله لها بقوله : أطعمه عن جوع (وقد تقع (من) موقعها أيضا ، تقول : أطعمه من جوع وكساه من عرى)(٢٧) .

تلقف هذه العبارة بعض النحاة والمفسرين ، وتعلقوا بها دليلا على وقوع (من) موقع (عن) ومثلوا لذلك بقوله تعالى : « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هــذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .. قريش ١ ــ ٤ » .

ولا أظن أن امام النحاة قصد أن من وعن سواء ، ولكنه أراد أن هذا فعل يتعدى بحرف المجاوزة وحرف الابتداء مع أداء كل منهما لمعناه

---

(٢٧) الكتاب ٢٢٦/٤ .

واحتفاظه بخصائصه ، وهذا ما نجده فى شرح المفصل لابن يعيش : (وتقول : أطعمه من جوع ، وعن جوع ، فاذا جئت بمن كان لابتداء الغاية ، لأن الجوع ، ابتداء الاطعام ، واذا جئت بعن فالمعنى أن الاطعام صرف الجوع ، لأن (عن) لما عدا الشىء)(٢٨) .

لكن يبقى بعد صحة التعبيرين وتغاير مدلوليهما أن نبحث عن سر ايثار حرف الابتداء فى الآية الكريمة ، وأراه متناسبا تمام التناسب مع مقام يعدد الله فيه نعمه على قريش ، حيث جعلهم سدنة بيت الله الحرام، وأفاض عليهم من رزقه ما حال بينهم وبين الجوع ، فى وقت كان يعانى فيه من حولهم من ضائقة العيش وشدة الجدب ، كما أكرمهم بنعمة الأمن حيث أشباح الخوف تطارد غيرهم من المقيمين بالبوادى والحضر .

ومن تمام التفضل وغاية الانعام أن يكون الاطعام قبل أن يستبد بهم الجوع ، ويترك آثاره عليهم . وهذا ما تفيده (من) الابتدائية ، دالة على أن الاطعام كان من بداية الجوع ومنشئه ، لا بعد أن استبد بهم وذلك ما لايؤديه حرف المجاوزة فى موضعها . فالقول بنيابة أحد الحرفين عن الآخر ذهاب عن هذه الفروق الدقيقة ، وتساهل فى القول .

وفى قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام آمرا أبناءه باعادة البحث عن يوسف وأخيه : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه .. يوسف ٨٧ » .

نقل الألوسى عن ابن الأنبارى أن (عن) بمعنى من ،لأنه لا يقال تحسست من فلان ، وانما يقال : تحسست عنه (٢٩) . والى مثله ذهب ابن الجوزى (٣٠) .

---

(٢٨) شرح المفصل ٤١/٨ .

(٢٩) انظر روح المعانى ٤٤/١٣ .

(٣٠) انظر منتخب قرة العيون النواظر ٢٢٤ .

وهذا مخالف لما فى المعاجم ، قال صاحب اللسان : (وتحسس الخبر تطلبه وتبحثه ، وفى التنزيل : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه » وقال اللحيانى : تحسس فلانا ، ومن فلان ، أى تبحث وبالرغم من أننى لم اجد فى المعاجم التى وقعت بين يدى تحسس عن فاننى أرى صحة التعدية بها أن (من) أقرب الى بلاغة النظم وأقدر على النهوض بمقصده ، لأنها تدل على القرب من الأخبار والوصول الى أدنى الأماكن التى يظن العثور عليهما فيها ، بناء على ما نقلناه فى الفصل السابق من أن (من) تكن لما قرب من الأسماء ، و (عن) تكون لما بعد منها ، كما فرقوا بين سمعت منه وسمعت عنه بأن الأول يدل على مباشرة السماع ومشافهة مصدره ، بخلاف الثانى الذى قد يكون السماع عنه بواسطة .

وجعلها ابن هشام بمعنى (عن) فى قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين .. الزمر ٢٢» . ذاهبا الى أن تقديره : عن ذكر الله(٣١) .

وليس هذا بالوجه ، لأن قسوة القلب عن ذكر الله معناها انصرافه عن الله تعالى وعبادته وذكره ، وقسوة القلب من ذكره تدل على أن ذكر الله تعالى هو منشأ القسوة والجمود ، لما أنه يقابل منهم بالعصيان والصدود ، فيزدادون كفرا على كفرهم ، بخلاف من شرح الله صدره للاسلام فانه يطيب قلبه بذكر الله ويزداد نورا على نوره ، وهو ما دل عليه قوله بعد ذلك « واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة .. الزمر ٤٥ » وكما يدل عليه قوله بعد الآية موضع الحديث مباشرة « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه

---

(٣١) مغنى اللبيب ٦/٢ .

جلود الذين يخشـون ربهم .. الزمر ٢٣ » فهؤلاء فى مقـابلة أولئك ، يسمعون كلام الله فينشأ من سماعهم قشعريرة جلودهم خوفا من ربهم سرعان ما يعقبها الاطمئنان الى ذكر الله ، كما أن أولئك يسمعونه فينشأ من سماعهم قسوة قلوبهم وتجمدها فتأمل كيف تعانقت من فى الآيتين واتسقتا فى الكشف عن أثر القرآن فى قلوب المؤمنين والكافرين .

وذكر كثيرون أنها بمعنى (عن)(٣٢) فى قوله تعـالى : « واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين .. الأنبياء ٩٧ » .

وقد بنوا ذلك على أن فعل الغفلة أصـله أن يتعـدى بعن ، لكثرة وقوعه معدى بها ، ويكفى أنه جاء معدى بعن فى القـرآن ثلاثة وعشرين مرة ، ولم يتعد بمن الا فى موضعين ، هذا أحدهما ، والثانى قوله تعالى : « ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطـاءك فبصرك اليوم حديد .. ٢٠ ـ ٢٢ » .

ذكر صاحب المغنى فى الآية الأولى رأيا يذهب الى ان (من) بمعنى الابتداء بناء على تعلقها بالويل لا بالغفلة . قال : (وقيل هى فى هذه الآية للابتداء ، لتفيد أن ما بعد ذلك من العذاب أشد ، وكأن هذا القائل يعلق معناها بويل ، مثل فويل للذين كفروا من النار . ولا يصح كونه تعليقا صناعيا للفصل بالخبر .

واذا صح تعلق (من) بالويل فى الآية الأولى فليس هناك ما يمكن أن تتعلق به غير الغفلة فى الآية الثانية .

---

(٣٢) انظر المغنى ١٦/٢ والاتقان ١٧٦/١ .

وأرى — والله أعلم — أن (من) على أصل معناها فى الآيتين وأن الغرض معها تهويلما رأوه من العذاب ومفاجأتهم بما لم يتوقعوه و(من) دالة على التبعيض ، مشيرة الى أنهم لو ذكروا بعض هذا العذاب ما صاروا الى ما صاروا اليه ، يدل عليه قوله « فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » لهول ما شهدت منه .

وليس مصادفة أن آية (ق) سبقها قوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد .. ق ١٩ » وقد عدى فيه الفعل (تحيد) بمن والأصل فيه أن يتعدى بعن ، حتى قيل فيه ان « من » بمعنى عن كذلك (٣٣) ، وليس كما قيل ، بل هو اشارة الى أن سكرة الموت بعض من الأهوال المتتابعة التى ستلاحقه والتى تعد سكرات الموت أقله وأدناه و (من) دالة على التبعيض كأختها فى الآية بعدها .

* * *

من ومعنى الالصاق

من بليغ النظم الحكيم وروائع اعجازه فى وضع الحرف موضعه الأليق به قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف .. البقرة ٢٣٤ » .

فأتى بحرف الالصاق فى قوله « بالمعروف » ثم جاء بمن فى قوله: « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معرف .. البقرة ٢٤٠ » .

---

(٣٣) انظر منتخب قرة العيون النواظر ٢٢٤ .

لما كان الحديث فى الآية الأولى خاصا بحقهن فى الزواج بعد انقضاء العدة خص ما يفعلنه فى أنفسهن بالأمر المتعارف عليه والذى أباحه الشرع وهو الزواج ، وعداه بحرف الالصاق دليلا على وجوب الالتزام بشرع الله واستصحابه فيما فرض لهن .

وحينما كان الحديث عن عموم حقوق المرأة المتوفى عنها زوجها بعد انقضاء العدة ، وتمتعها بحقها فى بيت الزوجية وخروجها منه . والزواج واحد من أمور كثيرة مباحة للمرأة مما شرع الله من حقوق جاء حرف التبعيض (من) مع تنكير (معروف) ليدل على أن الزواج أحد هذه الحقوق التى لا تمنع منها .

وهذا من دقائق ما كشف عنه الاسكافى فرقا بين الحرفين . قال : ان الأول تعلق بقوله : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف » أى لا جناح عليكم فى أن يفعلن فى أنفسهن بأمر الله ، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة ، فالمعروف ها هنا أمر الله المشهور ، وهو فعله وشرعه وبعث عليه عباده . والثانى المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من جملة الأفعال التى لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود ، فالمعروف هاهنا فعل من أفعالهن ، يعرف فى الدين جوازه ، وهو بعض ما لهن أن يفعلنه ولهذا المعنى خص بلفظه (من) ونكر ، فجاء المعروف فى الأول معرف اللفظ لما أشرت اليه ، وهو أن يفعلن فى أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذى أباح الشرع من ذلك ، وهو الوجه الذى دل الله عليه وأبانه فعرف اذ كان معرفة مقصودا نحوه، وكذلك خص بالباء وهى للالصاق . والثانى كان وجها من الوجوه التى لهن أن يأتينه فأخرج مخرج النكرة لذلك) (٣٤) .

---

(٣٤) درة التنزيل ٥٢ ـ ٥٣ .

بمعنى الباء قوله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .. الرعد ١١ » على أن المعنى : يحفظونه بأمر الله(٣٥) (والدليل على أنه لا بد من المصير اليه آنه لا قدرة للملائكة ، ولا لأحد من الخلق على أن يحفظوا أحدا من أمر الله ، ومما قضاه عليه)(٣٦) .

هكذا قالوا . وللزمخشرى توجيهان لتخريج (من)على أصل معناها فى الآية ، لكنها فى الوجه الأول تدل على التعليل . يقول : (« يحفظونه من أمر الله » هما صفتان جميعا ، وليس من أمر الله بصلة للحفظ ، كأنه قيل : له معقبات من أمر الله ، أو يحفظونه من أجل أن الله أمرهم بحفظه ، والدليل عليه قراءة على رضى الله عنه ، وابن عباس ، وزيد بن على وجعفر بن محمد وعكرمة ، يحفظونه بأمر الله ، أو يحفظونه من بأس الله ونقمته اذا أذنب بدعائهم له ، ومسألتهم ربهم أن يمهله رجاء أن يتوب وينوب)(٣٧) .

وأرانى أميل الى جعل « من أمر الله » صفة ثانية لمعقبات ، كما ذهب اليه الزمخشرى فى الوجه الأول وان كنت لا أتفق معه على جعل من سببية تؤدى ما تؤديه باء السببية ، لأننا نصير حينئذ الى نفس النتيجة من تناوب الحروف ، وليست قراءة من قرأ بالباء دليلا على أنها بمعنى الباء ، لأنه ليس بلازم أن تتفق القراءتان فى مدلولهما . فهاتان قراءتان سبعيتان فى قوله تعالى : « اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء .. المائدة ١١٢ » قرأ السبعة ما عدا الكسائى « يستطيع ربك » بياء الغيبة ، ورفع لفظ « رب » على

---

(٣٥) انظر تأويل مشكل القرآن ٥٧٤ ، مجاز القرآن ١/٣٢٤ ، الكامل للمبرد ٣/٩٨ .

(٣٦) تفسير الفخر الرازى ١٩/١٩ .

(٣٧) الكشاف ٢/٣٥٢ .

الفاعلية ، وقرأ الكسائى « تستطيع ربك » بتاء الخطاب ، ونصب لفظ (رب) على المفعولية ، وهما معنيان مختلفان ، اذ الأول طلب سؤال ربه لأن الاستفهام فيه بمعنى الطلب ، والثانية على معنى : هل يطيعك ربك ويجيبك على مسألتك (٣٨) .

وكذلك الشأن فى الآية التى نتحدث عنها ، فقراءة البـاء ، وقراءة (من) معنيان مختلفان . و (من) بمعنى الابتداء فيها تدل على أن هذه المعقبات مبدؤها ومنشوها أمر الله تعالى ، وفى ذلك ما فيـه من الدلالة على هيمنة الله على خلقه ، وانصـياع جنده من الملائكة لأمره . وجعل « من أمر الله » صفة ثانية ، يعدد وظائف المعقبـات من ملائكة الله ، ولا يقصرها على الحفظ ، اذ أنهم كما يحفظونه يرقبون أعماله ويسجلون عليه ، وربما كانت وظيفتهم فى التسجيل والمراقبة أهم فى سياق الآية ، حيث ان كل ما قبلها يتحدث عن احاطة علم الله تعالى بخلقه ، وعدم خفاء أمر من أمورهم عليه واقرأ دليلا على ذلك قبل هـذه الآية « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهـار له معقبـات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .. الرعد ٧ — ١١ » .

فلا شك أن تلاؤم أجزاء النظم يستدعى أن يكون قوله « له معقبات » كالدليل على أنه سخر من جنـده من يرقب حركة خلقه ويحصى عليهم أنفاسهم ، ويسجل عليهم أعمالهم كما أنهم يحفظونهم اسـتجابة لأمر الله تعالى .

---

(٣٨) انظر المغنى فى توجيه القراءات العشر المتواترة ٢ / ٣٣ .

ومن مواضع التباس (من) بالباء ، قوله تعالى : « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى .. الشورى ٤٤ ـ ٤٥ » .

قال المرادى نقلا عن الأخفش (أى بطرف خفى ، كما تقول العرب ضربته من السيف ، أى بالسيف)(٣٩) .

ونقل الصبان فى حاشيته عن الدمامينى والشمنى قولهما (ان أريد كون الطرف آلة للنظر فـ (من) بمعنى الباء ، أو مبدأ له ، فهى للابتداء فهما معنيان متغايران موكولان الى اردة المستعمل)(٤٠) .

وبالرغم من أن هذا القول هو الأليق بحكمة الناظم ، والتصرف فى وجوه الكلام بما يتفق وأغراضه ، واختلاف ضروب المعانى ، فان مايؤخذ عليه أن تدل (من) على ما تدل عليه الباء ، حيث لا مانع من استعمال ما هو أصيل فى معناه ، وكان أولى أن يقال : ان أريد كون الطرف آلة للنظر جىء بالباء ، وان ريد كونه مبدأ له جىء بمن ، والا فما الذى أدرانى أنه أراد الآلة أو المبدأ ، ان لم يستعمل كل حرف فى معناه الموضوع له ؟ .

وأقول بعد ذلك ان بلاغة النظم تقتضى هنا (من) دون الباء ، لتشير الى أن الظالمين لا يستطيعون أن يحركوا الطرف ، وانما ينظرون ببعضه ، وبالقدر الذى يريهم هول العذاب ، وذلك ينسجم تمام الانسجام مع قوله « خاشعين من الذل » حتى انهم من فرط ذلهم لا يستطيعون رفع أبصارهم ، ولا النظر الا خلسة ، وببعض الطرف ، ويدل عليه وصف الطرف بالخفاء ، شأن المستحيى من رفع بصره ، فأين هذا من

---

(٣٩) الجنى الدانى ٣١٤ .

(٤٠) حاشية الصبان ٢١٨ ـ ٢١٩ .

معنى البـاء ، الذى يدل على اتخاذ الطرف آلة يحركونه لرؤية الأشياء دون ما أشرنا اليه من معان وشى بها حرف الابتداء .

ثم لنتأمل دلالة (من) فى قوله تعالى : « قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون .. يونس ٥٠ » وهى التى قال ابن الجوزى انها بمعنى الباء ، وكيف أفادت تعدد صنوف العذاب، واختلاف أشكاله وألوانه ، وكأنه يقول : ماذا تصـنعون حين يحل بكم ما لا طاقة لكم به من عذاب الله ، ويفاجئكم من ضروب بلائه بين عشـية أوضحاها ، أو كما قال النيسابورى : (والعذاب كله مر المذاق ، موجب للنفـار ، فأى شىء يسـتعجلون منـه ، وليس شىء منـه يوجب الاستعجال ؟)(٤١) .

وذلك خير رد على تهكمهم وسخريتهم التى حكاها القرآن قبل ذلك « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين .. يونس ٤٨ » .

أما قوله تعالى بعد وقوع العذاب « أثم اذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون .. ٥١ » وتعديته بالباء ، فلأن للالصاق دلالته على أنه قد نزل بهم ما استعجلوه ، ووقع بهم ما كانوا يتمنون وقوعه ، فهذا موضع ، وذلك موضع آخر ، ولا يصح أبدا أن نحكم على حرف بأنه يؤدى معنى حرف آخر لمجرد أنه تعدى بذلك الحرف أكثر منه فى مواطن لها سياقاتها ودواعيها .

★ ★ ★

من ومعنى التعليل

من بديع نظم القرآن الكريم مغايرا بين الألفاظ لاختلاف ضروب المعانى ، وتباين المقاصد والأغراض ، قوله تعالى « قل تعالوا أتل ماحرم

---

(٤١) غرائب القرآن للنيسابورى ٨٩/١١ .

ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ٠٠ الأنعام ١٥١ » فقال « من املاق » ثم جاء فى سورة أخرى قوله « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ٠٠ الاسراء ٢٩ ــ ٣١ » فقال « خشية املاق » فقاس المفسرون ذاك على هذا وجعلوا « من » فى الآية الأولى دالة على التعليل كما هو فى قوله « خشية املاق » قال أبو حيان : (من) هنا سببية ، أى من فقر ، لقوله : خشية املاق)(٤٢) ٠

والقول بأنها سببية تؤدى ما يؤديه (خشية) ذهاب عن الفروق التى يتغياها النظم ، بدليل المغايرة فى ترتيب الضمائر بين الآيتين ، فحيث كان الاملاق واقعا بهم ، وتخوفوا من زيادته بزيادة الأولاد جاءت (من) دالة على أن الفقر الواقع بهم كان منشأ اقدامهم على قتل أولادهم ، مجسدة الخوف والهلع المتمكن من قلوب الآباء ، وكأنهم بادروا الى قتل أبنائهم من بداية ما يقال له فقر ، مهما كان ذلك الفقر قليلا ، والتضييق عليهم ليس شديدا ، وهو ما يؤكده تنكير « فقر » ايماء الى صغره وضعف شأنه ٠ وتناغم ذلك مع تقديم ضمير الآباء وما يومىء به من أن الله قادر على أن يبدل الفقر الواقع بهم غنى ، ويغير من أحوالهم بانضمام الأولاد اليهم ٠

وحيث كان التخوف من شىء لم يقع ، وهو ما يدفع الانسان الى البخل والشح حتى على نفسه كما آذن به قوله « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » جاءت الخشية لتشير الى بلاهة المقدمين على قتل أولادهم

---

(٤٢) البحر المحيط ٤/٢٥١ ٠

تخوفا من مشاركتهم أرزاقهم ، والتضـــييق عليهم بكثرة الأولاد ، فكان لفظ خشية متناغما كذلك مع تقديم ضـــمير الأبناء نعيا علهم أن يدفعهم خوف الفقر الى قتل من كانوا ســـيفتحون أبواب الرزق أمامهم ، فالله تعـــالى خلقهم وأجرى عليهم أرزاقهم فى بطون أمهاتهم ، لذا قدم رزق الأبناء على رزق الآباء دفعا لهذا الخوف •

وهذا موضع آخر قال النحاة والمفسرون ان (من) فيه للتعليل ، ذلك قوله تعالى حكاية عن قوم نوح « ممـــا خطيئـــاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا •• نوح ٢٥ » قال الزمخشرى: (تقديم « مما خطاياهم » لبيان أن لم يكن اغراقهم بالطوفان ، فادخالهم النار الا من أجل خطيئاتهم)(٤٣) •

وأرى أن (من) تبعيضية ، ولها دلالة بلاغية لا يؤديها ســـواها ، ذلك أن الله تعالى أراد أن يبين كثرة ذنوبهم ، وبشاعة ما اقترفوا من الآثام ، الأمر الذى لم يستطع نوح معه طوال ألف سنة الا خمسين عاما أن يغير منه ، لعنادهم وانغماسهم فى الغى والضلال ، وكأن بعض هذه الخطايا كان كفيلا أن يستجب غضب الله عليهم ، ويستحقوا معه ما نزل بهم من اغراق فى الدنيا ، واحراق فى نار الآخرة • وذلك ما تشيعه (من) فى تركيبهـــا •

وأما قوله تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت •• البقرة ١٩ » فليست (من) فى قوله (من الصواعق) مزايلة لمعناها الأصلى من الدلالة على الابتداء الى معنى التعليل كما قال به كثيرون(٤٤) •

---

(٤٣) الكشاف ٤/١٦٤ •

(٤٤) انظر الاتقان فى علوم القرآن ١/١٧٦ •

ودلالتها على الابتداء هى التى تجسد مشاعر الرعب والفزع الذى استبد بالسائرين فى هذا الجو المظلم برعوده وبروقه ، وكيف استولى عليهم الخوف حتى كادوا يضعون أصابعهم بكاملها فى آذانهم لأول بارقة من الصواعق ، فكيف حين تتوالى عليهم الصواعق وتشتد ؟ فالاسراع الى وضع اصابعهم من بدء الصواعق . يتعاون فيه معنى الابتداء مع المبالغة بالمجاز المرسل ليرسم صورة مجسدة للحياة القلقة الوجلة ، التى يعيشها المنافقون .

ومما قيل فيه ان (من) جاءت للتعليل قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله .. البقرة ٧٤ » حيث ذهب البعض الى أن معنى « من خشية الله » من أجل خشيته . ومن للتعليل .

وأراها بدلالتها على الابتداء تضاعف النعى على بنى اسرائيل ، وتزيد من حدة الانكار عليهم لقسوة قلوبهم الى هذا الحد الذى تتفوق فيه أقسى ما عرف من الجمادات بالصلابة وهو الحجارة ، وعلى طريق الترقى فى المبالغة من قسوة قلوبهم جاء قوله « وان منها لما يهبط من خشية الله » لتفيد (من) فيه أن هذه الحجارة القاسية تهبط من ابتداء وقوع الخشية ، فكيف لو تمكنت منها وتتابعت ووصلت الى غايتها ، فأى نكير هذا على قلوب من لحم ودم تقسو كل هذه القسوة فى الوقت الذى ترق فيه الحجارة كل هذه الرقة !

* * *

من ومعنى الاستعلاء

هـذا معنى أثبته لن جمهـور كبير من اللغـويين والمفسرين(٤٥) مستدلين بقوله تعالى متحدثا عن نوح عليه السلام « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين •• الأنبياء ٧٧ » ذاهبين الى أن الأصل فى فعل النصر أن يتعدى بعلى ، مثل قوله تعالى « قاتلوهم يعـذبهم الله بأيديكم ويخـزهم وينصركم عليهم •• التوبة ١٤ » •

وبالرجوع الى معاجم اللغة نجد أن النصر معناه العون ، وهـذا العون قد يكون بتغليبه على خصمه ، أو بمنع خصمه منه ، وفى الحديث: انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، وتفسيره ، أن يمنعه من الظلم ان وجده ظالما ، وان كان مظلوما أعانه على ظالمه(٤٦) •

وحيث كان المراد تغليب طرف على آخر فى معركة أو خصومة يعدى الفعل بعلى ، كما فى آية التوبة السابقة ، وكما فى قوله تعالى : « ولمـا برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينـا صـبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين •• البقرة ٢٥٠ » •

وقوله « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما اسـتكانوا والله يحب الصـابرين وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين •• آل عمران ١٤٦ ـــ ١٤٧ » •

---

(٤٥) انظـر فقه اللغـة وأسرار العربية ٢٣٧ ، والأزهية ٢٨٢ ، والاتقان ١/١٧٦ •

(٤٦) انظر اللسان ٧/٤٤٣٩ •

فها هنا معارك محتدمة يحاول كل طرف فيها أن يتغلب على الآخر، ومن ثم كان نصر الله فيها يعنى اعانتهم بتغليبهم على عدوهم •

أما قوله تعالى « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتتنا » فهو موطن المنع والانجاء ، لأن نوحا عليه السلام لم يعلن الحرب على قومه ولم يكن معه من الجنود والأنصار ما يتصدى به لعنت المشركين ، بل كان قومه هم الذين يحاولون استئصاله والقضـــاء عليه « قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين •• الشعراء ١١٦ » •

والى هذا ذهب العز بن عبد السلام فقال : (النصر ان استعمل بعلى كان بمعنى الغلبة) نحو « فانصرنـــا على القوم الكافرين » وان استعمل بـــ « من » كان بمعنى المنع « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا »(٤٧) •

يؤيد ذلك أن كل ما جاء من فعل النصر فى القرآن معدى بمن كان هناك طرف قاهر يراد منعه من انفـــاذ أمره فيمن يتهـــدده ، كما فى آية الأنبياء ، وكما فى قوله « فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا •• غافر٢٩» وقوله « ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم •• هود ٣٠ » •

ويرى صاحب الكشاف أن « نصر » هنـــا مطـــاوع انتصر ، وكأن المعنى انتقمنا منهم (٤٨) وفرق الأساس بين نصره الله على عدوه ونصره من عدوه ، بأن المتعدى بعلى يدل على مجرد الاعانة ، والمتعدى بمن يدل على استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار عليه (٤٩) •

---

(٤٧) الفوائد فى مشكل القرآن /٥٥ •
(٤٨) انظر الكشاف ٥٧٩/٢ •
(٤٩) انظر روح المعانى ٧٣/١٧ •

وهو وجه لطيف له ما يدل عليه ، ذلك أن الآية التى قبل هذه الآية صرحت بتنجية الله تعالى لنوح ، وذلك هو نصره من عدوه « ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم •• الأنبياء ٧٦ » فما فائدة قوله « ونصرناه من القوم •• » الا أن يكون زيادة بيان بالدلالة على الانتقـــام منهم ، وقد كان ذلك باغراقهم ، وهو ما أفاده النيسابورى بقوله «وزاده بيانا بقوله « ونصرناه •• الآية »تقول : نصرته منه فانتصر ، اذ جعلته منتصرا منه أى منتقما »(٥٠) •

ومما قيل فيه ان « من » تدل على الاستعلاء قوله تعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم •• البقرة ٢٢٦ » اذ الأصل فى فعل الايلاء أن يتعدى بعلى ، فتقول آليت على كذا ، كما تقول حلفت عليه • فلما جاء هنا معدى بمن كان ذلك داعيا للبحث عن سر المخالفة فى هذه التعدية • وأيسر الآراء أن يقال ان « من » بمعنى على ، وهناك من قال ان الفعل ضمن معنى الامتناع فعدى تعديته أو أن « من » للتعليل كأن الايلاء كان بسبب النساء (٥١) •

وقال آخر (انما عدى ههنا بمن لأنه أريد لهم من نسائهم (تربص أربعة أشهر) كما يقال : لى منك كذا(٥٢) وعلى هذا الرأى فليس الجار والمجرور صلة الفعل يؤلون • وهذا مردود عليه بحديث أنس بن مالك : أن النبى صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه شهرا(٥٣) فليس فيه «له» •

وعلل ابن منظور تعدية الفعل بمن فى الحديث بقوله : (وانما عداه

---

(٥٠) غرائب القرآن ٤٤/١٧ •
(٥١) انظر البحر المحيط ١٨١/٢ •
(٥٢) غرائب القرآن للنيسابورى ٥٤/٢٧ •
(٥٣) مسند الامام أحمد بن حنبل ٢٠٠/٣ •

بمن حملا على المعنى ، وهو الامتناع من الدخول ، وهو يتعدى بمن)(٥٤)

وأرى أن الايلاء اذا عدى بعلى كان الغـرض الاضرار بمن وقع عليه الايلاء ، والايذاء بظهور المولى ونفوذه وسيطرته ، وحين يعدى بمن فانه يدل على التولى منه والصدور عنه • وهذا ما توحى به (من) فى الآية الكريمة ، مشيرة الى أنه ولى من امرأته وجافاها ، وكأنه أخرجها من قلبه ونفسه ، ولهذا السر يعدى الظهـار بمن ، فيقـال : ظاهر من امرأته • قال تعالى : « والذين يظاهرون من نسـائهم •• المجادلة ٣ » وكأن المظاهر أعطى ظهره لامرأته وولى منها •

★ ★ ★

من ومعنى الظرفية

من أشهر الأمثلة التى استدل بها القائلون بتبـادل حروف الجر مواقعها ومعانيها على دلالة من على الظرفية ، قوله تعـالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع •• الجمعة ٩ » وقوله « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه •• التوبة ١٠٨ » •

قال الرضى : (وأنا لا أرى فى الآيتين معنى الابتداء ، اذ المقصود من معنى الابتداء فى « من » أن يكون الفعل المتعدى بمن الابتدائية شيئا ممتدا ، كالسـير والمشى ونحوه ، ويكون المجرور بمن الشىء الذى منه ابتداء ذلك الفعل ، نحـو : سرت من البصرة ، أو يكون الفعل المتعدى بها أصلا للشىء الممتد ، نحو : تبرأت من فلان الى فلان ، وكذا خرجت من الدار اذا انفصلت منها ، ولو بأقل خطوة ، وليس التأسيس والنداء

---

(٥٤) لسان العرب ١١٧/١ ٠

حدثين ممتدين ، ولا أصلين للمعنى الممتد ، بل هما حدثان واقعان فيما بعد (من) وهذا معنى (فى) فمن فى الآيتين بمعنى (فى) (٥٥) •

ولنـــا أن نســـأل : اذا كانت من بمعنى (فى) فما سر العدول عن الحرف الأصلى ؟

ولم لم يقل : فى أو لليوم ، وفى يوم الجمعة ؟

اننى أراها فى الآيتين على أصـــلها من الابتـــداء أو التبعيض ، والتبعيض كما نقل الرضى عن المبرد وعبد القاهر والزمخشرى راجع الى معنى الابتـــداء ، لأن الدراهم فى قولك : أخـــذت من الدراهم مبـــدأ الأخذ(٥٦) •

أما لمـــاذا أوثرت (من) على حرف الوعاء فى الآية الأولى ؟ فلأن الله تعالى لا يريد من المؤمنين ترك أعمالهم فى هذا اليوم والانقطاع الى الصلاة والعبادة ، بل طلب اليهم أن يبدأوا يومهم بالعمل ، فاذا سمعوا النداء لصلاة الجمعة من بعض هذا اليوم لبوا نداء الله تعالى مسرعين فاذا ما فرغوا من صلاتهم بادروا بالعودة الى أعمالهم •

ألا ترى الى قوله « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » أليس الأمر بالانتشار فى الأرض ابتغاء لفضل الله ورزقه، وتصديره بالفاء المعقبة دليلا على ما يهدف اليه القـــرآن من أداء هـــذه الشعيرة فى جزء من النهار حتى لا يفهم المسلمون أن احتفاء الاسلام بيوم الجمعة ، ودعوة المسلمين الى التجمع فيه واختصاصه بصلاة معينة موجب لترك العمل فى هذا اليوم ؟

---

(٥٥) شرح الكافية ٢٩٨/٢ •
(٥٦) انظر شرح الكافية ٢٩٨/٢ •

ان (من) التبعيضية هى وحدها التى تنهض بهـذا الغرض ، ولا يؤدى حرف الوعاء ما تؤديه (من) فى مكانها • وذلك ما يتضح من كلام النيسابورى حين رد القول بأن (من) فى الآية بيانية فقال : « ان اليوم أعم من وقت النداء ، والعام لابهـامه لا يصـير بيانا ظاهرا ، فالأولى أن تكون من للتبعيض »(٥٧) •

و (من) فى قوله تعالى « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » هى من الابتدائية ، ولها دلالاتها فى أن هذا المسجد كان منذ اللبنة الأولى التى وضعت لتأسيسه مصحـوبا بالتقوى مبالغـة فى صـدق النوايا واخلاص العمل لوجه الله ابان التفكير فيه ، ومن بداية العمل فى بنائه ، فأنت حين تقول ذهبت الى الحقل من أول اليوم ، عنيت أن ذهابك كان جد مبكر ، بحيث بدأ ببداية أول اليوم دون أن تنصرم منه لحظـة من لحظاته ، واذا قلت ذهبت الى الحقـل أول اليوم أفدت التبكير نعم ، لكنك لم تستوعب لحظات اليوم من بداية ما يقـال له أول ، وعليه فان « من » فى الآية دالة على استيعاب وقت الأولية كله مبالغة فى أن جزءا ولو يسيرا من الوقت لم تكن التقوى مفارقة له ، وفى ذلك أبلغ الحسم للمرجفين الذين أرادوا الاساءة الى هذا المسجد ، وحاولوا الاضرار به ، وضرب وحدة المؤمنين ببناء مسجد آخر • ألا ترى الى سياق الآية وما يحوطه من الحسم البالغ والتأكيدات المتتالية على سوء النوايا من المنافقين (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقـا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه ••التوبة ١٠٧ ــ ١٠٨) •

---

(٥٧) غرائب القرآن ٥٢/٢٨ •

وهذه آية أخرى كثر الاستدلال بها على معنى الظرفية فى « من » أو نيابتها عن حرف الوعاء (٥٨) وهى قوله تعالى : « قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات .. فاطر ٤٠ » حيث فسر الكثيرون (من الأرض) بمعنى فى الأرض(٥٩) .

ولا أدرى أى ضرورة تدعو الى مثل هذا القول مع وضوح دلالتها على التبعيض ، وانسجامه مع الغرض من نفى الشركاء مع الله تعالى فى خلقه ، فالذى يدعى أن مع الله الها آخر عليه ان يثبت أى جزء من أجزاء الأرض خلقه فشارك الله تعالى فى خلقه ، وكأنه يقول : ان العالم المنظور أرض بما عليها ، وسماء بما فيها ، وهما لا شك مخلوقتان ، واذا أقررتم بأن الله تعالى خالق ، وزعمتم أن معه آلهة آخرى ، فأى أجزاء الأرض خلقها الشركاء ؟ والقول بأن « من » بمعنى « فى » ينزل بالتحدى من خلق الأرض وماعليها الى خلق ما فيها ، ويصير المعنى أى شىء خلق الشركاء فى هذه الأرض وتصير الأرض ذاتها بمنأى عن هذا التحدى ، مع أنها هى الأدل على عظيم قدرة الله « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » .

ولعل أضعف من ذلك قولهم بدلالتها على الظرفية ، فى قوله تعالى على لسان صالح عيه السلام مخاطبا قومه « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه .. هود ٦١ » .

---

(٥٨) انظر الجنى الدانى ٤١٤ ؛ وتأويل مشكل القرآن ٥٧٧ .
(٥٩) انظر معانى الحروف للزجاجى ٧٦ .

قال الألوسى : « أى ابتدأ خلقكم منها ، فانها المادة الأولى ، وآدم الذى هو أصل البشر خلق منها ، وقيل : الكلام على حذف مضاف ، أى انشأ اباكم ،وقيل « من » بمعنى « فى » وليس بشىء »(٦٠) .

واذا كان الألوسى قد أحسن فى رد هذا القول وتضعيفه فاننى لا أعرف كيف ساغ لقائليه وهم يقرأون قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .. هود ٥٥ » وقوله « وبدأ خلق الانسان من طين .. السجدة ٧ » فهل يجوز لهم أن يقولوا ان معنى « منها خلقناكم » فيها خلقناكم ؟

ان النظم الكريم قصد على لسان صالح أن يذكر قومه بمبدأ نشأتهم من هذه الأرض ، التى يمشون فيها مختالين ويبطشون جبارين بعد أن أطال الله أعمارهم فيها فتناسوا بداية خلقهم وخالقهم،وكأنه يقول لهم خففوا الوطء فما أديم الأرض الا من هذه الأجساد،وما أجسادكم الا من هذا الأديم . وذلك معنى غير معنى الظرفيـة ، التى لو جاءت لدلت على المكان الذى شهد منشأهم ، واحتضنهم فى بداية خلقتهم ، وهو ما لا يهدف اليه النظم الحكيم .

وامتدادا لهذا التساهل فى معانى الحروف ، والتداخل الذى تضيع معه معالمها قال المرتضى انها بمعنى الظرفية فى قوله تعالى ، خلق الانسان من عجل .. الأنبياء ٣٧ » وقدر المعنى : فى عجل(٦١) . ولا أرى مايدعو الى ذلك . فقل لى بربك أيهما أبلغ فى الدلالة على تعجل الانسان لما يراه نفعا له ، والمبالغة فى هذه الصفة ، أن يقال ان العجل هو المادة التى صيغ منها خلق الانسان ، فهو بكل ما فيه من لحم ودم وفكر وقلب

---

(٦٠) روح المعانى ١٢/٨٨ .

(٦١) أمالى المرتضى ١/٤٦٨ .

مجبول على هـــذه الطبيعة التى خلق منهـــا ، أم يقال انه خلق بالعجلة متمكنا فيها ؟

لا شك أن ما عليه النظم الكريم هو الأبلغ فيمـــا قصـــد اليه من المبالغة فى وصف الانســـان بالعجلة لاحراز ما يظنه ، ولو تريث لعلم أن الخير فيما يختاره الله لا فيما بيختاره لنفســـه • ولذلك اختار صـــيغة المبالغة فى هذا الوصف من قوله تعـــالى : « وكان الانســـان عجولا •• الاسراء ١١ » •

اللهم اجعل عجلتنا الى طاعتك ، ولا تجعلها فى معصيتك ، واغفر لنا ما تجاوزنا به عن مرادك ، وأحسن جزاءنا فيما هديتنـــا اليه من أسرار كتابك ، انك أنت العفو الكريم •

المصادر والمراجع

١ ـ الاتقان فى علوم القرآن ـ للسيوطى ·
مصطفى البابي الحلبى ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٠ هـ

٢ ـ الاحكام فى أصول الأحكام ـ للآمدى ·
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥ م ·

٣ ـ الأزهية فى علم الحروف ـ للهروى
تحقيق عبد المعين الملوحى ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ·

٤ ـ أساس البلاغة ـ للزمخشرى
دار الفكر ·

٥ ـ أسباب النزول ـ أبو الحسن الواحدى
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م ·

٦ ـ أسرار البلاغة ـ لعبد القاهر الجرجانى
دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م ·

٧ ـ الاسلام فى عصر العلم ـ محمد أحمد الغمراوى
دار الكتب الحديثة ـ مطبعة السعادة ·

٨ ـ الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز ـ للعز بن عبد السلام
المطبعة العامرة ١٣١٣هـ ·

٩ ـ اعراب القرآن المنسوب الى الزجاج
ت · ابراهيم الابيارى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م ·

١٠ ـ أمالى المرتضى ـ للشريف المرتضى
ت · محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار احياء الكتب العربية ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م ·

١١ ـ املاء ما من به الرحمن ـ لأبى البقاء العكبرى
دار ومكتبة الهلال ـ بيروت لبنان ٠

١٢ ـ الايضاح ـ للخطيب القزوينى
مطبوع مع بغية الايضاح ـ مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ٠

١٣ ـ البحر المحيط ـ لأبى حيان الأندلسى
مطبعة السعادة ـ الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ ٠

١٤ ـ بدائع الفوائد ـ لابن القيم الجوزية
دار الكتاب العربى ـ بيروت لبنان ٠

١٥ ـ البرهان فى علوم القرآن ـ للزركشى
ت٠ محمد أبو الفضل ابراهيم ـ عيسى البابى الحلبى ـ الطبعة الأولى ١٩٥٨م ٠

١٦ ـ بغية الايضاح ـ عبد المتعال الصعيدى
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ٠

١٧ ـ البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى ـ د٠محمد حسنين أبوموسى
دار الفكر العربى ـ القاهرة ٠

١٨ ـ بيان اعجاز القرآن ـ للخطابى ت د٠ محمد خلف الله ود٠ محمد زغلول سلام
ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن دار المعارف ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م ط ثانية ٠

١٩ ـ تأويل مشكل القرآن ـ لابن قتيبة
دار التراث ـ الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ٠

٢٠ ـ التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر بن عاشور
عيسى البابى الحلبى ١٩٦٤م ٠

٢١ ـ التسهيل لعلوم التنزيل ـ لابن جزرى الكلبى
دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م

٢٢ ـ تفسير البيان ـ لمطوسى ت أحمد حبيب العاملى ٠
مطبعة النعمان ـ النجف ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م ٠

٢٣ ـ تفسير القرآن الحكيم ـ محمد رشيد رضا ٠
دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت لبنان ٠

٢٤ ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير
دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى ٠

٢٥ ـ التفسير الكبير ـ للفخر الرازى
المطبعة البهية ـ مصر ١٣٥٧هـ .

٢٦ ـ التفسير المنير لمعالم التنزيل المسمى مراح لبيد ـ لمحمد نووى الجاوى
مصطفى الحلبى ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م ٠

٢٧ ـ تفسير النسفى ـ للنسفى
عيسى البابى الحلبى ـ دار احياء الكتب العربية ٠

٢٨ ـ تناوب حروف الجر فى لغة القرآن ـ د٠ محمد حسن عواد
دار الفرقان للنشر والتوزيع عمان ٠ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

٢٩ ـ تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات ـ محيى الدين أفندى
ملحق بالكشاف ـ مصطفى البابى الحلبى ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م

٣٠ ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس
مصطفى البابى الحلبى الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م ٠

٣١ ـ جامع البيان ـ الطبرى
دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م

٣٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبى ٠
دار الكاتب العربى ـ القاهرة ١٩٦٧م ٠

٣٣ ـ الجنى الدانى فى حروف المعانى ـ للمرادى
ت ٠ د٠ فخر الدين قباوه ـ دار الآفاق الحديثة ـ بيروت
١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ٠

٣٤ ـ جواهر الحسان فى تفسير القرآن ـ للثعالبى
مؤسسة الأعلى للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان ·

٣٥ ـ حاشية الأمير على مغنى اللبيب
دار احياء الكتب العربية · القاهرة ·

٣٦ ـ حاشية الانبابى على الرسالة البيانية
المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٥ هـ ·

٣٧ ـ حاشية الدسوقى على مغنى اللبيب
دار احياء الكتب العربية ·

٣٨ ـ حاشية السيد الشريف على الكشاف
مطبوعة على الكشاف ـ مصطفى البابى الحلبى ·

٣٩ ـ حاشية الصبان على شرح الأشمونى
دار الفكر ـ بيروت ·

٤٠ ـ حروف المعانى ـ عبد الحى حسن كمال
المطبعة السلفية ومكتبتها ـ الضبعة الأولى ١٣٩٢هـ القاهرة ·

٤١ ـ الخصائص ـ لابن جنى
ت· محمد على النجار ـ دار الهدى للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

٤٢ ـ درة التنزيل وغرة التأويل ـ للخطيب الاسكافى
دار الآفاق الحديثة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٧٧م ·

٤٣ ـ الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد ـ سيف الدين بن يحيى بن سعد الدين التفنازانى
دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ لبنان ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م

٤٤ ـ ديوان الشماخ
تحقيق وشرح صلاح الدين الهادى · دار المعارف ـ مصر ١٩٦٨م

٤٥ ـ رسالة الصبان فى علم البيان
المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٥هـ ·

٤٦ ـ رصف المبانى فى شرح حروف المعانى ـ للمالقى
ت د٠ أحمد محمد الخراط ـ دار القلم ـ دمشق ٠

٤٧ ـ روح المعانى ـ للألوسى
ادارة الطباعة المنيرية ٠

٤٨ ـ الزاهر فى معانى كلمات الناس ـ لأبى بكر بن الأنبارى
دار الشؤون الثقافية العامة ـ العراق ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٨٧م

٤٩ ـ سر صناعة الاعراب ـ ابن جنى
ت مصطفى السقا وآخرين ـ مصطفى البابى الحلبى ـ الطبعة الأولى ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م ٠

٥٠ ـ سنن ابن ماجة . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى
دار احياء التراث العربى ـ بيروت لبنان ٠

٥١ ـ شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك
دار الفكر ـ بيروت ٠
دار احياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) ٠

٥٢ ـ شرح الكافية ـ للرضى
المطبعة العامرة ١٢٧٥هـ ٠

٥٣ ـ شرح المفصل ـ لابن يعيش
عالم الكتب ـ بيروت لبنان ٠

٥٤ ـ شرح المفضليات ـ للتبريزى
ت٠ محمد على البجاوى ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة

٥٥ ـ الصاحبى ـ لابن فارس
ت٠ السيد صقر ـ عيسى البابى الحلبى ١٩٧٧م ٠

٥٦ ـ صحيح مسلم بشرح النووى
دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان ١٣٨٩ هـ ٠

٥٧ ـ عدة السالك الى تحقيق أوضح المسالك • محمد محيى الدين عبد الحميد
المكتبة العصرية ـ بيروت •

٥٨ ـ غرائب القرآن ـ للنيسابورى
ت• ابراهيم عطوة عوض ـ مصطفى الحلبى ـ الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م •

٥٩ ـ غريب القرآن لأبى عبد الرحمن الزيدى
ت• محمد سليم الحاج ـ عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

٦٠ ـ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ـ للشوكانى
دار المعرفة ـ بيروت •

٦١ ـ الفتوحات الالهية ـ للجمل
دار احياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) •

٦٢ ـ فقه اللغة وأسرار العربية ـ للثعالبى
دار مكتبة الحياة ـ لبنان •

٦٣ ـ الفوائد فى مشكل القرآن ـ للعز بن عبد السلام
ت• سيد رضوان على الندوى ـ مطبوعات وزارة الأوقاف ـ بالكويت ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م •

٦٤ ـ الفوائد المشوق الى علوم القرآن ـ لابن القيم
دار المعارف ـ الرياض •

٦٥ ـ القاموس المحيط للفيروزابادى
ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير ـ للطاهر أحمد الزاوى
عيسى البابى الحلبى ـ الطبعة الثانية •

٦٦ ـ الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ـ للبطليوسى
ت٠ مصطفى السقا د٠ حامد عبد المجيد ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م ٠

٦٧ ـ الكامل ـ للمبرد
عارضه بأصوله ٠ محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار الفكر العربى ـ القـاهرة ٠

٦٨ ـ الكتاب ـ لسيبويه
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م ٠

٦٩ ـ كتاب حروف المعانى ـ للزجاجى
ت د٠ على توفيق الحمد ـ مؤسسة الرسالة ـ دار الأمل ـ الأردن ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م ٠

٧٠ ـ كتاب معانى الحروف للرمانى
ت٠ د٠ عبد الفتاح اسماعيل شلبى ـ دار الشروق ـ جدة ـ ط ثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ٠

٧١ ـ الكشاف ـ للزمخشرى
مصطفى البابى الحلبى ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ٠

٧٢ ـ لباب التأويل فى معانى التنزيل ـ للخازن
مصطفى الحلبى الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م ٠

٧٣ ـ لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار المعارف ٠ القاهرة ٠

٧٤ ـ المثل السائر ـ لابن الأثير
نهضة مصر ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م ٠

٧٥ ـ مجاز القرآن ـ لأبى عبيدة ٠ عارضه بأصوله محمد فؤاد سزكين
مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

٧٦ ـ مجمع البيان فى تفسير القرآن ـ للطبرسى
طهران ١٣٧٣هـ ٠

٧٧ ـ مجلة المجمع الملكى بالقاهرة ... العدد الأول
(بحث فى التضمين) ٠

٧٨ ـ محاسن التأويل ـ للقاسمى
دار الفكر ـ بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ٠

٧٩ ـ المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ـ لابن عطية ٠
ت أحمـــد صادق الملاح ـ المجلس الأعلى للشئون الاســلامية
القاهرة ١٩٧٤ م ٠

٨٠ ـ المخصص ـ لابن سيده
دار الفكر ـ بيروت ٠

٨١ ـ مسند الامام أحمد بن حنبل
المكتب الاسلامى للطباعة والنشر ٠ دار صادر ـ بيروت ٠

٨٢ ـ معانى القرآن ـ للأخفش
ت٠ د٠ فائز فارس ـ المطبعة العصرية ـ الكويت الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ ١٩٧٩م ٠

٨٣ ـ معانى القرآن ـ للفراء
الجزء الأول : الهيئة المصرية العامة ١٩٨٠م
الجزء الثانى : الدار المصرية للتأليف والترجمة
الجزء الثالث : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م

٨٤ ـ معترك الأقران فى اعجاز القرآن ـ للسيوطى
ت٠ على محمد لبجاوى ـ دار الفكر العربى ١٩٦٩م ٠

٨٥ ـ معجم الأفعال المتعدية بحرف ـ موسى بن محمد المليانى الأحمدى
دار العلم للملايين بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٩م ٠

٨٦ ـ المغنى فى توجيه القراءات العشر المتواترة ـ د٠ محمد سالم محيسن
دار الجيل ـ بيروت ٠

٨٧ ـ مغنى اللبيب ـ لابن هشام
دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ٠

٨٨ ـ المفردات ـ للراغب الأصبهانى
أعده للنشر محمد أحمد خلف الله ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة

٨٩ ـ المفصل ـ للزمخشرى
دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ٠

٩٠ ـ ملاك التأويل ـ للغرناطى
ت٠ د٠ محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية بيروت
١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ٠

٩١ ـ من أسرار التعبير فى القرآن ـ حروف القرآن د٠ عبد الفتاح لاشين
عكاظ للنشر والتوزيع ـ المملكة العربية السعودية ـ الطبعة
الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ٠

٩٢ ـ منتخب قرة العيون النواظر فى الوجوه والنظائر فى القرآن
الكريم ـ لابن الجوزى
ت٠ محمد السيد الصفطاوى ـ منشأة دار المعارف بالاسكندرية
١٩٧٩م ٠

٩٣ ـ نتائج الفكر فى النحو ـ للسهيلى
ت٠ د٠ محمد ابراهيم البنا ـ دار الرياض للنشر والتوزيع ٠

٩٤ ـ الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ـ لابن المنير الاسكندرانى
مصطفى البابى الحلبى ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ٠

٩٥ ـ النحو الوافى ـ عباس حسن
دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٣م ٠

٩٦ ـ نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآنى بلاغيا
د٠ هادى عطية مطر مكتبة النهضة العربية بيروت ط أولى ١٤٠٦هـ

٩٧ ـ النهر الماد من البحر ـ لأبى حيان الأندلسى ٠
مطبعة السعادة بمصر الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ ٠

٩٨ ـ همع الهوامع ـ للسيوطى
دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ٠

٩٩ ـ الوجيز فى تفسير القرآن العزيز ـ للواحدى
مصطفى الحلبى ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م ٠

١٠٠ ـ وسائل الفئة فى شرح العوامل المائة ـ لمحمود العينى
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٣٣/هـ ٠

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة
تقديم	٣
توطئـــة	٧
الفصل الأول	
التضمين وأثره على دلالات الحروف وأسرارها	٢٥
التضمين تصحيح للتعدية لا بحث عن أسرار الحروف	٢٧
التضمين فى مفهوم النحاة	٣٠
التضمين فى مفهوم البيانيين	٣٤
التضمين بين الحقيقة والمجاز	٤٢
التضمين لا ينهض بأسرار الحروف	٤٩
المخالفة فى التعدية خروج عن مقتضى الظاهر	٥٣
الفصل الثانى	
من أسرار حرف الاستعلاء	٥٥
على وحرف الوعاء	٥٧
على وكلمة المصاحبة	٧٠
على وحرف الالصاق	٧٧
على وحرف الاختصاص	٨٣
على وحرف الابتداء	٩٣
على وحرف الانتهاء	٩٧
زيادتها مع الفعل المتعدى	١٠٩

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الثالث

من أسرار حرف الظرفية ١١٩

حقيقة الظرفية ومجازها ١٢١
في وحرف الاستعلاء ١٢٥
في وحرف الاختصاص ١٣١
في وحرف الانتهاء ١٣٥
في وحرف الابتداء ١٤٨
في وكلمة المصاحبة ١٥٤
في ودورها في بلاغة التجريد ١٥٩

الفصل الرابع

من أسرار حرف الالصاق ١٦٣

حقيقة الباء ومجازها ١٦٥
الباء ومعنى التعدية ١٦٨
الباء ومعنى الاستعلاء ١٧٨
الباء ومعنى الظرفية ١٨٧
الباء ومعنى التبعيض ١٩٤
الباء ومعنى الانتهاء ١٩٧
الباء ومعنى المجاوزة ٢٠٢
الباء ومعنى اللام ٢٠٨

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الخامس	
من أسرار حرف الاختصاص	٢١٥
حقيقة اللام	٢١٧
اللام وحرف الانتهاء	٢١٨
اللام وحرف الاستعلاء	٢٣٧
اللام وحرف الوعاء	٢٤٧
اللام ومعنى المجاوزة	٢٥١
اللام بين الزيادة وحرف الابتداء	٢٥٥
لام العاقبة	٢٥٩
الفصل السادس	
من أسرار حرف الانتهاء	٢٦٣
معنى الى وأسرار زيادتها	٢٦٥
الى وحرف الاختصاص	٢٦٧
الى وكلمة المصاحبة	٢٧٧
الى وحرف الالصاق	٢٨٣
الى وحرف الوعاء	٢٨٦
الى ومعنى الاستعلاء	٢٩٢
الفصل السابع	
من أسرار حرف المجاوزة	٢٩٧
حقيقته ومجازه	٢٩٩
زيادة عن وأسرارها	٣٠٢

الموضـــــوع	الصفحة
عن ومعنى الالصاق	٣٠٩
عن ودلالتها على التعليل	٣١٤
عن وحرف الاستعلاء	٣١٧
عن وحرف الابتداء	٣٢٢
الفصل الثامن	
من أسرار حرف الابتداء	٣٣١
حقيقته	٣٣٣
« من » بين الحذف والزيادة	٣٣٥
من ومعنى المجاوزة	٣٤٨
ومن ومعنى الالصاق	٣٥٢
ومن ومعنى التعليل	٣٥٧
من ومعنى الاستعلاء	٣٦١
من ومعنى الظرفية	٣٦٤
المصادر والمراجع	٣٧٠
الفهرس	٣٨٠

رقم الإيداع بدار الكتب ۳۲۳۷/۱۹۸۹

مطبعة الأمانة
٣ شارع جزيرة بدران شبرا - القاهرة